دكتور
حسن أحمد الكبير

النقائض

في عهد البعثة المحمدية

جمع • ودراسة • وموازنة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ — ١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

(أ)

عندما تعرض كلمة النقائض يتبادر إلى ذهن المرء تلك الخصومات التي كان فرسانها جرير والفرزدق والأخطل والبعيث ، وقد يذهب إلى أن هذه المعارك الكلامية كانت الصورة الأولى للمناقضة في تاريخ الشعر العربي ، وذلك لأسباب عديدة أهمها :

١ ــ عرض كتب الأدب لتلك المساجلات الأدبية واهتمام الباحثين والدارسين بها منذ فترة متقدمة من تاريخ تدوين العلوم والمعارف • فقد جمـــع أبو عبيدة معمر بن المثنى (م ٢١٠ هـ) نقائض جرير والفرزدق وشرحها في أوائل القرن الثالث الهجري ، ثم تلاه أبو تمام (م ٢٣٢ هـ) فجمع نقائض جرير مع الأخطل • وبذلك أصبحت هذه المجاميع ــ منذ تدوينها ــ مادة معدة للقارىء ، تغري بالاطـــلاع والدراسة ، بل وتشحذ فكره لما احتوت عليه من مطارحات ومساجلات تشد النفس ، وتسبي العقل فيعيش معها القارىء في متعة روحية ، وإثارة وجدانية لما تميزت به من صراع وخصومة ، ولجاج في القول، يغري بالمتابعة وترقب للنتائج ، وما تسفر عنه من نهاية بين الخصوم•

٢ ــ وبينما اهتم المتقدمون بنقائض العصر الأموي ، أغفلت النقائض السابقة على ذلك العصر من جاهلية وإسلامية ــ مع وفرتها ــ ولم يعن أحد بها ، فبقيت مطمورة منثورة في كتب السير والمغازي والتاريخ والمعارف الأخرى حتى العصر الحديث ، ولم نجد من يولي هذا الجانب عنايته أو اهتمامه ، بينما حظيت نقائض العصر الأموي ــ

مرة أخرى — فى هذا العصر بإعادة نشرها وجمعها ودراستها • فقد نشر المستشرق « أنتونى اشلى بيفان » نقائض جرير والفرزدق عام ١٩٠٥م ، ثم نشر مستشرق آخر هو «الأب أنطون صالحانى اليسوعى» نقائض جرير والأخطل عام ١٩٢٢م• وألف الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى كتابه : « جرير ونقائضه مع شعراء عصره » سنة ١٩٥٨م• وكان كتاب : « تاريخ النقائض فى الشعر العربى » للدكتور أحمد الشايب أفضل البحوث فى تاريخ النقائض ، حيث حظيت نقائض العصر الأموى منه بالتحليل والدراسة الفنية المتأنية البصيرة ، وعرض — لأول مرة — لبعض نصوص العصرين الجاهلى والإسلامى وعرف ببعض جوانب النقائض فى هذين العصرين وإن كان ذلك فى وجازة شديدة ونظرة عابرة •

٣ — وكان بقاء النقائض الأدبية فى العصر الجاهلى والإسلامى منثورة فى العديد من كتب التراث السبب الرئيسى فى إغفال هذا الفن الأدبى وإهماله ، وذلك لأن طريقها متشعب المنعطفات والوهاد ؛ فالنصوص غير موثقة ، ومعظمها فى حاجة إلى مراجعة حتى يستقيم وزنها وسياقها ، وأيضا فأغلب أصحابها ليسوا من الشعراء المعروفين، فالكثير منهم ليس له سوى أبيات معدودات قد لا تتجاوز موقفا أو موقفين ،ولذلك اكتفى الباحثون والدارسون بنقل الآراء والملاحظات النقدية العامة عن هذه الظواهر الأدبية دون تدقيق أو تمحيص •

هذه الجوانب وغيرها جعلت النقائض فى العصر الأموى قريبة التناول ، تغرى بالدراسة وإعادة النظر فيها من آن إلى آخر حتى بدا للكثير منا أنها الصورة الأولى للنقائض الأدبية ، بينما هى فى الواقع المرحلة المتطورة لهذا الفن ، والصورة الناضجة له ، فقد سبقتها أيام العرب فى الجاهلية ووقائعهم المشهورة التى كانت مجالا خصبا لإنماء هذا الاتجاه ، ثم ما كان من معارك حربية وكلامية بين صناديد الكفر وأعوانه من جهة ، وبين صحابة رسول الهدى والحق وأتباعه من جهة أخرى ، وما استتبع ذلك من شحذ الهمم فى استخدام

أمضى الأسلحة وأقواها لدى كل فريق ، فكانت الكلمة المنظومة إحدى
هذه الوسائل ، فإن من البيان لسحرا — كما يقول المصطفى صلى الله
عليه وسلم — فرافقت الكلمة المنغومة وسائل الدفاع العديدة التى
لجأ إليها الفريقان ، بل كانت مجالا رحبا لأرباب البيان وفرسان القول،
فاستخدموا كل وسائلهم الفنية فى هـــذا النزال الشرس ، حفزا
للمشاعر ، وتثبيتا للقلوب ، وإضراما لنار العداوة ، فاحتدمت بذلك
المعارك الحربية والأدبية ، واستعر أوارها بين الفريقين ، وأخذ رجال
الفكر يصورون أحداثها فى أدب رفيع رائع ، فكانت الحصيلة كماهائلا
من الفن الأدبى الراقى • فقصائد تحكى مواقف وبطولات رائعـــة ،
ومطولات تعرض للكفاح المرير ضد قوى الشر الباغية ، ومقطوعات
تسجل آراء ومعتقدات كل فريق ، وأناشيد هادرة تدعو إلى الحب
والخير وترك العناد والمكابرة ، ونقائض تهدم الأضاليل وترفض البغى
والفساد ليحل محلها التواصى بالحق والعدل والتراحم • ويشهـــد
التاريخ الأدبى بذلك مرحلة جديدة من أبرز معالمها تلك المعارك الأدبية
التى كان للنقائض المجال الرحب فيها •

(ب)

ولقد ألحت على فى الآونة الأخيرة — رغبة نشيطة فى معايشة
الأدب الإسلامى والعكوف على قراءته فى مراحله الأولى خاصة ،
أملا فى التعرف على بعض جوانب الإبداع الأدبى فى عصر البعثـــة
المحمدية ، وما سجله صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخيار،
على جنبات الدهر من صبر ومثابرة على ما أنزله عتاة الكفر وجبابرة
الشرك بهم من نكال وتعذيب ، بل وإهدار لآدميتهم ، وكانوا — على
الرغم من ذلك — تمتلىء نفوسهم بالرضا ويهنئون بالحب الإلهى العظيم،
ويسعون جاهدين إلى التضحية والبذل السخى فى سبيل رفع كلمة
الحق ، وهدم معاقل الكفر ، فكان العطاء بلا حدود ، والحرص الذى
فاق كل تصور على تكريس كل الطاقات — على الرغم من إمكاناتهم

المادية المحدودة — فى خدمة الدعوة المحمدية الناشئة والسباق الذى لم تعرف البشرية مثيلا له ، إلى الاستشهاد فى سبيل رفعة الإسلام والمسلمين ، حتى أمكنهم الله من خصومهم ، ومهدوا بذلك طريق الهدى والرشاد لبنى الإنسان ، بعد سجل حافل بالبطولات والتضحيـــات الرائعـــــة .

وفى رحاب البيت الأعظم ، والبلد الآمن — مكة المكرمة — خلوت إلى التراث العربى الإسلامى فى قراءة متأنية ، حتى أجد غايتى ، وأحظى بطلبتى ، فإذا بى أمام ذخائر نفيســـة ، وحصيلة هائلة من الأدب الرفيع فى كثير من جوانب الحياة ، بل قد بهرنى ما وجـــدت من شعر كثير متنوع لشعراء يستبعد المرء — حسب ما استقر فى الحقل الأدبى — أن يكون لهم قول فى هذا المجال . فالخلفاء الراشدون جميعهم وردت لهم أشعار فى مواقف عديدة ، بل إن منهم من يمثـــل شعره ديوانا كاملا كالإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وإذا كان هذا الديوان ليس بجديد على البيئة الأدبية فإن الأهم منه — فى ظنى — هو ما لأبى طالب بن عبد المطلب من شعر يمثل ديوانا ضخما نحا فيه — وهو الذى مات على الشرك — إلى الزياد عن ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والوقوف بجانبه منذ تولى كفالته — بعد موت جده عبد المطلب — وهو فى التاسعة من عمـــره حتى وفاته ، متحديا أباطرة الكفر ، رافضا لكل عروضهم ، متصديا لكل خطر يتهدد ابن أخيه لا يتوانى ولا يفتر له عزم ، حتى كتب الله النصر لدعوته ومحق كيد الكافرين (١) .

وكانت المعارك الشرسة بين قوى البغى والضلال ، وبين رسول الأمن والأمان وأتباعه ، الومضات الخاطفة التى شـــــدتنى إليها ، واستحوذت على اهتماماتى ، وأشبعت طلبتى ، وحققت ما هـــدفت

---

(١) راجع : أبو طالب شاعر الدعوة المحمدية ، بحث للكاتب منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق — العدد الثالث — سنة ١٩٨٤ ص ٦ — ٤١

إليه . إلا أننى وجدت موضوعاتها متشعبة ، فمنها الدعوة إلى الجهاد وتصدى كل فريق للآخر ، ومنهــا ما يختص برثاء القتلى فى جانبى المسلمين والكفار ، ومنها ما يعرض للوقائع الحربية ويشيد بانتصارات كل فريق ، ومنها ما يستقل بالنقائض بين المتصارعين ، وكل من ذلك وغيره حشدت له الطاقات ، وانثال القريض يسجل ويبدع فيها . ولذلك وجدت من الأوفق لى أن أخص جانبا واحدا من تلك الجوانب بدراستى هذه حتى أتتبعه وأجمع شتاته ، وأعرضه أمام القــارىء كموضوع واحد ، وأترجم لشعرائه ، وأشرح غامضه،وأحلل نصوصه، وأعرض لبعض ألوان الإبداع الفنى لدى هؤلاء الشعــراء ، فكانت النقائض فى عهد البعثة المحمدية ذلك الموضوع ، وخاصة أن موضوع النقائض فى هذا العصر قد أهمله الباحثون وتجاوزوه إلى ما تلاه من عصور مما يدفع بى إلى أن أجعل هذا الموضوع فى مقدمةدراساتى وبحوثى حتى يكون هذا العمل إسهاما — بجهد متواضع — فى نفض غبار الزمن ، وإزالة تراكماته عن جانب هاممن تراثنا العربىالإسلامى الأصيل ، وإبرازه فى صورته الصحيحة إلى دائرة الأضواء ،وإخراجه من عزلته التى ران عليها الزمن إلى ملتقى التجمعات الأدبية والفكرية، حتى تتعرف عليه أجيالنا الجديدة ، التى هى فى مسيس الحاجة — فى هذه الفترة من تاريخنا — إلى العودة إلى الينابيع الثرة من تراثنــا وأمجادنا الإسلامية ، لتعيش مع نتاج العقول والأفكار الذى كــان حصيلة حروب العقيدة ، فأذكى نارها ، وشب أوارها ، فانثال ترانيم وألحانا شاجية تعزف فى ملحمة النضال بين الكفر والإيمان ، وبين قوى الشر وأصحاب الدعوة السمحة الآخذة بأتباعها إلى طريق الهدى والرشـــــاد .

(جـ)

وقد جعلت هذا البحث فى مقدمة وخمسة فصــول وخاتمة . عرضت فى المقدمة للدراسات التى تناولت النقائض بصفــــة عامة ، وأوضحت أن نقائض العصر الأموى هى التىنالتالعديدمنالدراسات

والبحوث الأدبية ، مما أسهم فى إبراز كثير من جوانبها الفنيـــــة • أما ما عداها فى عصر صدر الإسلام وما سبقها فى العصر الجاهلى فما زالت فى طى النسيان ، ولم تستقل إحداها بدراسة متأنية بصيرة ولأهمية هذا اللون فى العصر الإسلامى ، وما تميز به من جوانب فنية وإبداعية فإننى قد وجهت دراستى إلى النقائض فى عصر صـــــدر الإسلام ، وقد أوضحت أهمية هذه الدراسة ودوافعى الحقيقية إلى اختيار هذا الموضوع • وأشير هنا إلى أن الموضوعات التى اندرجت تحت فصول هذا البحث قد عنونت لمعظمها بعنوان مستوحى من أفكار القصيدة الأولى التى عارضتها قصيدة أخرى أو اكثر ، ثم عرضت للقصيدة ونقيضتها ، أو ما جاء من نقائض فى ذلك الموقف وقد أتخذ لها عنوانا جانبيا من خلال أفكارها أيضا ، وفى أحيان أخرى ، اكتفيت بعرض النقيضتين بعنوان الحدث أو الموقعة التى قيلت فيها القصيدة ونقيضتها ، ثم أوردت ما جاء من نقائض فى هذا المجال •

وقد أفردت الفصل الأول لأوليات النقائض الإسلامية ، صدرته بتمهيد عرضت فيه إلى إصرار الرسول صلى الله عليـــه وسلم على مواصلة الكفاح فى سبيل الدعوة ، على الرغم من افتقاره لنصيريه : زوجه خديجة ، وعمه أبى طالب ، والاتجاه إلى خارج مكـــة يلتمس نصرة الآخرين ومساندتهم له بعد أن انغلقت قلوب القوم ، وطاردوه بإيذائهم وأسفروا عن عداوتهم ، ثم بداية تفتح الأمـــل فى بيعتى العقبة الأولى والثانية • ثم عرضت فى هذا الفصل للظواهر الأولية الإسلامية من خلال مواقف ثلاثة : الأول : أولى النقائض الإسلامية بعد بيعة العقبة الثانية ، والثانى فيما حدث بعد عقـــد أول راية فى الإسلام ، والثالث فيما كان من أمر سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر •

أما الفصل الثانى فقد خصصته للنقائض فى غزوة بدر الكبرى ، وصدرته بمدخل إلى أحداث بدر • ثم عرضت فيه لما كان من نقائض شعرية تناولت أحداث هذه الموقعة الخالدة ، كبكاء أهـــل القليب

وما شهدته بدر من أحداث دامية وأثر تلك الموقعة على الكـــافرين ، وما كان من نصر الله المبين لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين، ثم أنهيته بموقف أبى سفيان فيما سمى بغزوة السويق التى كانت أحد ردود الفعل لأحداث بدر الكبرى .

والفصل الثالث جعلته لوقائع « أحد » وماجرىفيها وقد درست فيه ثمانية مواقف من مواقف ذلك اللقاء الشرس ، وجعلتهـــا تحت العناوين التالية : حنظلة الغسيل وأبو سفيان ، ونحن جزيناكم بيوم بدر ، ونحن الفوارس يوم أحد ، وعدلنا ميل بدر فاعتدل، وكلهم مات حر البلاء ، وقولا لكعب يثنى البكا، وتمنت بنو النجار ـ جهلا ـ لقاءنا ، وأودى الجواد وأودى المطعم الكاسى .

أما الفصـــــل الرابع فقد عقدته لدراسة النقائض التى تابعت الأحداثالإسلامية بعد أحد حتى قبيل المسير إلى خيبر سنة خمسمن الهجرة ، فعرضت فيه لدراسة النقائض التى قيلت فى إجــــلاء بنى النضير عام أربع من الهجرة ، ثم ما كان فى بدر الآخرة التى وقعت فى العام نفسه ، ثم ما قيل من نقائض فى أمر الخندق وبنى قريظة فى السنة الخامسة من الهجرة .

والفصل الخامس وجهت دراستى فيه إلى النقائض التى رافقت الأحداث الإسلامية بعد غزوة الأحزاب كصلح الحديبية فى العــــام السادس الهجرى ، وفتح خيبر سنة سبع من الهجرة ، ثم فتح مكة سنة ثمان وما تلا ذلك الفتح العظيم من أحداث ، ثم مـــا كان فى عام الوفود سنة تسع من الهجرة .

وفى خاتمة البحث أشرت إلى حاجة هذا اللون الأدبى إلى مزيد من الجهد المتصل لعرض جوانبه الفنيــــة ، والوقوف على الألوان الإبداعية فيه ، حتى تتضح معالمه ، ويفسح له المجال فى الأعمـــال الأدبية التى تحظى باهتمام البـــاحثين والدارسين ، ثم ألمحت إلى بعض النتائج التى كانت من ثمرات هذا البحث . وأرجو أن أكون قد

وفقت إلى ما قصدت إليه ، وأسهمت بجهد متواضع فى نفض غبار الزمن عن جانب من تراثنا الإسلامى الوافر العطاء ، الذى لا ينضب معينه ، ولا يخبو ضوؤه •

وأتوجه إليه سبحانه وتعالى بالدعاء أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن ينفع به ، فبفضله تتم الصالحات ، وبعونه ومشيئتـــه تستجاب الدعوات •

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

دكتـــور
حسن أحمد أبو أحمد الكبير
وكيل كلية اللغة العربية بالزقازيق

المعادى الجديدة :
فى صباح الجمعة التاسع من ذى القعدة ١٤٠٤ هـ
الموافق السابع عشر من أغسطس ١٩٨٤ م

الفصـــل الأول

أوليات النقائض الإسلامية

تمهيد : فى التماس رسول الله صلى الله عليه وسلم النصرة خاج قومه ، وإعزاز الله له :

(ا) كان أبو طالب والسيدة خديجة عونا ومنعة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم من أذى القوم ، وعضدا يدفع عنه كثيرا من الأخطار والمتاعب • إلا أن ذلك لم يدم طويلا ، فقبل هجرته صلى الله عليه وسلم بثلاث سنوات ، توفى هذان العضدان ، فألحقت قريش به صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تجرؤ عليه فى حياة أبى طالب ، ولذلك نجده صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الطائف يلتمس النصرة هناك من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، وهو يرجو أن يقبلوا منه ما جاء به من الله عز وجل ، واتجه إليهم ، وعمـــد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتهم وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل ابن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو ، وحبيب بن عمرو ، وعنـــد أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه • إلا أنهم لم يكونوا أحسن حالا من قومه ، فلم يقبلوا منه قولا ، أو يستجيبوا لدعوة ، ولما تبين له صلى الله عليه وسلم رفض دعوته ويئس من خيرهم ، قال لهم : « إذا فعلتم ما فعلتـــم فاكتموا عنى » حتى لا يكون ذلك دافعا لقومه إلى التمادى فى تجرئهم عليه ، وإلحاق الأذى به وبصحبه ، إلا أنهم لم يفعلوا ، بل أغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى كانت تلك الكلمـــــات المستجيرة الضارعة تغسل الهموم والأحزان ، فتستحيل المتاعب معها إلى يقين راسخ ، ونفس أبية ، هانئة بالحب الإلهى والوصال الربانى:

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى؟• إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكتـــه أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » (1) •

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكةوقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به،واتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من المواسم فرصة ليعرض نفسه على القبائل الوافدة إلى مكة يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبى مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم عن الله ما بعثه به ، فأتى ــ كما يخبر الرواة ــ كندة فى منازلهم فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه، وأتى « كلبيا » فى منازلهم ، إلى بطن منهم يقال لهم : بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم • ثم أتى بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم • وأتى بنى عامر بن صعصعة فطلب منه أحـــدهم أن يكون لهم الأمر من بعده إن هم تابعوه فقال الرســـول صلوات الله وسلامه عليه : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه • قال ابن إسحق : فكان رســـول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهـــم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه ، وما جاء

---

(1) راجع ذلك بالتفصيل فى : السيرة النبوية لابن هشـــام ٤٢٠/١ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ــ مطبعة الحلبى الطبعة الثانية ١٩٥٥ م ، وسيرة النبى ٢٨٥/٢ وما بعدها تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميـــد ــ مطبعة المغربى ١٩٧١ ، وشرح نهج البلاغة ٩٦/١٤ وما بعـــدها تحقيق محمد أبى الفضل ــ مطبعة الحلبى ــ ط ٢ سنة ١٩٦٧ م •

به من الله من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب ، له اسم وشرف إلا تصدى له ، فدعاه إلى الله ، وعرض عليه ما عنده (1) .

(ب) إظهار الدين وإعزاز نبى الله :

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز وعده له خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقيه فيه ذلك النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، ، كما كان يصنع فى كل موسم . فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم الخير ،فعرض الرسول عليهم أمره وما جاء به ،ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن ، ففتح الله قلوبهم للإسلام وأعلنوا إيمانهم بمحمد وما جاء به ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج ، فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ودعوته إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم (2) حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار إثنا عشر رجلا فلقوه صلى الله عليه وسلم بالعقبة ــ وهى العقبة الأولى ــ فبايعوه صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء (3) وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب،فلما قفلوا راجعين إلى منازلهم بعث معهم الرسول صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير ابن هاشم وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين . ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة مع المسلمين الذين

---

(1) راجع السيرة النبوية لابن هشام 429/1 وما بعدها ، وسيرة النبى 289/2

(2) راجع السيرة النبوية لأبن هشام 429/1 وما بعدها ، وسيرة النبى 292/2 وما بعدها .

(3) أراد ببيعة النساء أنهم لم يبايعوه على القتال . وكانت مبايعته (ص) للقضاء ، أن يأخذ عليهن العهد والميثاق ، فإذا أقررن بألسنتهن قال : قد بايعتكن . وقد ذكرت بيعة النساء فى قوله تعالى : « يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على الا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ... » الآية رقم 12 من سورة الممتحنة .

خرجوا إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، فلما قدموا مكة واعدوا الرسول صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته،والنصر لنبيه،وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأتباعه •

قال كعب : فلما فرغنا من الحج وكانت الليـــلة التى واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها •• فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدى ، فاجتمعنا فى الشعب حتى جاءنا رسول الله ومعه (عمه) العباس بن عبد المطلب • وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، •• ثم بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب منا أن نخرج منا اثنى عشر نقيبا ليكونوا على القوم فأخرجنا له تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فقال الرسول للنقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيـــل على قومى • قالوا : نعم • ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفضوا إلى رحالكم • فقـــال العباس بن عبادة : والله الذى بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم فرجعنا إلى مضاجعنا ، فنمنا عليها حتى أصبحنا (١) •

وكان هذا بداية انفراج الحصار الثقيل ، ونقطة انبلاج الضوء الجديد ، وإشارة إلى انقشاع غياهب الظلمة التى رانت على القلوب والأفئدة •

---

(١) راجع ذلك بالتفصيل فى السيرة النبوية لابن هشام ٤٤٦/١ — ٤٤٨ ، وسيرة النبى ٢٩٩/٢ — ٣٠٧

١ – أول ما قيل من النقائض فى الهجرة

سمعت قريش مبايعة أصحاب العقبة الثانية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين من أبناء المدينة المنورة . فلما استوثق القوم من حدوث تلك البيعة أسرعوا فى طلبهم ، فأدركوا سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو – وكلاهما كان نقيبا – لكن المنذر استطاع أن يفلت منهم ، وأخذوا سعدا فربطوا يديه إلى عنقه ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بشعر رأسه وكان ذا شعر كثيف . يقول سعد : « فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى إلى رجل [1] ممن معهم ، فقال ويحك ! أما بينك وبين أحد من قريش تجارة ولا عهد ؟! . فقلت : بلى والله ، لقد كنت أجير لجبير ابن مطعم بن عدى بن نوفل تجارة ، وأمنهم ممن أراد ظلمهم ببلادى وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما ، قال : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما عند الكعبة فأخبرهما الخبر ، فقالا : صدق ، إن كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده ، وخفا لنجدته

---

(١) هو أبو البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد . وقد نهى الرسول (ص) من يلقاه يوم بدر من المسلمين عن قتله ، وذلك لأنه كان يكف القوم عن الرسول (ص) بمكة ، وكان لا يؤذيه ، ولا يبلغه عنه شىء يكرهه ، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة – كما سيأتى ذلك بالتفصيل – إلا أن المجذر بن زياد البلوى قد لقيه ومعه زميل له يركب معه على بعيره – هو جنادة بن صبيحة بن زهير بن الحارث بن أسد – فقال له المجذر : إن الرسول قد نهانا عن قتلك ، فقال له أبو البخترى ، وزميلى ؟ فقال له : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا الرسول (ص) إلا بك وحدك ، فقال أبو البخترى : إذن لأموتن أنا وهو جميعا ، ولا تتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلى حرصا على الحياة ، فنازله المجذر فقتله وقتل صاحبه ، ثم ذهب إلى الرسول (ص) وقال له : والذى بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به فأبى إلا أن يقاتلنى ، فقاتلته فقتلته . راجع السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٤٩ وما بعدها ، وشرح نهج البلاغة ١٤/١٣٣ وما بعدها ، ونهاية الأرب للنويرى ١/٤٦ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .

فخلصاه من أيدى قريش (١) » . يقول ابن إسحق : فكان أول شعر قيل فى الهجرة بيتين قالهما ضرار (٢) بن الخطاب بن مرداس أخو بنى محارب بن فهر :

تداركت سعدا عنوة فأخذته وكان شـــفاء لو تداركت منذرا
ولو نلته طلت هناك جراحه وكان حـــريا أن يهان ويهدرا (٣)

ـــ حسان بن ثابت يجيب ضرارا، وهو أول شعر له فى الإسلام:

لست إلى سعد ، ولا المـــرء منذر
اذا ما مطـــايا القوم أصبحن ضمرا (٤)

---

(١) الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء ٤٢٦/١ تحقيق مصطفى عبد الواحد ، مكتبة الخانجى ١٩٦٨ ، وراجع سيرة النبى ٣٠٨/٢

(٢)ضرار بن الخطاب بن مرواس بن كثير بن عمـــرو بن ســـليمان ابن محارب بن فهر القرشى . قال ابن حبـــان : له صحبـــة وكان فارسا شـاعرا ، ولم يكن فى قريش أشعر منـــه ، وبعده ابن الزبعرى ، وقـــال ابن سعد : كان يقاتل المسلمين فى الوقائع أشد القتال . وكان جده ــــ مرداس ــــ رئيس بنى محارب بن فهر فى الجاهلية ، يسير بالرباع ــــ وهو ربع الغنيمة ــــ وكان أبوه أيام الفجار رئيس بنى محارب . أسلم ضرار عام الفتح ، وقتل باليمامة شهيدا ، وقال الخطيب : بل عاش إلى أن حضر فتح المدائن . راجع السيرة النبوية لابن هشام ٤٥٠/١ ، والإصابه فى تمييز الصحابة ١٩٠/٥ تحقيق طه الزينى ــــ مطبعة الفجالة الجديدة ١٩٧٦ م ، والبداية والنهاية ٣٤١/٣

(٣) قال ضرا رهـــذه الأبيـــات فى ســـعد بن عبادة والمنذر بن عمرو الأنصاريين لمـــا خلصا من أسر قريش . يقـــول ابن هشام : ويروى : « وكان حقيقا » بدلا من : « وكان حريا » ، وطل ــــ بالطاء المهملة والبناء للمجهول ــــ دمه : اى أهدر ولم يثأر به . وقد روى جامع ديوان حسان بن ثابت الشطر الثانى فى البيت الثانى هكذا : «وكانت جراحا أن تهان وتهدرا» عن نسخة من سيرة ابن هشام ، وعلق عليه : أى حقيقة أن يفعل بها ذلك . وكما هو واضح فالمعنيان متقاربان . راجع ديوان حسان بن ثابت ص ٣٠٨ تحقيق سيد حنفى حسنين ــــ دار المعارف بمصر ، وراجع : السيرةالنبوية لابن هشام ٤٥٠/١ ، ٤٥١

(٤) فى الاكتفاء : لست إلى عمـــرو . وهو يتفق مع صاحب الروض الأنف ، وقا لالسهيلى فى التعليق عليه : يعنى بعمرو ، عمرو بن خنيس والدالمنذر ، والمعنى : لست إلى عمرو والا إلى ابنه المنذر ، أى أنت أقل من ذلك .

فلولا أبو وهب لمـــرت قصـــائد
على شـــرف البرقاء يهوين حسرا (١)

أتفخـــر بالكتـــان لمـا لبستـــه
وقد تلبس الأنباط ريطـــا مقصرا (٢)

فلا تك كالوسنـــان يحلـــم أنه
بقـــرية كسرى أو بقرية قيصـــرا (٣)

ولا تك كالثـكلى وكانت بمعـــزل
عن الثـــكل لـــو كان الفؤاد تفكرا (٤)

ولا تك كالشـــاة التى كـــان حتفها
بحفر ذراعيهـــا فلم ترض محفـــرا

ولا تك كالعـــاوى فأقبـــل نحـــره
ولم يخشه ، سهما من النبل مضمرا (٥)

فإنا ومن يهـــدى القصـــائد نحونا
كمستبضع تمـــرا إلى أرض خبيرا (٦)

مع النقيضتين :

هذا اللقاء ــ كما يذكر الرواة ــ أول لقاء فكرى يحـــدث بين

---

(١) أبو وهب : هو المطعم بن عدى . البرقاء : موضع بالبادية . حسرا : أضناها الاعياء والتعب .

(٢) الأنباط : قوم من العجم . الريط : الملاحف البيـــض ، وأحدتها : ريطـــة .

(٣) الوســـنان : النـــائم .

(٤) الثكلى : التى فقدت ولدها . ولم يذكر جامع ديوان حسان بن ثابت هذا البيت فى المتن وإنما أشار إليه فى الهامش على أنه من رواية ابن هشام . راجع ص ٣٠٨

(٥) رواية جامع ديوان حسان بن ثابت : « ولاتك كالغادى » .

(٦) خبير : أرض الثمر ، فكأنه يبيـــع التمر فى بلده ويشير بالشطر الثانى إلى المثل المعروف : « كمستبضـع التمر الى خيبر » راجع الأبيات فى : السيرة النبويـــة لابن هشام ٤٥١/١ ، وسيرة النبى ٣٠٩/٢ ، والسيرة النبوية ٢٨٤/٢ تحقيق أحمد حجازى السقا ، مطبعة نهضة مصر ، والاكتفاء فى مغازى رسول الله ٤٢٦/١ ، وديوان حسان بن ثابت ص ٣٠٨ . وقد جاءت الأبيات فى الديوان على نظام آخر غير ما أوردناه هنا ، فقد حذف منها البيت الخامس ــ كما ذكرنا ــ وجعل البيت الثالث آخرا ، والآخر ثالثا .

الشاعرين بعد أول هجرة للمسلمين . فأصحاب العقبة الثانية وإن كانوا من المدينة المنورة قد عادوا إلى بلادهم بعد مبايعة النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنهم حرموا لقاء رسولهم،ولم يتمكنوا منمرافقته، وملازمة حضرته الشريفة ، فرارا بدينهم من أباطرة الكفر وعتـــاة الشرك أهل مكة . وهذا هو جوهر الهجرةوحقيقتها بالنسبة للمسلمين. وضرار الممتلىء قلبه حقدا وكراهية — فى ذلك الوقت — لمحمد ومن والاه يوجه فى بيتيه اللوم إلى جبير بن مطعم ، والحارث بن حرب اللذين خلصا سعد بن عبادة من أيدى قريش قائلا لهما : كيف يحدث ذلك منكما ، وكان المفروض أن يكون سعيكما للقبض على رفيقه المنذر — الذى فر من أيدى القوم — والعمل على اللحاق به حتى ننزل به أشد العقاب ونذيقه الهوان ، بل نزهق روحه ونريق دمه جزاء جرأته وما قام به من تحد لمشاعر قريش ، وخروج على رأيهم فى محمد ورسالتـــه .

وعلى بحر البيتين — بحر الطويل — وقافيتهما وحرف رويهما يصوغ حسان بن ثابت رده ونقضه لما ذهب إليه ضرار ، وهو — كما يذكر الرواة — أول شعر لحسان بعد إسلامه ، فيوبخ ضرارا على ذلك الموقف العدائى الذى يتخذه ضرار من المسلمين ، والحقـــد الذى يضمره فى نفسه لهم ، موضحا له أنه أقل شأنا وقدرا من هـــذين الصحابيين الجليلين اللذين حرصتقريش على اللحاق بهما ،وأن إجارة سعد ، والإسراع إلى نجدته ، وتخليصه من الأسر عمل كريم وموقف نبيل ، يدل على أصالة المنبت ، وعراقة المحتد ، بعكس موقفك الذى دفعك إليه حقدك وحماقتك ، ولذا نجد حسانا يعنف فىمهاجمة خصمه — ضرار — والزراية بمكانته وتفكيره فى أسلوب تهكمى ساخر قائلا له : ألأنك قد لبست الكتان بعد عرى نسيت من أنت ؟ ، وماذا كنت؟. ليس الإنسان بمظهره وملبسه ، فقد تلبس الأعاجم الملاحف البيض ، ولكن ذلك لا يرفع من قدرها شيئا ، ولا يعلى من مكانتها . أفق أيها الرجل من غفوتك ، وتخل عن حقدك الأعمى ، حتى لا تقع فى رذائل الأعمال ، ويصل بك تفكيرك السقيم إلى الإضرار بنفسك والإساءة

إليها • فلا تكن كالنائم الذى يحلم بالأحلام الوردية ولا حقيقة لها ، ولا تكن أعمى البصر والبصيرة توقع نفسك فى المهالك نتيجة حمقك وغفلتك ، فإنك بهذه الغفلة تشبه الشاة التى تحفر قبرها بذراعيها بدافع من جهلها وغبائها • وهو فى هذا يشير الى المثل القديم الذى يشبه من يثير على نفسه الشر ، بالباحث عن المدية ، ولذلك نجد الجاحظ ينشد قول القائل :

وكان يجير النـــاس من سيف مالك
فأصبح يبغى نفســـه من يجيرها

وكان كعنز السـوء قامت بظلفها
إلى مـــدية تحت التراب تثيرها

ثم يستمر حسان فى هجومه العاتى على ضرار فينبهه إلى عدم التمادى فى تلك الغفلة حتى لا يكون كالحيوان الذى يعوى فينبه الصائد إلى مكانه فيكون ذلك سبب هلاكه بتسديد السهم القاتل إلى نحره • ثم يختم حسان هذه الوقفة العدائية معضرار بالزراية بشعره وقوله ، موضحا له أن أى قول مهما بلغ من الجودة والإتقان الفنى إنما هو بالنسبة إليه قول مكرر معاد لا روح فيه ولا جدة ، إذ هم أصحاب كل قول بديع ، وأرباب البيان ، وأساطين الفن الشعرى الرفيع • ثم يؤكد هذا القول بالاستشهاد بالمثل القديم : « كمستبضع تمرا إلى أرض خيبر » أى كأنه يبيع التمر فى بلده الأصلى وموطن إنتاج أجود أصنافه وأرقاها ، وفى معنى هذا البيت يقول النابغة الجعدى :

وإن امرأ أهدى إليك قصيدة كمستبضع تمرا إلى أرض خيبرا[1]

وأبيات حسان بهذا المنحى تتخذ من همسة ضرار اللائمة ذريعة للنيل منه والتشنيع عليه فينهال عليه بلاذع القول ، وساخر اللفظ ، محذرا مرة ، ومستهينا بفكره أخرى ، ناعيا عليه سوء تقديره ، وتحجر

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٥١ ، ٤٥٢

تفكيره ، حتى شارك النائم فى الغفلة وتوقف التفكير ، وشابه الشاة فى التجرد من العقل مما كان سببا فى جنايتها على نفسها ، ثم إنقوله الذى يتباهى به ، لا وزن له ، ولا اعتداد به ،فإنه مهما أحكم أسلوبه، وانتقى لفظه ، ورتب فكره ، فلن يرقى إلى ما يصوغه حسان من در القول ، وبديع الفن ، وما يضمنه من رقيق الفكر والمشاعر ، وهو ببضاعته الكاسدة هذه فى مواجهة فن حسان المبدع إنما يشبه من يجلب التمر لبيعه فى بلاده — خيبر — التى ذاعت شهرتها به،وعرفت بإنتاج أرقى أنواعه وأجودها .

وحسان فيما شنع به على صاحبه إنما يعمد إلى المبالغة والإسراف فى القول، ولكنه الشعر الذى قيل عنه:«إن أعذبه أكذبه». فضرار كما روت عنه الأخبار : ابن سادة كرام كانوا رؤساء فىقومهم، وأصحاب نفوذ واسع بينهم ، هذا بالإضافة إلى ما عرف عنه من الفروسية والشجاعة ، وما يتطلبه ذلك من الحزم والروية ، ودقة الفكر ونفاذ البصيرة ، ثم إنه كما يذكر بن حبان : « لم يكن أشعر منه فى قريش » . كلذلك ينقض ما ذهب إليه حسان بن ثابت ، ويؤكد تجاوزه فيما نعاه على ضرار ، إلا أن حسانا وقد آلمه ما رآه من عداء ومناهضة وحمق فى الرأى والفكر من ضرار قد أثار حفيظته ، وألهب مشاعره فانثال قريضه يلفح به وجه خصمه ويصفع به حمقه وحقده .

٢ ـ مع أول راية عقدها عليه الصلاة والسلام

وهى لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب

بعد ثلاث عشرة سنة من الكفاح والمعاناة ، ومناهضة قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه،هاجر إلى المدينة المنورة،ووصلها مع رفاقه ظهر يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، وكان عليه الصلاة والسلام يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة .

وفى ربيع الأول من السنة الثانية لهجرته الشريفة (١) صلوات الله وسلامه عليه بعث عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ابن قصى فى ستين أو ثمانين راكبا من المهاجرين ـ ليس فيهم من الأنصار أحد ـ إلى بطن رابغ(٢)،فسار حتى بلغ ماء بالحجاز ـ بأسفل ثنية المرة ـ فلقى بها جمعا عظيما من قريش ، فلم يكن بينهم قتال ، إلا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمى به فى الإسلام ، ثم انصرف القوم وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرانى ـ حليف بنى زهرة ـ وعتبة بن غزوان ابن جابر المازنى ـ حليف بنى نوفل بن عبد مناف ـ وكانا مسلمين ولكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار (٣) ، وكان على القوم عكرمة بن أبى

---

(١) يذكر صاحب نهاية الأرب ان ذلك كان فى شوال على راس ثمانية أشهر من هجرته صلى الله عليه وسلم على أساس أن ابن إسحق قدم هذه السرية على سرية حمزة . راجع نهاية الأرب ٢/١٧ .

(٢) قبل ذلك كانت غزوة الأبواء ـ قرية بينها وبين الجحفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلا ـ وهى أول غزوة غزاها الرسول (ص) بنفسه ، حيث خرج فى صفر من السنة الثانية للهجرة غازيا حتى بلغ ودان ـ واد على الطريق يقطعه المصعدون من حجاج المدينة ـ يريد قريشا وبنى ضمرة بن بكر ، فوادعته فيها بنو ضمرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا فأقام بقية صفر وصدرا من شهر ربيع الأول . راجع فى ذلك : السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٩٢ ، والروض الأنف ٥/٥١ وما بعدها ، والسيرة النبوية ٢٥/٣٩٠ ، وسيرة النبى ٢/٤٢٧ ، ونهاية الأرب ١٧/٤ .

(٣) أى انهما اتخذا من خروجهما مع الكفار وسيلة إلى انضمامهما إلى المسلمين ووصولهما إليهم .

جهل . ويذكر ابن هشام إنه : مكرز بن حفص بن الأخيف ، أحد بنى معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر [1] فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى هذه السرية :

أمن طيف سلمى بالبطـاح الدمائث
أرقت وأمر فى العشيرة حادث [2]

ترى من لؤى فرقة لا يصـــدها
عن الكفـــر تذكير ولا بعث باعث

رسول أتاهم صـــادق فتكـــذبوا
عليه ، وقالوا : لست فينا بماكث

إذا ما دعوناهم إلى الحـق أدبروا
وهروا هرير المحجـرات اللواهث [3]

فكم قـد متتنـا فيهمـو بقـرابة
وترك التقى شىء لهم غير كـارث [4]

فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهـم
فما طيبـــات الحل مثـل الخبائث

وإن يركبـوا طغيـانهم وضلالهـم
فليس عذاب الله عنهـــم بلابث [5]

ونحـــن أناس مـــن ذؤابـــة غـــالب
لنـــا العز منها فى الفروع الأثائث [6]

---

(١) راجع ذلك بالتفصيل فى المراجع المذكورة سابقا .
(٢) الدمائث : الرمال اللينـــة .
(٣) هروا ، وثبوا كما تثب الكلاب . المحجرات : يعنى الـــكلاب التى أحجرت وألجئت إلى مواضعها . اللواهث : التى أخرجت ألسنتها وتعبت أنفاسها .
(٤) متتنـــا : اتصلنا . غير كارث : غير محزن .
(٥) بلايث : بمبطىء .
(٦) الفروع الأثائث : الكثيرة المجتمعة .

فأولى برب الراقصـــات عشيـــة
حراجيج تحدى فى السريح الرثائث (1)

كـــأدم ظبـــاء حـــول مكـــة عكف
يردون حياض البئر ذات النبـــائث (2)

لئن لــــم يفيقـــوا عاجلا من ضـــلالهم
ولست إذا آليت قـــولا بحـــانث

لتبتـــدرنهـــم غارة ذات مصـــدق
تحـــرم أطهـــار النساء الطوامث (3)

تغـــادر قتلى تعصب الطير حولهـــم
ولا ترأف الكفـــار رأف ابن حارث (4)

فأبلغ بنى سهـــم لديك رســـالة
وكـــل كفـــور يبتغى الشر باحث

فإن تشعثوا عرضى على سوء رأيكم
فإنى من أعراضـــكم غير شـــاعث (5)

---

(1) أولى : أحلف وأقسم . الراقصات : يعنى الإبل والرقص ضرب من المشى . حراجيج : مفردها حرجوج ، وهى الطويلة . ويروى «عناجيج» أى حسان . تحدى : تساق ويغنى لها . السريح : قطع من الجلد تربط على أخفاف الإبل مخافة أن تصيبها الحجارة ، فهى تشبه النعل تلبسه أخفاف الإبل . الرثائث : البالية الخلقة . يريد أن هذه الإبل الطوال تحدى ، أى تسرع فى سريع قد رث من طول السير .

(2) الأدم من الظباء : السمر الظهور البيض البطون . عكف : مقيمة. النبائث : جمع نبيثة وهو تراب يخرج من البئر إذا نقيت .

(3) المصدق : يقال إنه ذو مصدق ـــ بالميم والدال المفتوحة ـــ أو ذو مصدق ـــ بكسر الميم ـــ أى شجاع صادق الحملة أو الجرى أو ما أشبه ذلك ، وجملة « ذات مصدق » يعنى حملة قوية ذات بسالة وتضحية . الطوامث : جمع طامث وهى الحائض .

(4) تعصب الطير : تجتمع وتحيط . ابن حارث : يعنى به : عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب .

(5) تشعثوا تغيروا وتفرقوا . وراجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٥٩٢/١ ، ٥٩٣ والسيرة النبويـــة ٣٩٠/٢ ، والروض الأنف ٥١/٥ ، وسيرة النبى ٢٧/٢ ٤وما بعدها .

فأجابه عبد الله بن الزبعرى السهمى[1] فقال :

أمن رســـم دار أقفرت بالعثاعث
بكيت بعين دمعهـــا غير لابث [2]

ومن عجب الأيام والدهـــر كلــه
له عجب من سابقـــات وحـــادث

لجيش أتانا ذى عـــرام يقـــوده
عبيدة يدعى فى الهياج ابن حارث [3]

لنترك أصنـــاما بمكـــة عكفـــا
مـــواريث موروث كـــريم لوارث

---

(١) هو عبد الله بن الزبعرى ، بن عدى بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشى . والزبعرى فى اللغة : السيىء الخلق ، وفى الاستقاق رجـل زبعـرى اذا كان غليظـا كثـير الشـعر ، والزبعرى أيضـا : البعـير القصـير اللئيـم ، الكثـير شعر الوجه والحاجبين . كان عبد الله أحـد ثلاثة رهط من قريش يهجو رسول الله (ص) هم عبد الله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص . وكان أشدهم هجاء للرسول (ص) وللمسلمين فى الجاهلية ، وهو من شعراء النقائض المعدودين ، وشاعر مكة وأحد شعراء قريش البارزين ، ولشدة إفحاشه فى هجاء الرسول والمسلمين أهدر النبى (ص) دمه يوم فتح مكة سنة ٨ هـ ، فهرب إلى نجران ـــ إحدى مدن اليمن ـــ فهجـاه حسان بن ثابت وعيره بفراره ، فعاد إلى النبى (ص) وأخذ يعلن ندمه وتوبته ، فقبل النبى (ص) إسلامه وأمنه ، ثم حسن إسلامه بعد ذلك وأخذ يسجل توبتـه فى شعر إسلامى رقيق ، ومعظم شعره بعامة فى المدح والهجاء وبعض الحكم . وقد اشترك فيما تلا فتح مكة من معارك ، وكانت وفاته سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م) على الراجح . راجع فى حياته وشعره : الروض الأنف ٥/٧٠ ، ١٤٥/٧ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٧ ، والأغانى ١٣٧/٤ طبعة دار الكتب الطبعة الأولى ، ونهاية الأرب ٣١١/١٧ ، وشعر الدعوة الإسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين ٩٢/١ مطبوعات كلية اللغة العربية بالرياض ، وتاريخ الأدب العربى لعمر فروخ ٢٦٨/١ دار العلم للملايين ببيروت ـــ الطبعة الثالثة ١٩٧٨ م .

(٢) العثاعث : واحدها عثعث ، وهى أكرم أكداس الرمل التى لا تنبت شيئا ، وفى العين : العثعث : ظهر الكثيب الذى لا ثبات فيه . غير لابث : أى غير ماكث ، ويروى : غير لائث ، أى محتبس .

(٣) العرام : الكثرة والشدة . الهياج : الحرب .

فلمـــا لقينـــاهم بسمر ردينـــة
وجـــرد عتـــاق فى العجاج لواهث (١)

وبيض كـــأن الملح فوق متونهـــا
بأيدى كمـــاة كالليـــوث العوائث (٢)

نقيم بهـــا إصعـــار من كـــان مائلا
ونشفى الذحول عاجـــلا غير لابث (٣)

فكفوا على خوف شـــديد وهيبـــة
وأعجبهم أمر لهم أمـــر رائث (٤)

ولو أنهـــم لم يفعلوا ناح نســـوة
أيامى لهـــم ، من بين نسء وطامث (٥)

وقد غودرت قتلى يخبر عنهمـــو
حفى بهـــم أو غافـــل غير باحث (٦)

فأبلـــغ أبا بكـــر لـــديك رســـالة
فما أنت عن أعـــراض فهر بماكث

ولمـــا تجب منى يمين غليظـــة
تجد حربا حلفـــة غـــير حانث (٧)

---

(١) سمر: رماح . ردينة : امرأة تنسب إليها الرماح . العجـــاج : الغبار ، ويراد به هنا الحرب لكثرة ما يثار فيها من الغبار .

(٢) العوائث : المفســدات .

(٣) إصعار : الميل ، من أصعر خده إذا أماله عن النظر إلى الناس تهاونا وكبرا : الذحول : جمع ذحل ، وهو طلب الثأر .

(٤) رائث : متمهل فى الأمر مقدر لعواقبـــه ويروى « غـــير » مـــكان « أمر » الثانية وهو أوضح .

(٥) النسء : المتأخرة الحيض المظنون بهـــا الحمل .

(٦) حفى بهم : كثير السؤال عنهم .

(٧) راجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشـــام ١/٥٩٣ ومـــا بعدها ، والروض الأنف ١/٥٤ ، وسيرة النبى ٢/٤٣٠ ، والسيرة النبوية ٢/٣٩٢

الدراســـة الأدبيـــة :

١ — يذكر ابن هشام [1] أن أكثر العلم بالشعر ينكر القصيدة المنسوبة إلى أبى بكر رضى الله عنه ، ويشهد بصحة من أنكر أن تكون له ، ما روى عبد الرازق عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشـــة قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر فى الإسلام [2]. كما يذكر ابن هشام أيضا أن أكثر أهل العلم بالشعر ينكر نقيضة هذه القصيدة لابن الزبعرى ، وقد ترك منها بيتها واحدا .

وهذه الأقوال تقوى جانب الشك فى نسبة هذه القصيدة إلى أبى بكر ، على الرغم من أن ابن هشام قد أورد له أشعارا مختلفـــة فى مواقف متعددة . إلا أن ذلك يعيد إلى الأذهان قضية « نحل الشعر » فى العصرين الجاهلى والإسلامى التى طرحها الدكتور طه حسين فى العشرينات من القرن الحالى ، وضرورة العودة إلى ما روى فى هذين العصرين من شعر فى محاولة لتوثيق وتحقيق نسبتـــه إلى قائليه . وهذه عملية ليست سهلة أو هينة ، خصوصا فى تلك الفترة المتقدمة التى كثر فيها الوضع على الشعراء ، وإضافة أعمال أدبية كثيرة إلى غير منشئيها بدافع العصبية ، أو الرغبة فى إضفـــاء مزيد من الولاء لشخصية من الشخصيات ، أو الانتصار لرأى وتأييده ، فينسب إلى من تجتمع القلوب من حوله وتدين له بالحب والتعظيم ، أو غير ذلك من الدوافع التى تحدثت عنها الكتب التى تعرضت لقضية النحل فى الشعر العربى [3] .

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٩٢ ، والسيرة النبوية ٢/٣٩١

(٢) رواه البخارى عن أبى المتوكل عن عبد الرازق . وقد ذكر ذلك أبو ذر الخشنى فى شرحه للسيرة ، ونقـــله عنـــه صاحب الروض الأنف ٥/٥٣ ، ٧١

(٣) راجع : نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى لعبد الحميد المسلوت — دار القلم بالقاهرة ص ٥١ وما بعدها ، ص ٥٩ وما بعدها ، ص ١٦٦ وما بعدها . والمدخل فى الأدب العربى للمستشرق هاملتن جب ، ترجمة ناظم سعد الدين — مطبعة دار الجاحظ بغداد ص ٢٥ وما بعدها .

وهذه قضية أدبية من أخطر قضايا الأدب وأهمها ، وهى بحاجة ماسة إلى دراسة مستقلة متأنية • إذ لا ينكر أحد صعوبة البحث فيها، وحاجتها إلى صبر ومعاناة وعكوف مستمر على النصوص حتى يمكن الوصول — ولو فى جانب منها — إلى رأى قاطع ، ونتائج إيجابية واضحة •

ولخطورة هذا المنحى ووعورة مسلكه وجدنا الأقلام التى حققت سيرة ابن هشام ، وعكفت على دراستها ، قد اكتفت بإثبات ما ذكره ابن هشام من التشكيك فى نسبة بعض النصوص إلى أصحابها ، متجاوزة ذلك إلى شرح اللغويات ومعانى المفردات • ولكنى هنا لم أكتف بذلك ، بل حاولت فى معظم النصوص أن أشير إلى مواطنها فى العديد من المصادر والمراجع ، لأدل بذلك على اشتهار نسبة النص إلى قائله لدى نفر من الباحثين ، ويكون ذلك أيضا بمثابة دليل آخر على تأكيد نسبة النص إلى قائله ، وخاصة إذا جاء النص فى ديوان الشاعر نفسه كديوان حسان بن ثابت وديوان كعب بن مالك وغيرهما ، كما أن عدم التثبت من شخصية القائل فى بعض نصوص هذه الدراسة ، لا يقلل من أهميتها ، ولا ينال فى شىء منها ، لأن الهدف الأول هنا ، هو طرح العمل الأدبى الذى قيل فى موقف من المواقف وما ناقضه من أعمال أخرى للدراسة الأدبية ، لنعرض من خلالها وجهة نظر فريق الكفر ، ووجهة نظر الإنسان المسلم من ناحية أخرى ، وما بثه شاعر كل من الفريقين من أفكار وعواطف فى قوله • إذ الشاعر فى هذه الأعمال يعبر عن رأى قومه وأهل ملته، فهو هنا شاعر الجماعة ولسان حالهم ، يحكى خواطرهم ويترجم عن مشاعرهم ، ويذود عنهم وعن معتقداتهم • ثم نتبين بعد ذلك الجوانب الفنية والإبداعية لدى كل من الشاعرين فى الموقف الواحد ، ثم نوازن بين هذه الجوانب موازنة نقدية • وهذا هو هدفنا فى المقام الأول من هذه الدراسة •

(ب) ونعود إلى قصيدة أبى بكر التى بلغت خمسة عشر بيتا ، لنتوقف أمام لغتها التى حرصت على الفخامة والضخامة ، والقوة

والجزالة ، كما نحت إلى العنف فى الخطاب ، والغلظـة فى القول ، والميل إلى التهديد والزجر • فمن الفاظ النص وأساليه : البطـــح الدمائث ، وهرير المحجرات اللواهث ، والفروع الأثائث ، والسريح الرثائث ، ذات النبائث •

ومن مظاهر القسوة فى القول قوله : فرقة لا يصدها عن الكفر تذكير ولا بعث باعث ، وتكـذبوا على رسـول صادق ، وأدبروا عن الحق ، وإن يركبوا طغيانهم وضلالهـم ، فليس عـذاب الله عنهم بلابث ، ولئن لم يفيقوا عاجلا من ضلالهم ، لتبتدرنهـم غارة ذات مصدق ، وتغادر قتلى تعصب الطير حولهم ، ولا ترأف الكفار ، فأبلغ بنى سهم رسالة ، وكل كفور يبتغى الشر باحث • كمـا أن تشبيهه لكفار قريش عندما يسمعون دعوة محمد فتصيبهم رعـدة تسرى فى جسومهم ، فتضطرب أنفاسهم ، وتتفغر أفواههم ، فتتدلى ألسنتهـم من شدة فزعهم وهلعهم ، ويثبون كما تثب الكـلاب اللواهث التى أخرجت ألسنتها من شدة تعبها ، وتلاحق أنفاسها • هـذا التشبيه التمثيلى البديع المستمد من بيئة الإنسان البدوى تشبيـه تصويرى لاذع يعكس هلع واضطراب مشركى قريش وفقدانهم السيطرة على نفوسهم حتى تتابعت أنفاسهم ، وتلاحقت دقات قلوبهم فأصبحوا فى ثورة وهياج طاشت معه عقولهم ، وفقدوا صوابهم • ليس هذا فقط، بل إن عذاب الله سيلحق بهم ، بالإضافة إلى غارة جسورة مفاجئـة ستفجؤهم ، تتركهم قتلى تجتمع الطير من حولهم تنهش جسومهم، وتضع الفرقة الأبدية بينهم وبين نسائهم •

أما قصيدة ابن الزبعرى التى بلغت أحد عشر بيتا واشتركتمع نقيضتها فى البحر الواحد « بحر الطويل » والقافية الموحدة وحرف الروى (الثاء المكسورة المسبوقة بكسرة قبلها ألف مد) فقـد نحت أيضا منحى نقيضتها من الحرص على اللغة الجزلة ، والألفاظ الضخمة والأسلوب المتين ، إلى جانب الغلظة فى القول ، والمكابرة فى الرأى، واللجاج فى الخصومة • فابن الزبعرى يعجب من أمر تلك السريةالتى

قصدتهم بقيادة عبيدة بن الحارث بجيش جرار تدعوهم إلى نبذعبادة الأصنام التى توارثوها كابرا عن كابر ، فلم تخفهم تلك السرية أو تفزعهم ، وهم يرفضون هـذا النصح ، ويعتبرون ذلك خروجا على معتقدات الجماعة ، واستهانة بمواريثهم • لذلك فقد سارعوا بمنازلة المغيرين منازلة الأبطال ، فشرعوا فى وجوههم أسلحتهم البتـارة الماضية من رماح وخيل مدربة ، وسيوف قاطعة ، ودفعوا فى وجوههم بأبطال كماة كأنهم الليوث الضارية ، حتى يقيموا ما اعوج لدى هؤلاء المعتدين ، ويصلحوا فاسد عقيدتهم — كمـا يدعى — ويقتصوا من أعدائهم •

وأمام هذه المواجهة العاتية ، يتملك الخوف المغيرين ، ويستولى الرعب على قلوبهم ، فيعودون إلى أنفسهم يتدبرون أمرهم ، وإذا بهم يؤثرون التراجع ، ويختارون العودة دون أن يقيموا حربا ، أو يشتركوا فى نزال ، وكان هذا سبيل نجاتهم ، وطريق خلاصهـم من مواجهة ساخنة يلقون فيها هلاكهم ، وتثكل فيهم نساؤهم •

(جـ) والنقيضتان على مستوى فنى راق فى الأسلوب والتعبير ، وتسلسل الأفكار وترابطها • وقد التقيتا فى كثير من المعانى والبناء الفنى للقصيدة • فكلتا القصيدتين قد بدأت بسؤال يثير المشـاعر ، ويحمل فى مضمونه التوبيخ والسخرية • وكلا الشاعرين قد عرض لوجهة نظره العقائدية التى أخذ ينافح عنها ، ويدعو إلى نبذ ما عداها ؛ فهو يدعو إلى الحق ، ونبذ الكفر والضلال الذى عليه القوم • وابن فهو يدعو إلى الحق ونبذ الكفر والضلال الذى عليه القوم • وابن الزبعرى يذود عن عبادة الأصنام التى توارثها القوم ، ودرجوا على تقديسها ويعتبر كل من حاد عن ذلك خارج عن الحق ، زائغ الفـكر مكابر ، ولا بد من محاربته حتى يثوب إلى الصواب ، ويعود إلى رشده • وكلا الشاعرين يهدد الفريق الآخر ويتوعده : فأبو بكر يهدد بعذاب الله العاجل إن لم يسارعوا إلى إصلاح ما فسد منهم ، والرجوع عن كفرهم وضلالهم ، وأنهم لو استمروا على ذلك فلا مفر من تأديبهم

وإصلاحهم بحرب ساخنة لا رأفة فيها تثخنهم بالقتل ، وتحرم عليهم نساءهم اللاتى يفرقونهن — بالقتـــل — إلى الأبد • وابن الزبعرى يسخر من ذلك الجيش الجرار الذى جاءهم غازيا ليخلعهم من عبـــادة الأصنام ، فلما أظهروا له قوتهم وما تسلحوا به من أسلحـــة متنوعة آثر العودة مؤكدا أنه كان يرجو لقاءهم والاشتراك معهم فى حرب حتى يصلحوا ما اعوج من تفكيرهم ويقتصوا منهم ، ويعملوا فيهـــم سيوفهم وأسلحتهم ويختم الشاعران قصيدتيهما برسالة موجهة إلى الخصم ، يؤكد كل منهما فيها على قوته ورفضه لأى أذى يراد به ، مستهينا بما قد يكون من خصمه من الطعن فى الأعراض ، وتساميه عن الوقوع فى مثل تلك الدنايا •

٣ ــ سرية حمزة بن عبد المطلب

إلى سيف البحر (١)

ذكرنا فى الصفحات السابقة أن سرية عبيدة بن الحارث كانت أول راية يعقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين بعد هجرته الشريفة ، وبعـــد عودته صلى الله عليه وسلم من غزوة الأبواء وإقامته بقية صفر وصدرا من شهر ربيع الأول (٢) • ونضيف هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث فى مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سيف البحر من ناحيـــة العيص (٣) فى ثلاثين راكبا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، يعترض عير قريش التى جاءت من الشام تريد مكة ، فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى ــ وكان موادعا للفريقين جميعا ــ فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال • ويقول آخرون : إن راية حمزة كانت أول راية عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين ، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معا فشبه ذلك على الناس ، ثم يذكر فى نهاية عرض هذا الرأى : « فأما ما سمعنا من أهل العلم عندنا فعبيدة بن الحارث أول من عقد له (٤) » •

---

(١) سيف البحر : ساحله .

(٢) راجع بعثة عبيدة بن الحارث فى الفصل السابق ص ٢١ .
ويذكر ابن إسحق أن بعض العلماء يزعم أن رسول الله (ص) بعثه حين أقبل من غزوة الأبواء ، وقبل أن يصل إلى المدينة .

(٣) العيص : أصل العيص : منبت الشجر ، وهو موضع بناحية ذى المرة على ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذونها إلى الشام .

(٤) وإلى ذلك ذهب ابن عبد البر ، وصاحب نهاية الأرب . راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٥٩٥/١ ، ونهاية الأرب ٢/١٧ ، والسيرة النبوية ٣٩٣/٢

يقول حمزة فى مسيرته هذه (١) :

ألا يا لقـــومى للتحــلم والجهـــل
وللنقص من رأى الرجال وللعقـــل

وللراكبينـــا بالمظـــالم لم نطـــا
لهم حرمات من ســـوام ولا أهـــل (٢)

كأنا تبلنـــاهم ولا تبـــل عنـــدنا
لهـــم غير أمر بالعفـــاف وبالعـــدل (٣)

وأمـــر بإســـلام فلا يقبـــلونه
وينزل منهم مثـــل منزلة الهـــزل

فمـــا برحـــوا حتى انتدبت لغـــارة
لهم حيث حلوا أبتغى راية الفضل (٤)

بأمر رســـول الله ، أول خافق
عليـــه لواء لم يكن لاح من قبـــل

لواء لديه النصر من ذى كـــرامة
إله عـــزيز فعله أفضـــل الفعـــل

عشيـــة ساروا حاشـــدين وكلنـــا
مراجله من غيـــظ أصحـــابه تغلى (٥)

فلمـــا تراءينـــا أناخوا فعقـــلوا
مطـــايا وعقلنا مدى غرض النبـــل (٦)

---

(١) جعلها كتاب : شعر الدعوة الإسلامية تحت عنوان : « جـــزاء المعتدين » ص ٢٣٢

(٢) السوام : الإبل المرسلة فى المرعى .

(٣) تبلناهم : عادينـــاهم . والنبل العداوة ، ويقال : طلب الثأر ، ويروى « تبلناهم » ومعناه : رميناهم بالنبل .

(٤) يقال : انتدبته للأمر فانتدب هوله : أى دعوته له فأجاب .

(٥) المراجل : جمع مرجل ووه القدر ، وقيل هو قدر النحاس لا غير ،

(٦) مدى غرض النبل : أى أنهم أناخوا قريبين بعضهم من بعض ، فكانت المسافة بينهم مرمى النبل .

فقلنـــا لهم : حبــل الإله نصيرنا
وما لكم إلا الضـــلالة من حبــل

فثـار أبو جهـــل هنالك باغيـــا
فخـــاب ورد الله كيـد أبى جهـل

وما نحـــن إلا فى ثـلاثين راكبـــا
وهم مائتـــان بعـد واحدة فضل

فيـا للؤى لا تطيعـــوا غواتكـم
وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهل (١)

فـإنى أخـــــاف أن يصـــب عليكمـو
عـــذاب ، فتدعوا بالندامة والثكل (٢)

فأجاب أبو جهل بن هشام :

عجبت لأسبـــاب الحفيظـة والجهل
وللشاغبين بالخـــلاف وبالبطـل (٣)

وللتـاركين ما وجـــدنا جـــدودنا
عليه ذوى الأحساب والسؤدد الجزل (٤)

أتونا بإفـك كى يضلوا عقولنـــا
وليس مضلا إفكهم عقل ذى عقــل (٥)

فقلنـــا لهم : يا قومنـــا لا تخالفوا
على قومكم ؛ إن الخـلاف مدى الجهل

فإنكمو إن تفعـلوا نـــدع نســـوة
لهـن بـــواك بالـــرزية والثكـــل

---

(١) فيال لؤى : يا آل لؤى ، وهم قريش .
(٢) الشكل : الفقد والحزن . وراجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٥٩٥/١ ، ونهاية الأرب ٢/١٧ ، والسيرة النبوية ٣٩٣/٢
(٣) الحفيظـة : الغضب .
(٤) الجـزل : العظيـم .
(٥) الإفك : الكذب .

وإ ترجعـــوا عمـا فعلتم فإننـا
بنـو عمكـم أهـل الحفائظ والفضل

فقـالوا لنـا : إنا وجـدنا محمـدا
رضـا لذوى الأحـلام منا وذى العقل

فلمـا أبوا إلا الخـلاف وزيغـوا
جمـاع الأمور بالقبيح من الفعـل

تيممتهـم بالسـاحلين بغـارة
لأتركهم كالعصف ليس بذى أصل (١)

فـورعنى مجـدى عنهـم وصحبتى
وقد زاورونى بالسيوف وبالنبـل (٢)

لإل علينـا واجب لا نضيعـه
أمين قواه غير منتكث الحبـل (٣)

فلولا ابن عمـرو كنت غادرت منهمـو
ملاحـم للطير العـكوف بلا تبل (٤)

ولكنـه آلى بـإل فقلصـت
بأيماننـا حـد السيوف عن القتـل (٥)

فإن تبقنى الأيـام أرجـع عليهمو
ببيض رقاق الحد محدثة الصقـل

بأيدى حمـاة من لـؤى بن غالب
كرام المساعى فى الجدوبة والمحـل (٦)

---

(١) العصف :ورق الشجر الذى يصفر على مسافة ،ويقال : هو دقاق التبن .

(٢) ورعنى : كفنى .مجدى : هو مجدى بن عمرو الجهنى ، وترك صرفه لأنه الأصل فى المعارف والأعلام .

(٣) الإل : العهد . غير منتكث : غير غير منتقض .

(٤) العكوف : المقيمـة اللازمة .

(٥)قلصت : تقلصت ولم تمض .

(٦) راجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٩٧ ومابعدها ، وسيرة النبى ٢/٤٣٢ ، والسيرة النبوية ٢/٣٩٤ ، والروض الأنف ٥/٥٧

قال ابن هشام : وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذا الشعر لأبى جهـــل •

الدراســة الأدبيــة :

١ — هذا موقف ثالث من مواقف المناوشة بين جماعة المسلمين، وفريق الكفر ، تختبر فيه القوى ، وتستثار المشاعر ، وتحفز الهمم ، لكن دون نزال أو لقاء حربى ، لأن أحدا من الفريقين لم يستعد لذلك أو يتخذ له العدة • ففريق المسلمين ثلاثون رجلا من المهاجرين الذين ما زالوا يعانون من متاعب الرحلة الطويلة — رحلة الهجرة من مكة إلى المدينة — ولم يستقر بهم المقام بعد ، وهم إنما خرجــوا لكى يعلنوا لأعدائهم رفضهم للاضطهاد وعزمهم على الاقتصاص منهم ، وتمسكهم بحقوقهم وأموالهم التى استولوا عليها واغتصبوها منهم فى مكة وطردوهم منها • وفى الوقت ذاته يؤكدون لهمقوتهموقدرتهم على المضى فى سبيل الدعوة والتضحية المستمرة فى سبيلها •

أما جماعة أبى جهل فهى وإن فاقت عدد المسلمين بعشرة أمثاله، فإنها حريصة فى المقام الأول على موادعة هؤلاء المعترضين ، وبذل كل الجهد فى تجنب الصدام ، أو الوقوع فى حرب ، حتى لا تتعرض أموالهم للضياع ، ويتمكنوا من النجاة بتجارتهم • ولذلك وجدنا كلا الفريقين يبادر بالاستجابة إلى دعوةالصديق مجدىبن عمرو الجهنى، الذى دعاهم إلى التروى والبعد عن الحرب والتمسك بالحلم • بذلك قد تحقق لكل من الفريقين ما هدف إليه وابتغاه • إذ يعود المسلمون — دون التورط فى حرب غير متكافئة — بعد أن أكدوا لأبى جهــل وأتباعه أنهم لم يضعفوا ، ولم تهن قواهم ، وأنهم فى ســـــبيل نمو أمرهم ، وازدهار شأنهم ، وسيقتصون لما وقع عليهم من جــــور ، ولما نزل بهم من اضطهاد • كما ينجو أبو جهل بأمواله وتجارته التى جاءت من الشام تحمل الخير الوفير لأهل مكة ، لكن يرافقهــا رعب القافلة وفزعها مما تعرضت له فى طريقها ، وما كان يمكن أن يحدث

لها من ضياع تجارتها ، والاستيلاء عليها ، وتهديد سلامة تجارتهـم في المستقبــــل •

٢ — ويوضح لنا حمزة بن عبد المطلب أسباب هذا اللقاء ودوافعه التي دفعت إليه في أبياته المنسوبة إليه فيقول : إن القوم قد اتخذوا من محمد وأتباعه موقف العداوة والخصومة منذ اللحظة الأولى من ظهور الدعوة المحمدية ، وعلى الرغم مما بين الفريقين من الروابط والحرمات التي تجمع بينهما ، فإن القوم قد تعـاملوا مع المسلمين بطيش ونزق وكأن بينهما إحنا وعداوات دفينة وثأرا عظيما ، وانطلقوا في عداواتهم يبطشون ويقطعون الروابط ، بينما حرص المسلمون على الحفاظ على ما بينهما من علاقات وما يربط بينهمـا من أواصر ، ولم يفعلوا سوى دعوتهم بالحسنى إلى الإسلام ، ونبذ عبادة لا نفع فيها ولا غناء ، إلا أن ذلك لم يقع منهم موقع الرضا ، بل كان دافعـا إلى السخرية منهم ، والبطش بهم ، والتمادي في إيذائهم ، واستـلاب أموالهم وطردهم من ديارهم ، مما ألجأ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تجهيز تلك السرية وتكليف حمزة بأمرها • ثم يوضح حمـزة أن هذا الجمع — القليل — مؤيد بنصر الله ، لأنه يدافع عن دعوة الحق، ويدعو إلى الفلاح ، ولذلك فقد خرج رجاله وهم في شوق إلى لقـاء خصومهم ، ومنازلة أعدائهم الذين كثيرا ما أذاقوهم العـــذاب ، وتعهدوهم بالإيذاء ، حتى يثأروا منهم ، ويقتصوا لما ألحقوه بهم ، فنزل كل من الفريقين يرقب تحركات الآخر ، ويرصد أعماله ، وقد اعتبر أبو جهل ذلك الخروج من المسلمين تهـــديدا له ، وتجرأ على هيبته ، واستهانة بأمره ، مما أثار حفيظته ، وأهاج مشاعره ، وأفقده صوابه ، فأخذ يستعد للقاء ، ويأخذ العدة للحرب ، إلا أن الله قد رد كيده في نحره ، وخيب سعيه ، وتدخل سعاة الخير بين الفريقين فتمت

الموادعة ، ولم يحدث صدام حربى بينهما • وفى نهاية الأبيات يوجه حمزة نداءه الأخــوى إلى آل لؤى بنى قومه وعشيرته الأدنين بأن يثوبوا إلى رشـــدهم ، وأن يفكروا فى أمرهم ، وألا يطيعوا غواتهم ويقعوا فى أسر تفكيرهم الضال ، وتعصبهم الأعمى ، وأن يسارعوا بالانضواء تحت لواء الإسلام ذى المنهج القويم ، والدعوة الراشدة، لأنه يخشى عليهم عذاب الله الذى أعده لأعدائه ، وجعله جزاء وفاقا للضالين المعاندين •

أما أبو جهل فإنه يقرر منذ البداية أن هذا الجمع من المسلمين إنما هم مشاغبون خارجون على ما استقر عليه قومه وتوارثوه عن الآباء والأجداد ، ذوى الحسب والمكانة الرفيعة ، وما أتى من هؤلاء إنما هو إفك وبهتان يريدون به إضلال العقول وإفساد الأفكار ، لكنهم ناشدوهم عدم المخالفة ، وطالبوهم بالعودة إلى دين الآباء والأجداد، وإلا فإنهم سيضطرون إلى تقويم ما اعوج منهم بحد السيف ، فلما أبوا إلا الخلاف تجهز أبو جهل لحربهم وقتالهم وسار إليهم فى عزم على إهلاكهم ، والقضاء عليهم ، لولا تدخل ذلك الصديق الذى يرتبط معه بعهود ومواثيق راسخة مما دعاه إلى الاستجــابة لمطلبه ، فى موادعتهم وعدم منازلتهم ، لكن أبا جهل يتوعد المسلمين ويتهــددهم ليقضى عليهم ويهلكهم •

٣ ــ وبالمقارنة بين النقيضتين نجد بحر الطويل يجمع بينهما ، كما جاءت كل منهما على قافية اللام المكسورة ، وفيهما يلجأ الشاعران إلى الحوار والمناقشة وعرض وجهة نظره فيما يعلنه الفريق الآخــر وموقفه منه ، فيؤكد على صدق ما هو عليه وما يذهب إليه،بينما يرفض ما عليه الطرف الآخر وما يدعيه • ويذهب أبو جهل إلى تأكيــد ذلك بأن ما هم عليه إنما هو موروث عن الآباء والأجداد وأن كل ما يخالفه مرفوض ومردود • وهذه قضية لا يقرها عقل ، أو تسكن إليها نفس• إذ ليس من المفروض أن يكون الإنسان مقــلدا ويلغى عقله وفكره ،

وإلا ما استقر أمر فى هذه الحياة ، وخاصـــة إذا كان الأمر يتعلق بالعبادة وما يعتقده الإنسان ، بعد أن يتبين الرشد من الغى ، ويوفق إلى الطريق السوى • أما حمزة فإنه يؤكد على أن دين محمد هو الحق لأنه دين الهداية والرشاد وهم حريصون فى دعوتهم إلى هذا الدين على النصح والإرشاد بالحسنى ، ولا يطلبون منهم سوى وقفـــة يتأملون فيها ما هم عليه ، ويراجعون فيها معتقداتهم الخاطئـــة كى يستبينوا الرشاد من الغى ، والحق من الضلال •

وهذه نصيحة خالصة ، ودعوة إخوة يحرصون على نفعهـــم وإيصال الخير إليهم لأنهم لو أصروا على عنادهم وضلالهم لحل بهم عذاب الله وحاق المكر السيىء بأهله •

والأسلوب فى النقيضتين يتجه إلى البساطة والسهولة، واستعمال الألفاظ الواضحة التى لا لبس فيها ولا التواء ، وهى ألفـــاظ ذات دلالات محددة لا توحى بأكثر من مدلولاتها المعجمية ، ولا أثر فيها للخيال ، لأن كلا من الشاعرين يلجأ إلى الحوار والانتصاف لمذهبـــه وما هو عليه ، ودحض ما يدعو إليه الطرف الآخر ، وهذا يستدعى من الشاعر اللجوء إلى تقرير الحقيقة مرة ، ومحاولة التغلب على الخصم بالحق أو بالباطل مرة أخرى ، وهذا ما كان عليه أبو جهل عندما تعصب للقديم الموروث ورفض كل فكر جديد مهما كان ، لأن ما كان عليـــه الأجداد غير قابل للمناقشة أو البحث فيه ، وكل من خالفه يعتبر زائغا عن الحق ، خارجا عن الصواب •

وهذا المسلك فى التعبير جعل القصيدتين تخلوان من الإبداعات الفنية ، أو التصويرات الجمالية ، إلا ما جاء عفو الخاطر فى ومضات خاطفة ، وذلك كتصوير حمزة للنفوس المشحونة بالغيظ من أعـــدائها بأنها مراجل تغلى وتفور ، وذلك للدلالة على شدة الحنق ، وعصف الغيظ بالنفوس • كما استعار كلمة « حبل » للدين الإسلامى للدلالة على قوة هذا الدين ورسوخ مبادئه • وهذان التصويران منتزعان من بيئة الإنسان البدوى ، وهما تصويران جميلان أضفى كل منهما على

التعبير جمالا ، وزاده رونقا وبهاء . كما ذكر أبو جهل عنـد إغارته على أعدائه بأنه سيقضى عليهم ويتركهم بالساحل كعصف لا أصل له. وهذا التشبيه يوضح أن أبا جهل لن يهدأ له بال إلا بالقضـاء على أعدائه ، بل وسحقهم كما يسحق ورق الشجر فيصيروا رمادا منثورا لا صلة له بما كان عليه فى أصله . وهذا تشبيه دقيق منتزع من بيئة الشاعر القبلية ليصور به مدى الحنق والغيظ اللذين يمتلىء بهمـا صدره على أعدائه من المسلمين ، وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثاني

النقائض في معركة بدر الكبرى

مدخل في أحداث بدر :

بدأت وقعة بدر الكبرى صبيحة يوم الجمعة لسبعة عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وانتهت في آخر الشهر ، أو في شوال بعده (١) وكان جميع من شهدها من المسلمين من المهاجرين والأنصار ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا (٢) . ثلاثة وثمانون من المهاجرين، وواحد وستون من الأوس ، ومائة وسبعون من الخزرج . وقد استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا . ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار . وكان نزول الرسول صلى الله عليه وسلم بأدنى ماء من القوم الذين نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي ، ثم أمر بالقلب — الآبار — فغورت وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه ، فملىء ماء، وقذف فيه بالآنية حتى يشربوا منه ويستقوا خلال إقامتهم هناك(٣) واشترك فيها من المشركين ما بين التسعمائة والألف رجل (٤) وفيهم أشراف قريش وسادتها ، ومنهم : عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة،وابنه

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ٦٢٢/١ ، وسيرة النبي ٤٥٦/٢ ، والسيرة النبوية ٤٠٥/٢ ، والروض الأنف ٨٨/٥ ، ونهاية الأرب ١٩/١٧ ، وشرح البلاغة ٢٠٧/١٤ . وكان خروج الرسول (ص) إليها لثمان خلون من رمضان .

(٢) يدخل في ذلك بعض الصحابة الذين ضرب لهم الرسول (ص) بأسهمهم وأجورهم في تلك الموقعة ولم يشهدوها لأمور خارجة عن إرادتهم وعددهم ثمانية ، كعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، راجع ذلك بالتفصيل في : السيرة النبوية لابن هشام ٦٨٥/١ ، ٦٩١ ، ٧٠٦ ، والروض الأنف ٢٩١/٥ ، ٣٦١ ، ونهاية الأرب ١٥/١٧ ، وشرح نهج البلاغة ٢١٤/١٤

(٣) راجع سيرة النبي ٤٥٢/٢ ، والروض الأنف ٩٧/٥ .

(٤) وقال ابن سعد : كانت قريش تسعمائة وخمسين ، وخيلهم مائة فارس ،وكان لهم ثلاثة الوية . راجع نهاية الأرب ٢٢/١٧ .

الوليد بن عتبة ، وأبو البخترى ، والنضر بن الحارث ، وزمعـــة بن الأسود ، وأبو جهل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج • ولذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل على أصحابه يحفزهم على القتـــــال قائلا لهم : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبـــادها [1] » ويوضح لهم ما ينتظرهم من أجر فيقول لهم : « والذى نفس محمـــــد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبــــلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة [2] » وقد قتل من المشركين سبعون رجلا ، وأسر منهم مثلهم [3] • وكان أول لقاء بين الفريقين أن خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى — وكان رجلا شرسا سيىء الخلق — فلقيـــه حمزة بن عبد المطلب فقتله ، ثم خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ، فدعا إلى المبارزة فخرج إليه ثلاثة من الأنصار ، فلمـــا عرفهم قال : ما لنا بكم حاجة ، ثم نادى مناديهم : يا محمـــد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قم ياعبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا على • فلما قاموا ودنوا منهم سألهـــم عتبة من أنتم ، فذكروا له أسماءهـــم ، فقال : أكفاء كرام • فبارز عبيدة — وكان أسن القوم — عتبة ، وبارز حمزة شيبة، وبارز على الوليد • فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، فكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه ، واحتملا صاحبهما فحـــازاه إلى أصحابهم [4] واشتد أوار المعركة حتى كانت الهزيمة لأعداء الله،

---

(١) راجع سيرة النبى ٢/٤٤٩

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٢٧ ، وشرح نهج البلاغة ١٤/١١٦

(٣) وفى رواية لابن هشام أن القتلى من قريش خمسون ، ورواية ابن إسحق أن الأسرى ثلاثة وأربعون ، والذى ثبت فى صحيح البخارى أن الأسرى سبعون والقتلى سبعون . راجع فى ذلك السيرة النبوية لابن هشام ١/٧١٤ ، والروض الأنف ٥/٣٠٩ ، ٣١٥ ، وتاريخ الطبرى ٢/٤٤٨ ، ونهـــاية الأرب ١٧/٥١ .

(٤) راجع فى أحـــداث بدر بالتفصيل : السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٢٤ ، والاكتفاء ٢/٢٥ ، وشرح نهج البلاغة ١٤/١٢٩ ، ونهاية الأرب ١٧/٢٣ ، والروض الأنف ٥/١٠١ وعيون الأثر ٥/٣٠٣ ، وسيرة النبى ٢/٤٥٥ ، والسيرة النبوية ٢/٤١٥

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى جهل أن يلتمس فى القتلى فوجده عبد الله بن مسعود بآخر رمق فاحتز رأسه ، وجاء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله على ذلك (١) . ثم جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف على القتلى وهم مصرعون ، يحمد الله ويشكره ، ويقول الحمد لله الذى أنجز لى ما وعدنى ، ثم أمر بالقلب أن تغور ، ثم أمر بهم فطرحوا فيها ، ثم وقف عليهم فناداهم رجلا رجلا : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا ! بئس القوم كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس. فقال الصحابة رضوان الله عليهم يا رسول الله : أتنادى قوما قد ماتوا ؟! . فقال : « لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق » (٢) .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية يبشرهم بما فتح الله عز وجل على رسوله وعلى المسلمين ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة (٣) ، ثم اتجه صلى الله عليه وسلم قافلا إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه النفل الذى أصيب من المشركين ، وجعل عليه عبد الله بن كعب ابن عمرو بن عوف ، حتى نزل على كثيب فى طريقه إلى المدينة ، فقسم هنالك النفل الذى أفاء الله به على المسلمين على السواء ، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئون بما فتح الله عليه،

---

(١) أبو جهل : هو عمرو بن هشام بن المغيرة . وكان يكنى بأبى الحكم وهو خال عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ضربه معاذ بن الجموح ضربة فقطع قدمه بنصف ساقه ، فدافع عنه عكرمة ابنه ، فضرب معاذا فطرح يده ، ثم مر به معوذ بن عفراء فضربه حتى أثخنه ثم تركه وبه رمق ، ثم دفف عليه عبدالله بن مسعود واحتز رأسه . راجع ذلك بالتفصيل فى : السيرة النبوية لابن هشام ٦٣٥/١ ، والسيرة النبوية ٤٢٢/٢ ، والروض الأنف ٣٠٥/٥ ، وسيرة النبى ٤٦٤/٢ ، وشرح نهج البلاغة ١٤٢/١٤ ، ونهاية الأرب ٢٨/١٧ ، وتاريخ الطبرى ٤٥٥/٢ .

(٢) راجع : شرح نهج البلاغة ١٧٧/١٤ ، ونهاية الأرب ٢٨/١٤

(٣) العالية : اسم ما كان جهة نجد من المدينة من قراها وعمائرها إلى تهامة . وما كان دون ذلك من جهة تهامة فهو السافلة . راجع تاريخ الطبرى هامش ٤٨٧/٢

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدم المدينة قبـــل الأسارى بيوم • ثم أخذت قريش تبكى قتـــلاها وتبعث فى فداء أسراها ، كما نزلت سورة الأنفال كلها بعد هذه الموقعة ، تحكى قصة اللقاء الأول بين المسلمين وقريش وأعوانهم من أباطرة الكفر وعتاة الشرك،وما كان من مدد الله تعالى لنبيه محمد وتأييده له،وما اختلفوا فيه عند توزيع الأنفال ، وإحقاق الله الحق وقطع دابر الكافرين إلى غير ذلك من الأحداث التى تتعلق بتلك المعركة (1) •

وقد أثارت هذه المعركة الفـــاصلة كوامن النفوس ، وألهبت المشاعر ، فانثال القريض على ألسنة الشعراء ، وانطلق الكثير منهم ممن لم يكن لهم شعر قبل ذلك اللقاء إلى الكلمة المنغومة يشحذ بهـــا العزائم ، ويثير بها الحفائظ ، يشهرونها ســـلاحا ماضيا فى وجه أعدائهم ، ويدفعون بالآمال العريضة إلى قلوب المحـــاربين • فإذا ما انتهت تلك الوقعة الحاسمة ، وسكتت أصوات أسلحـــة الحرب ، ارتفعت أصوات الشعراء فى ملحمة أخرى لا تقل عنهـــا شراسة ، وعنفا ، ترثى القتلى ، وتنال من الفريق الآخر ، وتندب الحظ العاثر، وتتوعـــد بالقصاص السريع ، ويتلقى شعراء المسلمين ذلك وغيره بالسخرية والتهكم، والزراية لما يذهب إليه هؤلاء المعاندون،ويسجلون نصر الله لهم ، ويحمدونه على ما وفقهم إليه • وتتعدد جوانب هـــذا الفيض الزاخر من التعبير الوجدانى• فمن شعر فى الوعيد والتهديد، إلى مفاخرة ومنافرة ، إلى تسجيل للبطولات وتصوير للنزال والطعان، إلى اعتذاريات عن الفرار أو عدم الاشتراك فى المعـــركة ، إلى رثاء للقتلى ، وبكاء مرير على ما كان من أمرهم • وتبرز من خلال ذلك الكم الشعرى الهائل المناقضات الأدبية التى صال الشعراء فيها وجالوا ، إذ كانت سبيلا لعرض آرائهم وأفكارهم ، ونقض ما يذهب إليه الفريق

---

(1) راجع أحداث بدر بالتفصيل فى : السيرة النبويـــة لابن هشام ٦٤٢/١ ، والروض الأنف ١/٥ ـــ ١١٥ ، ١٤٦ ، ١٧١ ، ٢٥٣ ، ٣١٧ ، وسيرة النبى ٤٤٠/٢ ـــ ٥٣٥ ، والسيرة النبويـــة ٤٠١/٢ ـــ ٤٨١ ، والاكتفاء ٢٣/٢ ـــ ٤٠ ، وشرح نهج البلاغة ١٨٤/١٤ ، وتاريخ الطبرى ٤٥٨/٢

الآخر مما يعتد به ويفخر ، والزراية بما يكون له من أفعال ومواقف قد تشينه ، وتلحق به الخزى والمذلة ، فكـان حصيلة ذلك النزال الفكرى كما غفيرا من الفن الشعرى الجيد ، الذى لا يقـل روعة عن روعة ذلك اللقاء الضارى ، الذى التحمت فيه الأجسام ، واشتد فيها لهيب النزال • فسجل ابن هشـــام فى سيرته ما يقرب من خمسين قصيدة ومقطوعة قيلت فى هذه المعركة ، وما أعقبها مما يتصل بهـا لحوالى عشرين شاعرا وشاعرة منهم الحارث بن هشام ، وطالب بن أبى طالب ، وأبو أسامة (معاوية بن زهير بن قيس بن الحـارث) وضرار بن الخطاب ، وحسان بن ثابت ، وهند بنت عتبة وصفية بنت مسافر ، وقتيلة بنت الحارث • وقد خص موضوع النقائض من ذلك ستة عشر قصيدة ومقطوعة فى ثمانية مواقف ولوحات فنية عرضت للعديد من الجوانب التى تتعلق بتلك الملحمة الخالدة ، وسنعرض لها وندرسها فى الصفحات التالية •

١ — فداء بين أسيرين

يروى ابن إسحق أن عمرو بن أبى سفيان بن حرب كان فى يدى رسول الله « صلى الله عليه وسلم » من أسرى بدر . فقيل لوالده أبى سفيان : افد عمرا ابنك فقال : أيجمع على دمى ومالى ؟! . قتلوا حنظلة (١) ، وأفتدى عمرا ؟! دعوه فى أيديهم يمسكوه ما بدا لهم . فبينما هو كذلك محبوس بالمدينة عند رسول الله « صلى الله عليه وسلم » إذ خرج سعد بن النعمان بن أكال ، أخو بنى عمرو بن عوف معتمرا ومعه مرية له (٢) ، وكان شيخا كبيرا مسلما ، فى غنم له بالنقيع (٣) فخرج من هنالك معتمرا ، ولم يظن أنه يحبس بمكة ، إنما جاء معتمرا (٤) فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو ، وأرسل إلى المدينة بقوله :

أرهط ابن أكال أجيبوا دعاءه
تعاقدتمو لا تسلموا السيد الكهلا

فإن بنى عمرو لئام أذلة
لئن لم يفكوا عن أسيرهمو الكبلا

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

لو كان سعد يوم مكة مطلقا
لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلا

---

(١) هو حنظلة بن أبى سفيان بن حرب ، قتله زيد بن حارثة — مولى رسول الله « صلى الله عليه وسلم » — وقيل اشترك فى قتله حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد . راجع السيرة النبوية لابن هشام ٧٠٨/١ ، وشرح نهج البلاغة ٢٠٨/٤ ، ونهاية الأرب ٤٥/١٧ .

(٢) تصغير امرأة .

(٣) موضع قرب المدينة غير البقيع المعروف والموجود فى داخل المدينة المنورة .

(٤) وكان عهد قريش مع محمد الا يعرضوا لأحد جاء حاجا أو معتمرا إلا بخير .

بعضب حسام أو بصفراء نبعة

تحن إذا ما أنبضت تحفز النبلا (١)

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله « صلى الله عليه وسلم » فأخبروه خبره وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان فيفكوا به صاحبهم ، فاستجاب صلوات الله وسلامه عليه لطلبهم ، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد (٢) .

وفى هذا الموقف الإنسانى الكريم من رسول البشرية محمد « صلى الله عليه وسلم » من الاستجابة السريعة لآل سعد وتسليمهم عمرو بن أبى سفيان ما يؤكد صدق النبوة وسمو أهداف ابن عبد الله ونبل غايته ، فى الوقت الذى نشاهد فيه الطرف الآخر أبا سفيان ينقض العهود ، ويلغى المواثيق فينتهز الفرصة ويقبض على رجل يقصد بيت الله الحرام ليؤدى واجبا دينيا فيروع أمنه،ويضع الأغلال فى يديه ويحبسه لديه رهينة حتى يفك المسلمون أسر ابنه عمرا ، ولذلك نراه يتجه بحديثه إلى بنى عمرو يستحثهم على افتداء ابنهم الكهل وأن يخفوا لنجدته ، حتى يحصل كل من الأسيرين على حريته، فإن ذلك هو مسلك الكرام والأباة ، فإذا تقاعسوا عن ذلك وتباطئوا فإنهم لئام أذلة لا نخوة لديهم ولا حمية عندهم . ويرد عليه حسان ابن ثابت بأن أسر سعد كان غدرا وخيانة ، ولو نازلكم منازلة الأبطال لسجل بطولات مشهودة فى النيل منكم وإيصال الطعنات القاتلة إلى صدوركم بأسلحته الماضية الفتاكة .

ويروى الشطر الأول لحسان هكذا : « لو كان سعد يوم مكة

---

(١) العضب : السيف القاطع ، الصفراء : القوس ، النبع : شجر تصنع منه القسى والسهام . تحن : أى يصوت وترها . أنبضت : أى مد وترها ،والإنباض أن يحرك وترالقوس ويعد . تحفز النبل : تقذف بهوترميه

(٢) راجع الأبيات وقصتها فى : السيرة النبويةلابن هشام ٦٥٠/١ وما بعدها ، وشرح نهج البلاغة ٢١٠/١٤ والاكتفاء ٥٣/٢ ، ٥٤ ، والروض الأنف ١٦٠/٥ ، وسيرة النبى ٤٧٧/٢ ، والسيرة النبوية ٤٣٤/٢ ، والبداية والنهاية ٣١١/٣ ، وشرح نهج البلاغة ٢٠٠/١٤ وما بعدها ، ونهاية الأرب ٥٦/١٧ ، وتاريخ الطبرى ٤٦٦/٢ طبع دار المعارف بمصر .

خافكم » وهذا أدق فى توضيح المعنى وبيان توفر حسن النية لدى سعد ، وأنه لم يتوقع منهم خيانة أو غدرا ، وإلا لكان قد تأهب لذلك واستعد له [1] .

والأبيات الأربعة جاءت على وزن الطويل ، وأجزاؤه : فعولن مفاعيلن ، فعولن مفاعلن (مرتين) واشتركت فى قافيـــة واحدة ، وروى واحد هو اللام المفتوحة الممدودة التى تناسب امتداد الصوت والمناداة التى لجأ إليها أبو سفيان مستصرخا بنىعمرو ، وأن يصيخوا السمع لصراخ ابنهم واستغاثته بهم ، فناسب ذلك اللام المفتوحـــة المـــدودة .

(١) راجع الأبيات فى ديوان حسان بن ثابت ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

٢ — ذهول ابن الأشرف وبكاء أهل القليب

تنفيذا لأمر الرسول صلى الله عليـــه وسلم انطلق زيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة إلى المدينة ليخبرا أهلها بفتح الله عز وجل ، وقتل من قتل من المشركين فى بدر ، إلا أن كعب بن الأشرف (١) أنكر تلك الأخبار ، ورفضها وقال : أحق هذا ؟ . ثم أخذ يهذى : أترون أن محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان ؟ . فهـؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ! ، والله لئن كان محمدا أصاب هؤلاء القـــوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، فلما تيقن عدو الله الخبر ، خرج حتى قدم مكة فنزل على بعض أهله ، وأخذ يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعو إلى التجمع لمقاتلته ، وينشد الأشعار ، باكيا أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فيقول :

طحنت رحـــى بـــدر لمهـــلك أهـــله
ولمثـــــل بدر تستهـــــل وتدمـــع (٢)

---

(١) كعب بن الأشرف : يذكر صاحب الأغانى : إنه مختلف فى نسبه فيزعم أنه من طيىء ، وأمه من بنى النضير ، وأن أباه توفى وهو صغير ، تحملنه أمه إلى أخواله فنشأ فيهم وساد وكبر أمره ، وقيل : بل هو من بنى النضير ، وكان شاعر فارسا . ويذكر ابن اسحق : إنه من طيىء ، ثم أحد بنى بنهان ، وأمه من بنى النضير ، وكان كثير الإيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم والتحريض عليه . وبعد بدر أخذ يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم ، وممن شبب بهن أم الفضل بنت الحارث وأبياته فيها مذكورة فى تاريخ الطبرى ٢/٤٨٨ . وقد قال رسول الله (ص) : من لى بابن الأشرف ؟ . فقال محمد بن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل : أنالك به يارسول الله ، لكنه بعد ذلك وجد عدم قدرته على التغلب عليه ، فاستأذن الرسول (ص) أن يشرك معه آخرين ، فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة ، وسلكان بن سلامة بن وقش ، وعباد بن بشر بن وقش ، والحارث بن أوس بن معاذ ، وأبو عبس بن جبر ، واحتالوا فى قتله حتى تمكنوا من قطع رقبته وألقوا بهـــا أما رسول الله (ص) الذى حمد الله على ذلك . راجع قصة قتله بالتفصيل فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٥ ، والأغانى ١٦/١٩ طبع بولاق ، ونهاية الأرب ٧٢/١٧ ، والروض الأنف ٣٩٦/٥ ، وسيرة النبى ٥٦٦/١ .

(٢) رحى الحرب : معظمهم ومجتمع القتال : تستهل : تسيل بالدمع .

فقتلت سراة النـــاس حول حياضهــم
لا تبعـــدوا إن الملوك تصـــرع [1]
كــم قد أصيب به من ابيض ماجــد
ذى بهجـــة يأوى إليــه الضيع [2]
طلق اليــــدين إذا الكواكب أخلفت
حمـــال أثقـــال يســــود ويربع [3]
ويقـــول أقوام أســـر بسخطهـــم
إن ابن الاشرف ظـــل كعبـــا يجزع
صدقوا ، فليت الأرض ســـاعة قتـــلوا
ظلت تســـوخ بأهلهـــا وتصـــدع
صـــار الذى أثر الحـــديث بطعنـــة
أو عاش أعمـــى مرعشـــا لا يسمـــع
نبئت أن بنـــى المغيـــرة كلهـــم
خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدعوا [4]
وابنـــا ربيعة عنـــده ومنبـــه
ما نال مثـــل المهلكين وتبـــع [5]
نبئت أن الحــــارث بن هشـــامهم
فى النـــاس يبنى الصالحـــات ويجمـــع
ليزور يثرب بالجمـــوع وإنمـــا
يحمى على الحسب الكريم الأروع [6]

---

(١) سراة الناس : خيـــارهم وســـاداتهم .
(٢) الضيع : جمع ضائع ، وهو الفقير .
(٣) طلق اليدين : أى كثير المعروف . أخلفت : اى لم يكن معها مطر ، على ما كانت العرب تنسب إلى هـــذه الكواكب . يربع : أى يأخذ الربع ، أى أنه كان رئيسا ، لأن الرئيس فى الجاهلية كان يأخذ ربع الغنيمة .
(٤) التجديع : قطع الأنف ، وأراد به هنا : ذهاب عزهم .
(٥) تبـــع : ملك من ملوك اليمـــن .
(٦) الأروع : الذى يروعك بحسنه وجماله . وراجع الأبيات وقصتها فى : السيرة النبوية لابن هشام ٥٣/٢ ، والروض الأنف ٣٩٧/٥ ، وسيرة النبى ٥٦٤/١

فأجابه حسان بن ثابت الأنصارى فقال :

أبكى لكعب ثم عل بعبرة
منه وعاش مجدعا لا يسمع ؟ (1)
ولقد رأيت ببطن بدر منهمو
قتلى تسح لها العيون وتدمع (2)
فابكى فقد أبكيت عبدا واضعا
شبه الكليب إلى الكليبة يتبع (3)
ولقد شفى الرحمن منا سيدا
وأهان قوما قاتلوه وصرعوا
ونجا وأفلت منهمو من قلبه
شغف يظل لخوفه يتصدع (4)

وقالت امرأة من المسلمين من بنى « مريد (5) اسمها ميمونة بنت عبد الله ، تجيب كعبا :

تحنن هذا العبد كل تحنن
يبكى على قتلى وليس بناصب

---

(1) عل : من العلل ، وهو الشرب بعد الشرب ، يريد البكاء بعد البكاء . مجدع : مقطوع الأنف . وقد روى صاحب السيرة النبوية صدر البيت هكذا : « أبكاه كعب » وفى ديوان حسان بن ثابت :
لا زال كعب يستهل دموعه   للهالكين مجدعا لا يسمع
(2) تسح : تصب .
(3) يروى الديوان « فبك ــ بتشديد الكاف المكسورة ــ »، «وينزع» بدلا من « يتبع » .
(4) شغف : قال أبو ذر : من رواه بالعين المهملة ، فمعناه : محترق ملتهب ، ومن رواه بالغين المعجمة : فمعناه : أن الحزن بلغ إلى شغاف قلبه ، والشغاف : حجاب القلب . وراجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٣ ، والروض الأنف ٥/٣٩٨ ، وسيرة النبى ١/٥٦٥ وديوان حسان بن ثابت ص ١٥٥ . وقد روى الديوان البيت الأخير هكذا :
ونجا وأفلت منهمو متسرعا   فل قليل هارب يتمزع
والتمزع : هو أخذ الشىء مزعة مزعة ، أى قطعة قطعة .
(5) مريد ــ بضم الميم وسكون الراء ــ : بطن من بلى كانوا حلفاء فى بنى أمية بن زيد يقال لهم : الجعادرة ، قال ابن هشام : وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه الأبيات ، وينكر نقيضتها لكعب بن الأشرف .

بكت عــين من يبكى لبــدر وأهــله
وعلــت بمثليهــا لؤى بن غــالب

فليــت الذين ضرجــوا بدمائهــم
يرى ما بهــم من كان بين الأخاشب (١)

فيعلم حقــا عــن يقــين ويبصروا
مجرهمو فوق اللحى والحواجب (٢)

فأجابها كعب بن الأشرف بقوله :

ألا فازجروا منكم ســفيها لتســلموا
عن القول يأتى منــه غير مقارب (٣)

أتشــتمنى أن كنت أبــكى بعــبرة
لقــوم أتانى ودهــم غير كاذب

فإنــى لبــاك مــا بقيــت وذاكر
مآثر قــوم مجدهم بالجبــاجب (٤)

لعمــرى لقــد كانت مريد بمعــزل
عن الشر فاحتالت وجــوه الثعالب (٥)

فحــق مريد أن تجــد أنوفهــم
بشتمهمــو حيى لــؤى بن غــالب

وهبــت نصيبى من مريد لجعــدر
وفــاء وبيت الله بين الأخاشب (٦)

---

(١) ضرجوا : لطخوا . الأخاشب . الأخشــبين ، وهمــا جبلان بمكة وجمعتهما هنا مع ما حولهما .

(٢) راجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٣ ، والروض الأنف ٥/٣٣٩ وسيرة النبى ٢/٥٦٦

(٣) يريد بالسفيه : ميمونة ، قائلة الشعر السابق ، وذكر لأنه حمل ذلك على معنى الشخص ، والشخص يذكر ويؤنث .

(٤) الجبــاجب : منــازل مكة .

(٥) احتالت : تغيرت ، وفى بعض النسخ « فاجتالت » واجتال الشىء: تحرك ، ونصبت « وجوه الثعالب » على الذم .

(٦) راجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٤ ، والروض الأنف ٥/٣٣٩ ، وسيرة النبى ١/٦٦٥

الرؤيا الفنية : ١ ــ هذه هى اللوحة الثانية من اللوحات الفنية التى سجلت جانبا من أحداث اللقاء المشهود بين قوى الشر ، ودعاة الخير والفلاح وفى هذه الصورة النابضة بالأحاسيس والمشاعر ، تتزاحم الأفكار ، وتتصارع الآراء ، وكأننا فى معركة لا تقل ضراوة عما حدث فى تلك الموقعة الحربية من تلاحم ونزال • فابن الأشرف ــ وقد أذهله ما نزل بقومه ــ قد أصيب بخيبة أمل فادحة ، وطعن طعنة نافذة فى تطلعاته وطموحاته • ولذلك وجدناه يرفض تصديق خبر النصر الذى تحقق للمسلمين ، وينكر ما آل إليه أمر قومه وعشيرته لكنه ــ وقد يتقن مما حدث ــ يفقد رشده ، ويطيش لبه ويسرع كالملتاث يرغى ويزبد ، ويهذى ويعربد ، ويقوم بأفعال طائشة تعكس ما أصابه من ذهول ، وما لحق به من إحباط • ولا يجد من سبيل أمامه سوى الشعر يفرج به همه ، ويخفف به لوعته ، فيعكف على قيثارة فنه يعزف عليها لحنه الشاجى ، ويضرب على أوتارها صراخه وآلامه ، ويبثها أشجانه وأحزانه ، فكانت أبياته ترنيمة الحزن التى رددتها جنبات مكة ، والنواح الذى ناحت به نساء قريش ، والدموع الثخينة التى انهمرت من عيون الثكلى ، والتصريح الرسمى لقومه المطحونين بإعلان جزعهم وحزنهم ، والأخذ فى رثاء قتلاهم وموتاهم ، بعد أن منعت قريش ذلك أياما حتى لا يشمت بها محمد وأتباعه ، لكنها والمصيبة فادحة ، لم تقو على الاستمرار فى كبت المشاعر الحزينة ، ومواجهة أنهار الحزن المصطرعة فى القلوب ، ولم تتمكن من محاصرة الآلام وإخمادها فى النفوس • يذكر ابن أبى الحديد الذى ذكر من أبيات ابن الأشرف العينية ، البيت الأول والثانى والرابع والخامس ثم البيتين الأخيرين مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ ، قول الواقدى الذى يقول عن هذه القصيدة : « أملاها على عبد الله بن جعفر ، ومحمد بن صالح وابن أبى الزناد ، فلما أرسل كعب هذه الأبيات أخذها الناس بمكة عنه ، وأظهروا المراثى ــ وقد كانوا حرموها كيلا يشمت المسلمون بهم ــ وجعل الصبيان والجوارى ينشدونها بمكة ، فناحت بها قريش على قتلاها ، ولم تبق دار بمكة الا فيها النوح ، وجز النساء شعورهن ، وكان يؤتى براحلة

الرجل منهم ، أو بفرسه فتوقف بين أظهرهم فينوحون حولهـــا ، وخرجن الى السكك ، وضربن الستور فى الأزقة ، فخرجن إليهمـــا ينحن ‎..‎ (١) » وكما هو معروف فإن كتب الســـيرة قد أكدت أن قريشا بعد أن حل بها ما حل فى موقعة بدر حاولت أن تتماسك أمام ذلك المصاب ، وطالبت بأن لا ينوح النائحون على قتلاهم ، حتى لا يشمت بهم محمد وأصـــحابه ، كما أوصت بألايعجـــلوا فى فداء أسراهم حتى لا يأرب — لا يشتد — عليهم محمد وأصـــحابه فى الفداء (٢) ‎.‎

ونظرا لأن وقع المصيبة كان أقوى من احتمـــال ابن الأشرف فإنه لم يجد فيما قاله راحة لنفسه ، أو كفاية لشفاء أوضاره ، ولذلك نراه يسارع فى الرد على ميمونة بنت عبد الله ، التى نالت منـــه فى أبيات أربعـــة ، وسخرت من قتـــلى قريش الذين خرجوا فى دمائهم ، ليشجب ما ذكرته تلك المرأة ، متوعدا آلها ومن تنتسب إليهم بشر مستطير ، مؤكدا حزنه الدفين على قومه ، واستمرار بكائه عليهم ما دام فيه عر ينبض ‎.‎

٢ — وهذه اللوحات الفنية الأربع التى تخاصمت وتصارعت ، تعبير عن مشاعر صادقة ، وأحاسيس جاشت بها النفوس ، وترجمة حقيقية لمدى الانفعال الذى عاناه هؤلاء الشـــعراء مع أقوامهم ، ونبض دافق يسجل مشـــاعر كل فريق ‎.‎ فرحى بدر طحنت القوم ، ومعركة بدر معركة ضارية تستهل فيها الدموع ويغزر البكاء ، وسراة القوم قتلوا حول حياضها ، وجزع ابن الأشرف من أهوالهـــا يفوق الوصف ، ويتجاوز كل التوقعات ، إنه يقربه ولا يحاول إنـــكاره أو يمارى فيه ، بل إنه يتمنى أن لو ساخت الأرض به وبأهله وأصبح من على ظهرها فى باطنها ساعة أن سمع بالخبر المشئوم ، وهو قتـــل

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩٧/١٤ وهو يروى ذلك عن مغازى الواقدى ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) راجع الروض الأنف ١٥٧/٥ ، ١٥٨ ، والسيرة النبويـــة لابن هشام ٦٤٨/١

أكابر القوم وساداتهم • وبنو المغيرة كلهم قد ذهب عزهم واحتواهم الحزن على قتل أبى جهل ، بل إن المصيبة كانت أفدح بقتل ابنى ربيعة ، ومنبه بن الحجاج وغيرهم من أكابر القوم •

وتمتلىء رئتا حسان بن ثابت بنشوة النصر ، وينهال على ابن الأشرف ساخرا وموبخا على بكائه وعويله ، مستزيدا لدموعه، مستحثا له على مواصلة العويل والنحيب مؤكدا له أن ما حدث قد أحزن الكثير من قريش وتجمعوا فى بدر حول قتلاهم يصرخون ويذرفون الدمع الثخين على ما آل إليه أمرهم ، فالمصيبة فادحة ، والنازلة عاصفة ، أصابت هؤلاء المتكبرين فى قلوبهم ، وقضت على كبريائهم وصلفهم، وقد حفظ الله نبيه ونصره فى ذلك اللقاء المروع ، كما شفت تلك المعركة بنتائجها السارة قلوب المضطهدين المعذبين ، ونجا من أهوالها وأفلت من جحيمها من استسلم للخوف ، وركن إلى الفرار ، لكنه سيظل يذكر ذلك الرعب ، وسيلاحقه ما رأى من أهوال •

أما ميمونة فإنها تلفح وجه ابن الأشرف بشواظ سخريتها ، وتهزأ من بكائه ونواحه ، وتطالبه بالمزيد من هذا البكاء الثخين الذى ترجو أن يشاركه فيه آل لؤى بن غالب وأن تتحول حياتهم إلى بكاء ونحيب ، وتتمنى أن لو رأى القوم جميعا من آل مكة وما جاورها أولئك الصرعى وهم مدرجون فى دمائهم حتى يعتبروا ويرعووا ويعرفوا نهاية الباغين المعتدين •

وهنا تثور ثائرة ابن الأشرف ، ويضيق بملاحقة حسان ثم ميمونة له فيتجه إلى ميمونة زاجرا مهددا لها على جرأتها عليه ، وتطاولها على شخصه ، مؤكدا أن بكاءه على أولئك القوم إنما هو دمع ثخين على عشيرته الذين آتاه ودهم ، وعاش فى ظلال حبهم ورعايتهم ، وربطته بهم روابط عديدة ، ولذلك فإنه سيظل يبكيهم ويذكر مآثرهم وأياديهم عليه ما دام فيه بقية من روح • ثم يتوجه إلى آل ميمونة « مريد »

بالذم والتحقير ، وضرورة إنزال العقاب بهـا لتجرئها على سب آل لؤى بن غالب والتعريض بهم •

٣ ــ وعلى الرغم من أن ابن الأشرف هو المنهزم ، الذى تتلاحق أنفاسه من شدة وقع المصيبة على نفسه ، وتكاد دقات قلبه تسمع من بين جنباته ، وهو الذى يلهث من قسوة الألم الذى يكاد يعصف به ، بالرغم من ذلك كله ، فإننا نراه قد امتد نفسه فى الشعر ، واستمرت أبيـاته تولول وتصرخ وتبكى ، وتذرف الدمع مـدرارا ، على آله وذويه ، وأبناء قومه الأقربين ، وهذا يدل على هول النازلة ، وفداحة الخطب ، وعظم المصاب ، مما كان فوق احتمـال الرجل حتى صار كالمذعور المستوفز الذى لا يقر له قرار ، أو تهدأ له نفس ، فأخـذ يصرخ ويترنح من شدة الألم ، وقسوة المعاناة ، ولم يجـد سوى الشعر متنفسا لأتراحه ، ومن هنا كانت معانيه أغزر ، وأفكاره أكثر وأشمل ، مما عرض له حسان بن ثابت ، وميمونة فى مقطوعتيهما • أما لغتهم الشعرية فكانت فى مستوى واحد من الجودة الفنيـة ، والاختيار الواعى للكلمات الموحية المعبرة ، البعيـدة عن الخشونة والابتذال •

٤ ــ والتصوير الفنى ــ وإن كان محدودا لدى ابن الأشرف وحسان بن ثابت ــ قد أضفى على المعانى الجودة،وجسم الأحاسيس والمشاعر وبث فيها الحركة والحياة • فالحرب فى بدر رحى تطحن ، وهذا تصوير دقيق يعكس قسوة الحرب وشراستها ، وما كان فيهـا من أحداث مروعة ، حتى أنها تطحن الجسوم فلا تبقى منها شيئا • وهذا التصوير الذى أحس به ابن الأشراف ــ بعد أن رأى ما حدث لقومه ــ يعبر عن مدى الألم الذى يعتصر قلبه ويدمى فؤاده •

وفى إشارة ابن الأشرف إلى أن الملوك وخيار الناس يصرعون فى الحروب ويقتلون يلجأ إلى الكناية للتسرية عن نفسه المكلومة وفى محاولة أخرى للتهوين من أمر ما حل به ، فيكنى عن الرجل العظيـم

بالبياض ، وعن الكريم بأنه الشخص الذى يأوى إليـــه أصحاب الحاجات ، وأنه طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت ، وعن صاحب المكانة الرفيعة بأنه من يقوم بحل مشاكل الناس ، ويرأسهم مما يجعـل له الربع فى غنائمهم .

أما حسان بن ثابت فإنه يرسم صورة ساخرة لكعب بن الأشرف، وقد استسلم للبكاء ، وأصبح مع النائحات الباكيات بأنه لا يعدو فى ذلك أن يكون عبدا وضيعا لا شخصية ولا إرادة له ، أو كلبا حقيرا يتبع كلبة أخرى فى مهانة وانكسار .

٥ — وقد اتفقت قصيدة ابن الأشرف « العينية » مع مقطوعة حسان بن ثابت فى الوزن والقافية ، حيث جمع بينهما بحر الكـامل وحرف الروى العين المضمومة ، ثم جاءت مقطوعة ميمونة ونقيضتها لابن الأشرف على بحر الطويل،واشتركتا فى القافية «الباء المكسورة» . وقد جمعنا بين هذه المقطوعات الأربع لأنها تدور حول هلع ابن الأشرف وجزعه من أحداث بدر ، وما كان من جراء ذلك الموقف المستوفز . ثم بيان موقف المسلمين من ذلك الرجل المعاند الشرس الذى قضت أحداث بدر على طموحاته وأمانيه .

٣ ــ لواء ضلال قاد إبليس أهله

يقول حمزة بن عبد المطلب يعرض لأبرز أحداث بدر : « اليوم الفاصل » :

ألم تر أمرا كان من عجب الدهــــر
وللحين أسبــــاب مبينـــــة الأمر[1]
وما ذاك إلا أن قــوما أفادهــــم
فحانوا تواص بالعقوق وبالكفــر [2]
عشيــــة راحوا نحو بدر بجمعهــم
فكانوا رهونا للركيـــة من بدر [3]
وكنـــا طلبنا العير لم نبغ غيرهـــا
فساروا إلينـــا فالتقينـــا على قــدر
فلمـــا التقينـــا لم تكـــن مثنــوية
لنــــا غير طعن بالمثقفة السمر [4]
وضرب ببيض يختــلى الهام حــدها
مشهــرة الألوان بينـــــة الأثر [5]
ونحـــن تركنـــا عتبـــة الغى ثاويا
وشيبة فى القتلى تجرجم فى الجفر [6]

---

(١) الحين : الهلاك .

(٢) أفادهم : أهلكهم ، يقال أفاد الرجل فيدا : إذا مات ، وأفاده الله : أماته . حانوا : أى جاء حينهم أى هلاكهم . والمعنى : أهلكهم فهلكوا. تواص : من الوصية ، فهو فاعل أفاد ، والمعنى أهلكهم التواصى بالعقوق وبالكفر .

(٣) الرهون : جمع رهن ، والركية البئر غير المطوية .

(٤) مثنوية : أى رجوع وانصراف . المثقفة : الرماح المقومة .

(٥) يختلى : يقطع وينزع . الهام . الرءوس . الأثر (بضم الهمزة) : وشى السيف ، وليس هذا مرادا هنا ، وأثر الجراح يبقى بعد البرء ، ولعله المراد هنا ففى القاموس المحيط : الإثر بكسر فسكون : يجمع على آثار .

(٦) عتبة الغى : هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، قتله عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب ،وأضافه إلى الغى لما كان من عنادهوكفره وإيذائه =

وعمرو ثوى فيمن ثوى من حماتهـــم

فشقت جيوب النائحات على عمرو (١)

جيـــوب نســـاء من لؤى بن غالب

كرامٍ تفرعن الذوائب من فهـــر (٢)

أولئـــك قوم قتلوا فى ضــــلالهم

وخلوا لواء غير محتضر النصر (٣)

لواء ضــــلال قـــاد إبليس أهلـــه

فخاس بهـــم ، إن الخبيث إلى غدر (٤)

وقال لهـــم ، إذ عاين الأمر واضحـــا

برئت إليـــكم ما بى اليـــوم من صبر

فـــإنى أرى ما لا تـــرون وإننـــى

أخاف عقـــاب الله ، والله ذو قسر (٥)

فقـــــدمهم للحين حتى تورطـــــوا

وكان بما لم يخبر القـــوم ذا خبر (٦)

فكانوا غـــداة البئر ألفـــا وجمعنـــا

ثلاث مئين كالمســـــدمة الزهـــــر (٧)

وفينـــــا جنود الله حين يمـــــدنا

بهـــم فى مقام ثم مستوضح الذكر

= للرسول صلى الله عليه وسلم . شيبة : هوشيبة بن ربيعة أخو عتبةقتله حمزة بن عبد المطلب . تجرجم : تسقط . الجفر : البئر المتسعة .

(١) عمرو : هو أبو جهل ، واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة . وكان أبو جهل ورفيقاه ممن القى بهم فى القليب مع قتلى المشركين فى بدر . راجع ص ٤١ ، ٤٢ من هـــذا الكتاب .

(٢) تفرعن : علون . الذوائب : الأعالى .

(٣) محتضر : حاضر .

(٤) خاس : نكث وغـــدر .

(٥) القسر : القهر والغلبـــة .

(٦) تورطوا : وقعـــوا فى الهلكة .

(٧) المسدمة : الفحول من الإبل . من قولهم : فحل سدم : إذا كان هائجا . الزهر البيض .

فشـــد بهـــم جبريل تحت لوائنـــــا
لدى مأزق فيـــه مناياهمو تجرى (١)

جدوا لمن عاديتم لعلكم أن تثأروا

أجاب الحارث بن هشام بن المغيرة (٢) على قصيدة حمزة بن عبد المطلب ، فقال :

ألا يا لقومى للصبـــــابة والهجـــــر
وللحزن منى والحرارة فى الصدر (٣)
والدمـــــع مـــن عينـــى جـــــودا كأنه
فريد هوى من سلك ناظمـــه يجرى (٤)
على البطـــل الحلو الشمائل إذ ثوى
رهين مقـــــام للركيـــــة من بـــدر
فلا تبعـــــدن يا عمرو من ذى قـــرابة
ومن ذى ندام كـــان ذا خلق غمـــر (٥)
فإن يك قوم صــــــادفوا منك دولة
فلا بـــد للأيام من دول الدهـــــر

---

(١) المأزق : الموضع الضيق فى الحرب . وراجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٨/٢ ، والروض الأنف ٣١٧/٥ وما بعدها ، والاكتفاء ٦٧/٢ وما بعدها ، وسيرة النبى ٥٣٦/٢ ، والسيرة النبوية ٦/٣ ، وشعر الدعوة الإسلامية ١٩٩/١ ، وما بعدها ولم يذكر البيتين السابع والثامن ، وعيون الأثر ٢٨٨/١ وقد اقتصر على بعض هذه الأبيات .

(٢) هو الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أسلم بعد ذلك واستشهد بأجنادين . راجع ترجمته والتعريف به فى نقائض موقعة أحد . من هذا الكتاب .

(٣) الصبابة : رقة الشـــوق .

(٤) الجود : الكثير ، يقال جادت السماء تجود جودا (بالفتح) : إذا كثر مطرها . الفريد : الذهب والدر .

(٥) الغمر : الواسع الخلق ، يقال رجل غمر الخلق : إذا كان واسعها حسنها .

فقد كنت فى صرف الزمان الذى مضى
تريهـــــم هوانا منك ذا ســــبلٍ وعرِ
فإلا أمت يا عمـــرو أتركك ثائرا
ولا أبق بقيـــا فى إخاء ولا صهر [1]
وأقطـع ظهـــرا من رجال بمعشر
كـــرام عليهم مثل ما قطعـــوا ظهرى
أغـــرهمو ما جمعوا من وشيظـــة
ونحن الصميم فى القبائل من فهر ؟[2]
فيـــال لؤى ذببـــوا عن حريمكـــم
وآلهة لا تتركوهـــا لذى الفخـــر [3]
توارثهــــا آباؤكـــم وورثتمـــو
أواسيها والبيت ذا السقف والستر [4]
فمـــا لحليـــم قـــد أراد هلاككـــم
فلا تعذروه آل غالب من عـــذر [5]
وجـــــدوا لمـــن عاديتمـــو وتوازوا
وكونوا جميعا فى التأسى وفى الصبر[6]
لعلكمـــوا أن تثـــأروا بأخيكمـــو
ولا شىء إن لم تثأروا بذوى عمرو [7]
بمطـــردات فى الأكـــف كـــأنهـــا
وميض تطير السهـــام بينة الأثر [8]

---

(١) ثأر : ذو ثأر . ويروى « ثابرا » والثابر : الخاسر .

(٢) الوشيظة : الأتباع ومن ليس من خالص القـــوم واشرافهم .
الصميم : الخالصون فى أوليائهم .

(٣) ذببوا : ادفعوا وامنعوا .

(٤) الأواسى : جمع آسية ، وهى ما أسس عليه البنـــاء .

(٥) غالب اسم قبيلة ، ولذلك منعه من الصرف .

(٦) توازروا : تعاونوا من التـــآزر وهو التعاون .

(٧) تثـــأروا بأخيكم : أى تأخـــذوا بثـــأره .

(٨) بمطردات : أى بسيوف مهتزات . الوميض : ضوء البرق .

كأن مـــدب الـــذر فوق متونهـــا
إذا جردت يوما لأعدائها الخـــزر (١)

قال ابن هشام : أبدلنا من هذه القصيدة كلمتين ممـــا روى ابن إسحق ، وهما : « الفخر » فى آخر البيت ، و « فما لحليم » فى أول البيت ، لأنه نال فيهما من النبى (ص) (٢) .

الدراســة الفنيــة :

١ ـــ هاتان قصيدتان قيلتا فى أحداث « بدر » ، وما كان من أمر تلك المعركة الفاصلة ، التى كانت بمثابة اختبـــار حقيقى لصبر المسلمين ، وصادق نواياهم ، وما استقر فى قلوبهم من الدفاع عن دعوتهم الناشئة ، والبذل فى سبيل تذليل الصعـــاب التى تعترض مسيرتها ، ومواجهة أعدائها المتربصين بها ، والتصدى لطغيانهـــم وجبروتهم . ولذلك رأينا العطاء السمح ، والتضحيات التى يعجـــز القلم عن الإحاطة بها أو وصفها ، فكان تأييد الله لهـــذه الطائفة المستوفزة ، التى حوربت وطوردت ، وسلبت أموالها وممتلكاتهـــا ، وعانت كثيرا من عنت مشركى قريش واضطهادهم ، حتى دفع بهـــم التواصى بالعقوق وبالكفر ، إلى التجمع والاتجاه إلى بدر لتـــأديب المسلمين على جرأتهم فى التصدى لقافلتهم التجارية العائدة من الشام ، فإذا بالمتكبرين العتاة بين طعن وضرب ، وقتل وتشريد ، وحصـــد لأرواح عتاتهم وأباطرتهم ، أمثال عتبة ، وأخيه شيبة بن ربيعـــة ، وأبى جهل رأس الكفر والضلال ، وإذا هم فى جحيم يحتويهم ، ونار متأججة تحيط بهم من كل جانب ، فتتعالى الأصوات الباكية النائحة ، وتشق الجيوب ، وتصرخ النساء الثكلى ينعين قتلاهن ويندبن أصحاب

---

(١) الذر : النمل . الخزر : جمع « أخزر » وهو الذى ينظر بمؤخـــر عينه كبرا وعجبا .

(٢) راجع هذه القصيدة فى المصـــادر التى أحلنا عليها فى نقيضتها السابقة لحمزة ، وننوه هنا إلى أن صاحب عيون الأثر قد اكتفى من هذه القصيدة بالأبيات الستة الأولى ١/٢٨٥

المكانة الرفيعة فى قومهم ، والذين قتلوا وأزهقت أرواحهم جزاء ضلالهم وعتوهم ، وكانوا جنودا للشيطان الذى قادهم إلى حتفهم وهلاكهم ، لكنه غدر بهم ولم يدفع عنهم شيئا مما حل بهم ، بل تبرأ منهم لما رأى ما رأى من هول المعركة ، وساقهم إلى الحين والهلاك بجمعهم الغفير الذى بلغ ألفا من المشركين ، فى الوقت الذى لم يزد عدد المسلمين على ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، لكنهم كانوا أبطالا شجعانا ، آزرهم جبريل والملائكة المكرمون حتى حصروهم وحصدوهم حصدا دون عناء أو جهد ، فكانت الفجيعة عظيمة ، والمصيبة أنكى وأشد ، مما أفقد الأعداء صوابهم ، وشل تفكيرهم ، وجعلهم يهذون من هول ما رأوا وشاهدوا ، وإن حاولوا التظاهر بالتماسك والتأسى ، وأنهم سيثأرون لأبطالهم وقتلاهم ، فالحياة قلب ، والأيام دول ، ولذلك نجد شاعرهم يدعو إلى التجمع لمواجهة المسلمين ، والاقتصاص منهم ، وألا يغتر أصحاب محمد بما كان لهم من غلبة وتفوق فى تلك الجولة ، فهم أصحاب أمجاد ومكانة رفيعة فى القبائل ، ولهم من المحامد والبطولات التى توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ما يدفعهم إلى الزياد عن آلهتهم التى يدين الجميع لها بالولاء والخضوع التام .

٢ — والقصيدتان من بحر الطويل ، والقافية فيهما واحدة . حيث التزم كل من الشاعرين الراء المكسورة المسبوقة بسكون . وقد امتدت القصيدتان إلى ما يقرب من تساويهما فى الأبيات . فالقصيدة الأولى بلغت سبعة عشر بيتا ، ونقصت الثانية بيتا واحدا عن نقيضتها . إلا أن ما تناوله حمزة فى قصيدته من معان وأفكار كان أغزر وأوفر من تلك المعانى التى عرضها الحارث فى قصيدته ، وهذا أمر طبيعى حيث يكون نفس المنتصر أطول ، ودوافع الإشادة بالنصر أعم وأشمل .

فبينما نجد حمزة يتفق مع الحارث فى تسجيل مكانة هؤلاء القتلى وما كان لهم من قدر ، نرى حمزة يسخر منهم ويصمهم بالغباء والضلال ، والانصياع لأوامر الشيطان الذى قادهم إلى حتفهم ،

وزين لهم أعمالهم ، ولكنه غرر بهم تغريرا عظيما ، وتخلى عنهم فى أحلك الأوقات وأشدها ، بل إن حمزة قد أجرى حديثا ساخـرا على لسان الشيطان الذى هاله ما رأى وما شهد ، وكأنه قد كشف عنـــه الحجاب ، وتمثلت أمام عينيه أهوال تلك المعركة ، فقال لأتباعه : إنى أبرأ مما تفعلون ، فإنى أرى مالا ترون وأخاف عقاب الله الذى لايرحم أعداءه ، وهذا لا نظير له فى قصيدة الحارث ، أضف إلى ذلك تلك الروح الإسلامية التى سرت فى قصيدة حمزة : فأعداء المسلمين فى ضلال يقودهم إبليس إلى حتفهم وهلاكهم ، والله يتولى عباده بالنصر والتأييد ، بينما يقهر أعداءه ويخذلهم ، ولذلك كانت نتيجة تلك المعركة — غير المتكافئة فى العدد والعدة — فى جانب جند الله وملائكته الذين أيدوا المسلمين وآزروهم •

وقد تناول حمزة فى قصيدته ما كان من أمر قريش فى تجمعهم العدائى وخروجهم لملاقاة المسلمين الذين تعرضوا لقافلتهم التجارية، وما كان من أمر هذا اللقاء الذى أمد الله فيه جنوده بملائكته فكان النصر العظيم ، والطعن النافذ إلى الصدور والقتل الذى أطاح بالرقاب وأزهق أرواح عتاة قريش وعليتهم ممن انتفخت أوداجهم وأعماهم الضـــلال •

أما الحارث بن هشام ، فقد أظهر جزعه وحزنه العميق على ماكان من أمر قومه ، وما آل إليه حالهم فى ذلك اللقاء الخالد ، وانهمر دمعه الثخين على ذلك البطل الحلو الشمائل أبى جهل اللعين ، موضحا ماكان من سطوة ذلك الرجل وجبروته • ولذلك فإنه يعاهده عهدا لا حنث فيه أنه سيثأر له ، وأنه سيقطع ظهر الذين قطعوا ظهره فى تلك المعركة ، مشيرا إلى أن هذه الجولة إنما هى واحدة من جولات تالية ، داعيـا قومه أصحاب الأمجاد ، والمحامد إلى التجمع للأخذ بالثأر من هؤلاء المنتصرين ، والاقتصاص منهم فى غير هوادة أو رحمة •

كما أننا نجد تلاقى حمزة بن عبد المطلب فى بيتيه التاليين :

ونحــن تركنــا عتبــة الغى ثاويا
وشيبة فى القتلى تجرجم فى الجفر
وعمرو ثوى فيمن ثوى من حماتهــم
فشقت جيــوب النائحــات على عمرو

مع قول حسان بن ثابت فى بائيته (١) التى يسجل فيها أحداث بــدر :

فغــادرنا أبــا جهــل صريعــا
وعتبــة قد تركنــا بالجبــوب (٢)
وشيبــة قــد تركنــا فى رجــال
ذوى حسب إذا انتسبــوا حسيب

وهذا التلاقى شىء طبيعى فى مواقف رصد الأحداث ، وتسجيل الحقائق التى تسفر عنها اللقاءات الحربية ، وهنا يسجل الشــاعران ما كان من أمر طغاة قريش وأرباب الشرك ، ورءوس القــوم الذين قادوهم إلى تلك الحرب ، والنهاية المروعة التى كانت تنتظرهم ، مما يسهم فى التشنيع عليهم ، والزراية بهم ، وتأكيد نصر الله المبين على أعدائه ومعانديه .

٣ ــ ولغة القصيدتين لغةجزلةطيعة ، بعيدةعنالتقعر والحوشية، وأساليبهما مترابطة محكمة ، مما جعلهما يتميزان بجمــال الصياغة ، وقوة التعبير ، وروعة الأداء . كما أن طابع البيئة واضح فى ألفاظ القصيدتين وصورهما الفنية . فالقوم راحوا نحو بدر وكانوا رهونا للركية ، ولم يطلب المسلمون سوى العير لا يبغون غيرها ، وكــان

---

(١) راجع القصيدة فى ديوان حسان بن ثابت ص ١٣٥ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٦٣٩/١

(٢) الجبوب : الأرض الغليظــة .

الطعن بالمثقفة السمر ، وبالبيض المشهـرة الألوان ، وكـان القتلى كالمسدمة الزهر • ويجعل الحارث دموعه المنحدرة من عينيه فيغزارة كالدر الذى انفرط من سلكه فهوى فى كل اتجاه ، وهم أصل القبائل من فهر ، ولهم من الميراث التليد آلهة يعبدونها ، وبيت يقدسونه ، وهم سيثأرون بالسيوف المهتزة فى أيديهم ، اللامعة كالبرق الخاطف، وهى تطير الهام بينة الطعن • كما نجد بعض تعابير أحد الشاعرين لدى الآخر • فإذا جعل حمزة القوم رهونا للركية من بدر ،فإن الحارث ابن هشام جعل أبا جهل حين ثوى رهين مقام للركية منبدر،والسيوف عند الشاعرين بينة الأثر ، مما يؤكد أن لغة الشاعرين متقاربة وعلى مستوى واحد من الجودة الفنية •

٤ — ماذا على بدر وماذا حوله ؟!

قال عبد الله بن الزبعرى السهمى يبكى قتلى بدر [١] :

ماذا على بدر وماذا حوله
من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نبيها خلفهم ومنبها
وابنى ربيعة خير خصم فئام [٢]
الحارث الفياض يبرق وجهه
كالبدر جلى ليلة الإظلام [٣]
والعاصى بن منبه ذا مرة
رمحا تميما غير ذى أوصام [٤]
تنمى به أعراقه وجدوده
ومآثر الأخوال والأعمام [٥]

---

(١) قال ابن هشام : وتروى للأعشى بن زرارة بن العباس احد بنى أسيد ابن عمرو بن تميم ، حليف بنى نوفل بن عبد مناف .

(٢) نبيه — بضم ففتح — هو نبيه بن الحجاج بن عامر قتله حمزة وسعد بن أبى وقاص . راجع الروض الأنف ٣٠٨/٥ . منبه : هو اخو نبيه، قتله أبو اليسر . ابنا ربيعة : هما عتبة وشيبة ابنا ربيعة . فئام : الجماعات من الناس .

(٣) الحارث : هو الحارث بن منبه بن الحجاج . وقد قتل فى بدر أربعة باسم الحارث هم : الحارث بن الحضرمى ، والحارث بن عامر بن نوفل ، والحارث بن زمعة ، والحارث بن منبه بن الحجاج . وقد يقصد الشاعر أحد هؤلاء الأربعة غير الحارث بن منبه . راجع الروض الأنف ٣٠٢/٥ ، ٣٠٣ ، ٣١١ . الفياض : الكثير الإعطاء .

(٤) العاصى : هو العاصى بن منبه بن الحجاج من بنى سهم ، قتله على بن أبى طالب . راجع الروض الأنف ٣٠٨/٥ . المرة — بكسر الميم — القوة والشدة . التميم (هنا) الطويل . الأوصام : العيوب ، الواحد : وصم .

(٥) تنمى : تسمو . المآثر : المحامد .

وإذا بكى باك فأعـــول شجـــوه

فعلى الرئيس الماجـد بن هشام (١)

حيـــا الإله أبا الوليـد ورهطـه

رب الأنـام وخصهـم بسـلام (٢)

ابك بكت عيناك بدم سجام

فأجابه حسان بن ثابت الأنصاري ، فقال :

ابك بكت عينـــاك ثم تبـــادرت

بدم تعـك غروبهـــا سجـــام (٣)

مـــاذا بكيت بـــه الذين تتـــابعوا

هـــلا ذكرت مكـــارم الأقـــوام ؟ (٤)

وذكـــرت منـــا ماجـــدا ذا همـــة

سمح الخلائق صـــادق الإقـــدام (٥)

أعنى النبى أخـــا المكـــارم والندى

وأبـــر من يولى على الإســـام (٦)

فلمثـــله ولمثـــل ما يدعـــو لـــه

كـــان الممـــدح ثم غير كهـــام (٧)

---

(١) الإعوال : ـــ رفع الصوت بالبكاء . الشجو : الحزن . الرئيس الماجد : هو أبو جهل واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة .

(٢) أبو الوليد : هو عتبة بن ربيعة ولقب بأبى الوليد نسبة إلى ابنه الوليد راجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ١٥/٢ ، الروض الأنف ٣٢٤/٥ ، السيرة النبوية ١١/٣

(٣) تبادرت : أسرعت . تعل ـــ بضم التاء وفتح العين ـــ تكررت ، مأخوذ من العلل، وهو الشرب بعد الشرب . الغروب ـــ بفتح الغين ـــ جمع غرب وهو مجرى الدمع . سجام : سائل .

(٤) تتابعوا : أى ألقوا بأنفسهم فى التهلكة فكانوا حصاد بدر .

(٥) فى ديوان حسان « فاضل » بدلا من كلمة « صادق » .

(٦) يولى : يقسم ويحلف . الإقسام : مفرده قسم ـــ بالفتح فيهما ـــ وهو اليمين بالله أو بغيره .

وجاء فى ديوان حسان « أخا التكرم » بدلا من « أخا المكارم » .

(٧) الكهام : الضعيف . وراجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ١٦/٢ ، والروض الأنف ٣٢٤/٥ ، وعيون الأثر ٢٩٠/١ ، وديوان حسان بن ثابت ص ٢٧٠

نظـــرة فى القصيـــدتين :

هاتان نقيضتان على بحر الكامل بين ابن الزبعرى ، وحسان ابن ثابت ، وهما من أشهر الشعراء وأبرز الفرسان فى ميدان القول. وإذا كان ابن الزبعرى قد صور قوله باستفهام يظهـــر به حسرته وحزنه على أولئك النفر الكرام الذين تضرجوا فى دمائهم حول بدر، فإنه أخذ يعدد أسماء هؤلاء الفتية الكرام من قريش فى ألم يعتصر قلبه : ويتعجب فى لوعة مما حدث لهؤلاء الأبطال أصحـــاب المحامـــد والمآثر والأعراق الأصيلة فى قريش . إلا أن انفعاله يشتد وحزنه يتضاعف ، وصراخه يرتفع فى إعوال عندما يذكر أبا جهـــل الرئيس الماجد ، وعتبة بن ربيعة اللذين هلكا مع من هلك فى بدر وأصبحا فى عالم النسيان بعد أن كان لهما من المكانة والرئاسة ما تحـــدثت به الأقوام ، ولذا فإنه ينهى حديثه الشاجى الباكى بدعوات خالصات أن يتغمدهم الله برحمته وأن ينزلهم منزلة السلام والأمن .

أما حسان بن ثابت ، فإنه يشهد بكاء ابن الزبعرى ويرقب نحيبه مستحثا له على الاستمرار فى البكاء والعويل ، داعيـــا له بأن يكون الدم المدرار بكاء عينيه بدلا من الدمع ، ثم يوضح له فى سخرية لاذعة أن الدمع وحده غير كاف فى رثاء هؤلاء القوم الكرام وأن بكاءهم الصحيح هو ذكر أمجادهم وأفضالهم وإذا اتجهت إلى ذلك فإن ذكر النبى (ص) بمحامده الكريمة ، وصفاته الشريفة ، وأخلاقه النبيلة ، يلغى كل ما تذكر ، ويطغى على جميع ما تذهب إليه فى جانب هؤلاء وغيرهم . وألفاظ الشـــاعرين وأساليبهما تمتاز بالقوة والجـــزالة والفحولة والسهولة ، وقد تنوعت الأساليب بين الخبرية والإنشائية، وقد نحت الأساليب الإنشائية نحو التفجع والتحسرعندابن الزبعرى، بينما اتجهت إلى السخرية والشماتة ، والفخر بمحمد ورسالته عنـــد حسان بن ثابت مما أسهم فى توضيح معـــانى الشاعرين ، وقوى أفكارهما ، كما أكدت هذه الأساليب صدق عاطفة الشاعرين،وترجمتهما عن أحاسيس صادقة ، ومشاعر فياضة ، يلفها الحزن والسوداوية فى

جانب ابن الزبعرى ، بينما تعكس أساليب حسان بن ثابت شماتتـــه وسخريته ونشوته بالنصر على هؤلاء المعاندين الضالين •

وقد أضفت الصور البيانية على قلتها فى النقيضتين جمالا فى التعبير ، وروعة فى تأدية المعانى • فالحارث يبرق وجهه كالبدر الذى يفتق غياهب ظلام الليل الحالك ، والعاصى بن منبـــه يشبه فى قوته وصلابته الرمح الطويل المبرأ من كل عيب ، وكلاهما يصل إلى هدفه فى يسر وسهولة • أما حسان فقد جعل عيون خصمه الباكية تعل أى تملأ مرة بعد مرة كالشارب الذى يشرب مرة بعد مرة لتفيض بالدم لا بالدمع ، وهذا ولا شك يبرز مدى تشفى حسان فى عدوه ، والتلذذ بما يراه من حاله البائسة الباكية ، مما يشفى به صدره ويريح نفسه، كما أنه جعل الرسول (ص) أخا المكارم والكرم وصنوا لهمـــا ، مما يرتفع به إلى أعلى درجات الكمال والإجلال •

٥ ـــ طحنتهم حرب يشب سعيرها بضرام !

وقال حسان بن ثابت (١) :

تبلت فـــؤادك فى المنـــــام خريدة
تسقى الضجيع ببـــارد بســـــام (٢)
كالمسك تخلطـــه بمـــــاء سحـــــابة
أو عاتق كـــدم الذبيـــح مـــدام (٣)
نفـــج الحقيبة بوصـــــــها متنضـــــد
بلهـــــاء غير وشيكة الأقســــام (٤)
بنيت على قطـــــن أجـــم كـــأنـــه
فضـــلا إذا قعـــدت مداك رخـــام (٥)
وتكـــــاد تكســـل أن تجىء فراشها
فى جســــــم خرعبه وحسن قـــوام (٦)
أما النـــــهار فـــلا أفتر ذكـــــرها
والليل يوزعنى بهـــا أحـــــلامى (٧)

---

(١) فى ديوانه : قال يهجو الحارث بن هشام .

(٢) تيلت : أسقمت . الخريدة : الجارية الحسناء الحيية : تسقى : رواها صاحب عيون الأثر والروض الأنف : « تشفى » . تسقى ببارد : أراد : تسقى باردا فالباء زائدة .

(٣) العاتق : الخمر القديمة . المدام ـــ بضم الميم ـــ اسم من أسماء الخمر .

(٤) نفج الحقيبة : نفج ـــ بضم النون والفاء ـــ مرتفعة . الحقيبة : ما يجعله الراكب وراءه واستعارها هنا لردف المرأة ، والمعنى : ضخمة الأرداف . البوص : العجيزة . متنضد : علا بعضه بعضا . بلهاء : العفيفة الغفول عن الشر . وشيكة : سريعة الأقسام جمع قسم ـــ بفتحتين ـــ أى اليمين ، والمعنى غير سريعة اليمين . ولم يذكر صاحب عيون الأثر هذا البيت والبيتين التاليين له .

(٥) قطن : ما بين الوركين إلى بعض الظهر . أجم : ممتلىء باللحم غائب العظام . المداك : الحجر الذى يسحق عليه الطيب . فضلا : أى إذا قعدت متفضلة أى فى ثوب واحد . شبه ماء أكمها وانازها وملاستهـــا بالرخـــام .

(٦) فى ديوانه : « وتكاد تكسل أن تقوم لحاجة » . الخرعبة : اللينة الحسنة الخلق واصل الخرعبة . الغضن الناعم .

(٧) توزعنى : تغرينى وتولعنى .

أقسمت أنســـاها وأترك ذكـــرها

حتى تغيب فى الضريح عظـــامى

يا مـــن لعـــاذلة تـــلوم ســـفاهة

ولقد عصيت على الهـــوى لوامى (١)

بكـــرت على بسحـــره بعـــد الكرى

وتقـــارب مـــن حادث الأيـــام (٢)

زعمت بأن المـــرء يكـــرب عمـــره

عـــدم لمعتـــكر مـــن الأصرام (٣)

إن كنت كـــاذبة الذى حـــدثتنى

فنجوت منجى الحـــارث بن هشام (٤)

ترك الأحبـــة أن يقـــاتل دونهـــم

ونجـــا برأس طمـــرة ولجـــام (٥)

تـــذر العنـــاجيج الجيـــاد بقفرة

مـــر الدموك بمحصـــد ورجـــام (٦)

---

(١) ولقد عصيت على الهوى لوامى : أى عصيت لوامى باستر سالى فى الهوى .

(٢)لم يذكر صاحب عيون الأثر هذا البيت والبيت التالى له .

(٣) يكرب : يحزن . عمره : أى مـــدة عمره . والديـــوان يروى « يومه » بدلا من « عمره » . المعتكر : الإبل التى ترجع بعضها على بعض فلا يمكن عدها لكثرتها — الإصرام جمع صرم « بكسر ففتح » : القطعة من الإبل . ومعنى البيت أنها زعمـــت أن المرء يقرب أجلـــه الفقر فأمرتنى بالإمساك .

(٤) الحديث فى البيت إلى نفس الشاعر . وقد ذكر صاحب الاكتفاء هذا البيت والذى يليه على أن حسان بن ثابت يعرض فيهما بالحارث بن هشام وفراره عن يوم بدر . راجع الاكتفاء ٢/٧٢ . وذكر صاحب عيون الأثر أنه فى هذين البيتين وما بعدهما يعير الحارث بن هشام بالفرار . راجع عيون الأثر ص ١٩

(٥) الطمرة — بكسر الطاء والميم وتشديد الراء المفتوحة — : الفرس الكثير الجرى و المستفز للوثوب والعدو .

(٦) العناجيج : جمع عنجوج ، وهو الطوبل السريع . القفرة : الصحراء . الدموك : البكرة ، يقال دمكه دمكا : طحنه طحنـــا سريعا ، وبكرة دموك : أى سريعة . يريد الشاعر : أن الفرس سريع كسرعة البكرة التى يستقى بها على البئر . المحصن : الحبل الشديد الفتل . الرجام : واحد الرجامين ، وهما الخشبتان اللتان تلقى عليهما البكرة .

مـلأت به الفرجين فارمـدت بـه

وثـوى أحبتـه بشر مقـام (١)

وبنـو أبيـه ورهطـه فى معـرك

نصـر الإله بـه ذوى الإسـلام

طحنتهـو والله ينفـذ أمـره

حـرب يشب سعيرها بضـرام (٢)

لـولا الإله وجريهـا لتركنـه

جـزر السبـاع ود سنه بحوامى (٣)

مـن بين مأسـور يشـد وثاقـه

صقـر إذا لاقى الأسنـة حـامى

ومجـدك لا يستجيب لدعـواة

حتى تزول شـوامخ الأعـلام (٤)

---

(١) الفرجان هنا : ما بين يديها وما بين رجليها . أرمدت : أسرعت . ثوى : أقام ويروى الديوان « فارقدت به » بدلا من « فارمدت به » ومعناهما واحد : قال الأصمعى : أرقد وأرمد ــ بتشديد الدال فيهما ــ إذا مضى على وجهه وأسرع . أنظر اللسان مادة « رقد » ، و « رمـد » .

(٢) اختلف نظام الأبيات التالية مع نظام الأبيات فى ديوان حسان بن ثابت ، حيث جاء قبل هذا البيت ، البيت الثالث : « من بين مأسور . . . » ورواه الديوان :

من كل مأسور يشد وثاقه صقر إذا لاقى الأسنة حام

ثم البيتان التاليان ولم يرويا بسيرة ابن هشام :

ومرنـح فيـه الأسنـة شرعـا

كالجفـر غير مقـابل الأعمـام

من صـلب خنـدف ما جـد اعـراقه

نجلـت بـه بيضـاء ذات نمام

وغير مقابل الأعمام : يعنى أبوه وأمه ليسا من قبيلة واحدة . نجلت به : ولدته . البيضاء : النقية العرض .

ثم البيت الذى يقول :

ومجدل لا يستجيب . . . » ثم عاد إلى البيتين : « طحنتهمو . . . » ، و « لولا الإله وجريهـا . . . » ورواه : « لولا الإله وركضه . . . » . ولم يذكر الأبيات الثلاثة الأخيرة . وقد أورد الديوان فى هامشه بعض أبيات أخرى زائدة . راجع الديوان ص ١١٠

(٣) دسنه : وطئنه . الحوامى : جمع حامية ، وهى الحوافر .

(٤) المجدل : الصريع على الأرض . الأعلام : جمع علم ، وهو الجبل العالى .

بالعـــار والـــذل المبـــين إذا رأى

بيض السيوف تسوق كل همـــام (١)

بيـــدى أغـــر إذا انتمى لم يخـــزه

نسب القصـــار سميدع مقـــدام (٢)

بيض إذا لاقت حـــــديدا صممت

كالبرق تحت ظـــلال كـــل غمـــام (٣)

— إن أقاتل واحـــدا أقتـــل —

فأجابه الحارث بن هشام (٤) :

الله أعلـــم ما تركنـــــا قتـــــالهم

حتى حبوا مهـــرى بأشقـــر مزبد (٥)

---

(١) الهمـــام : الرجل الذى إذا هم بأمر فعله .

(٢) أنتمى : انتسب . القصار : الذين قصر سعيهم عند طلب المكارم. السميدع : السيد .

(٣) قال ابن إسحق : « تركنا من قصيدة حسان ثلاثة أبيات من آخرها ، لأنه أقذع فيها » ، وهى خمسة فى ديوان حسان . وراجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٦ وما بعدها ، والروض الأنف ٥/٣٦٨، وشرح ديوان الحماسة ١/٩٧ ، والاكتفاء ٢/٧٣ ، والسيرة النبوية ٣/١٢، وديوان حسان بن ثابت ص ١٠٧ وما بعدها .

(٤) قال ابن إسحق : قالها الحارث يعتذر من فراره يوم بدر — وهو أخو أبى جهل .

(٥) الله أعلم : لفظه لفظ الخبر ، وقصد به القسم واليمين ، حبوا مهرى : علوا مهرى . أشقر : يريد به الدم . المزبد : الذى علاه الزبد ، وجعل الدم مزبدا لأنه إذا بدر من الطعنة أزبد أى علاه زبد ، يعنى أنـــه ما انهزم حتى جرح فرسه فعلاه دمه ، أو جرح هو فعلا فرسه دمه . وقد جاء فى ديوان الحماسة بعد هذا البيت قوله :

وشممت ريح الموت من تلقائهـــم ... فى مأزق والخيل لم تتبدد

وروى : « وجدت » بدلا من « شممت » . والمعنى انه غلب على ظنه انه لو وقف لقتل .

وعـرفت أنى إن أقاتل واحـــدا
أقتـل ولا ينكى عـدوى مشهدى (١)

فصــددت عنهـم والأحبة فيهمـو
طمعا لهـم بعقـاب يوم مفســد (٢)

مدخل الى النقيضتين :

هاتان نقيضتان أخريان من نقائض معركة بدر الكبرى التى كان لها آثارها العظيمة على كلا الفريقين المتحاربين • والنقيضتان وإن جاءتا على بحر واحد هو بحر الكامل فإنهما هنا قد اختلفتا فى حرف الروى والقافية حيث جاءت أبيات حسان بن ثابت على حرف الميم المكسورة المشبعة والمسبوقة بألف مد ساكنة ، أما أبيات الحـــارث ابن هشام فقد جاء حرف الروى فيها دال مكسورة مشبعة قبلهـــا كسرة • كذلك فإن النقيضتين اختلفتا طولا وقصرا ، فبينمـا بلغت قصيدة حسان بن ثابت — كما أوردها ابن هشام — عشرين بيتا،فإن ما قاله الحارث لم يزد على ثلاثة أو أربعة أبيات • وهنا نجد الفرق الواضح فى عدد الأبيات لدى الشاعرين • ولكن مرجع ذلك لا يخفى على من يحيط بطبيعة ذلك الموقف ، وما كان له من آثار نفسية متباينة على كل من الشاعرين • فالحارث بن هشام بن المغيرة ، أخو أبى جهل أحد فرسان العرب وأبطالها ومن علية القوم ووجهائهم يقف من بدر وأحداثها موقفا لا يحسد عليه ، يصمه بالجبن والنذالة ، ويجرده من

---

(١) انتصب « واحدا » على الحال والعنى منفردا . ينـكى : يؤلم ويوجع . وروى ديوان الحماسة « ولا يضرر ... » مكان « ولا ينكى ... » والمعنى على ذلك : تيقنت أنى إن ثبت لقتالهم قتلت ، ولا يضر حضورى أعدائى ، بل ينفعهم لأنهم إذا كنت وحدى قتلونى ففرحوا وغنموا .

(٢) الأحبة : يريد بهم من قتل وأسر من رهطه وإخوته كأبى جهل أخيه . طمعا لهم بعقاب يوم مفسد : أى عرضت عنهم لطمعى فى أن يعقب الله لى يوما يفسد فيه عملهم ويمكننى منهم فأنتهز تلك الفرصة وأقتص منهم، راجع الأبيات فى : السـيرة النبوية لابن هشـام ١٨/٣ ، وشرح ديوان الحماسة ٩٨/١ ، وديوان الحماسة ٦٣/١ مطبعة ومكتبة صبيـح ، والروض الأنف ٣٢٦/٥ ، والاكتفاء ، ٢٩١/٢ ، والسيرة النبوية ١٣/٣ .

كل فضيلة كان يزهو بها ، بل ويجعله يطأطىء رأسه فى ذلة وانكسار على مر الدهر • إذ يرى بعين بصيرته ــ وهو الفارس المغوار ــ أنه لا قدرة له ولا لمن معه ــ مهما أوتوا من القوة والسلاح ــ على مواجهة ذلك التجمع الهادر الذى انقض على أعداء المسلمين فى غير هوادة يوجه إليهم سهامه الصائبة ، ويحيطهم بأشد العذاب ، وأنه لا شك مقتول إذا لم يسرع بالفرار أو الهرب ، وإذا به دونما تفكير يطلق لساقيه العنان فيسابق الريح هربا وفرارا متخليا عن قومه وآله فى وقت كانوا فى أشد الحاجة إلى دفاعه والوقوف بجانبهم • فيأتى حسان بن ثابت بعد ذلك النصر المبين والنشوة تغمر حنايا النفس وتملأ جنباتها سعادة وغبطة ، فيسلط لاقطته الفنية على تلك الزلة التى وقع فيها الحارث بن هشام ويحيطها بأضواء فنه الكاشفة ليسجل على بطل الأبطال وأسدها المغوار الحارث بن هشام ذلك الموقف المخزى ويكشفه أمام الجميع ، مسجلا عليه جبنه وخوره ، ساخرا ومعرضا بما كان يتطاول به على قومه ويزهو به ، موضحا أن الفرار صفة الجبناء ، وخلق ذميم لا يرتضيه لنفسه إلا ضعاف النفوس ، وأسافل الناس ، فما بالك وقد جمع الحارث بين خستين هما الفرار ، والتخلى عن أحبته وآله وذويه فى أحلك المواقف وأشدها حاجة إلى أمثاله ، فكان القتل والأسر والضياع لهم ، والعار والذل المبين الذى يلاحقه ويطارده •

وأمام هذه الوصمة الدامغة نجد أنفاس الحارث بن هشام تتعالى ، ودقات قلبه تتصاعد ونفسه تتهاوى فى إعياء وتهالك ، حتى لنكاد نحس بزفير أنفاسه المتلاحق ، ونسمع دقات نبض قلبه المتداعى ، من خلال تلك الكلمات اللاهثة الحزينة تجرجر أذيال الخيبة والندامة وتعلن ــ فى إعياء وتثاقل ــ اعتذاره عن ذلك الموقف الشائن المخزى ، فلا يجد من الأسباب التى يعزى سبب فراره إليها سوى تقرير الواقع الأليم وهو أنه قد رأى شبح الموت يطل عليه من كل مكان ، وأنه قد فقد القدرة على القتال أمام الطعنات القاتلة التى وجهت إليه وإلى فرسه ، ففكر سريعا إن هو استمر على هذه الحال فلن يمكث طويلا ،

وسيلحق بالمصرعين ، فخير له أن يفر • ثم تبرز له فكرة يرى فيهـا تدعيم موقفه ، وتبرير هربه فيسارع إلى إعلانها وتسجيلها ، وهى حلم داعب نفسه المكلومة ، وأمل همس به إلى نفسه المحطمة ، ففراره كان خطة ونظرة بعيدة الأهــداف • حيث رأى بثاقب فكره أن يفر انتظارا لفرصة تتهيأ له ليقتص فيها لقومه ، ويثأر لقتلاه وأسراه ، لكنه حلم المغلوبين المطحونين ، والحبـال الواهية التى يتعلق بهـا الغرقى ، والسراب الذى يتراءى للظمأى والهلكى ، وأحـلام العفنة التى سرعان ما تبددها أضواء الحقيقة المبهرة وتتحول فى وجوههم إلى نار حامية تلفحها بضرام سعيرها ، ولهيب أوارها •

الرؤيا الفنيـــة :

(١)

على الرغم من اقتصار الحارث بن هشام فى اعتذاره عن الفرار على أبيات معدودة فإنه فى هذا القول المجز كما قال عنه الأصمعى : « أحسن ما قيل فى الاعتذار (١) » وذلك راجع إلى الصـدق الفنى الذى نلمسه من الأبيات حيث قرر الشاعر حقيقــة الموقف ودوافع الفرار الحقيقية فى البيتين الأولين فقد عزا فراره إلى ملاحقة الطعنات له ولجواده • حتى غطى الدم المتدفق فرسه ، وهـذا التعبير يوحى بأن هذا الدم دم فرسه الذى أصابته الطعنات النافذة فأضعفت قوته وجعلته يتهالك من شدة جراحه فلم يعد يصلح للنزال والكر والفر ، فى معركة شرسة ضارية أو أن ذلك دم الشاعر نفسه الذى نزفتـه جراحه التى أثخن بها فى تلك الموقعة فشلت الطعنات قواه ، وأعيته آلامه فلم يعد قادرا على نزال أو مواجهة مما اضطره إلى الإسراع إلى الانزواء والابتعاد عن موقع الحرب ضنا بروحه وأملا فى النجاة بنفسه ، ولهذا فإننا نراه يصدر أبياته بالقسم الذى جاء فى صـورة الخبر ولكنه يقصد به اليمين المؤكدة : « والله يعلم » لحقيقة دوافع

(١) راجــع : عيون الأثر ٢٩١/١ •

فراره كمـــا أننا نجده يقول فى البيت الثانى إننى وجـــدت بعين الرجل المتمرس ، البصير بأمور الحرب أن المعركة غير متكافئة وأن الدائرة دون ريب تسارع إلى صفوفهم ، والهزيمة حالة بهم • ولهذا فقد تأكد له أنه إن تابع القتال فإنه سرعان ما يجد نفسه وحيداً فى المعركة ، وهو على حال من الإعياء والتهالك والتجرد من أهم أسلحة الحرب ــ وهو جواده الذى أثخنته الجراح ــ كل ذلك لن يمكنه من الاستمرار فى الحرب طويلا ، وما هى إلا جولة أو جولات حتى يلحق به الموت ، ويصرع مع من صرعوا من قومه ، ولن يكون لموته أثر على أعدائه أو ينال منهم شيئا ، بل بالعكس سيشمتون فيـــــه ويفرحون لهلاكه • فالشاعر قد علل لبواعث فراره بأنها عــــدم إفادة وقوفه واستمراره فى المعركة ، إلى جانب المصير الذى ينتظره إن هو استمر فى القتال وهو افتراس الموت له ، وإجهاز المسلمين عليه ، وهو بذلك إنما يريح عدوه منه ويحقق له ما يهدف إليه وهو التخلص منهوالقضاء عليه • فإذا ما جمعنا إلى هذه الأسباب قوله فى البيت الذى أورده صاحب الحماسة : « وشممت ريح الموت من تلقائهم •••• » لتبين لنا أن الشاعر تأكد له بما لا يدع مجـــالا للشك أو التردد موته إن استمر فى القتال ، ولهذا فقد آثر الفرار والابتعاد عن موطن الخطر الداهم • والتعبير هنا « بشممت » تعبير فنى دقيق حيث جعللموت رائحة تزكم أنفه وتكتم أنفاسه وتسمم الجو من حوله مما يجســم رعب الشاعر وانهياره أمام هذه الحقيقة التى يشمها ويلمسها بحواسه وقد تناوشته النبال والرماح حتى أصبح فى مأزق خطر ، وحصـــار ينذر بأوخم العواقب وأفدحها على نفسه ، كما أن ذلك يوحى بعنف المعركة وشراستها وتفوق جيش المسلمين • لكن الشاعر مع ذلك كله يحس أن الفرار مهما كانت بواعثه وأسبابه لا يقدم عليه إلا كل جبان رعديد ، ولهذا فإنه يضم إلى تلك الدوافع دافعا آخر لعله يجد فيــه المبرر الذى يقنع الآخرين بسلامة موقفه وإصابة تفكيره عندما قرر الفرار ، فهو قد قلب الأمر على وجوهه فوجد أن حضوره واستمراره فى المعركة وهو على تلك الحال التى وصفها لن يمكنه من فعل شىء

ولن يلحق أذى بأعدائه ، بل سيخطفه الموت وبذلك يخسر قومه فارسا يمكن أن يتراجع اليوم ليعد نفسه فى انتظار فرصة تسنح للإنقضاض على أعدائه وأعداء قومه فى الغد ، فيقتص منهم وينزل بهم أشـد العقاب ، مما جعله يؤثر الفرار ويختاره مع ما فيـه من إيلام على النفس ، وحكم عليه بالجبن والخور ، وما سيجره عليـه من تشهير ببطولته ، ونيل من كفاءته وقدرته الحربية بالإضافة إلى تجريده من كل فضيلة ومحمدة .

(ب)

أما حسان بن ثابت فإننا نراه على عكس حال صاحبنا هـذا تماما ، فهو رابط الجأش ، ثابت الجنان ، هانئا ، سعيدا بما حقق المسلمون من نصر على أعدائهم ، معرضا بقريش وأتباعهم ممن آل بهم عنادهم إلى القتل والأسر والفرار ، ولحق بهم عار الهزيمـة ، واحتواهم الذل والهوان . ولهذا فإن القارئ لقصيدته التى صدرت بمقدمة غزلية طويلة امتدت إلى نصف أبياتها لا يكاد يصدق أن هذه القصيدة قيلت فى عرض أحداث معركة حربية دامية أعملت فيهـا السيوف ، وأزهقت فيها الأرواح ، لأنه أمام مقدمة لا توحى بذلك أو تنم عنه ، ويتطلب الأمر أمام تلك المقدمة أن يصبر القارئ طويلا حتى يتعرف على غرض القصيدة وموضوعها . بل إن بنية القصيدة نفسها قد تحول دون ذلك تماما وتمنع التفكير فيه ، حيث لم يكتف الشاعر بالمقدمة الغزلية الطويلة التى نحا بها نحو البنـاء الجاهلى للقصيدة العربية ، وإنما أخذ يلح إلحاحا عظيما على استعمال الألفاظ العربية المعجمية التى تحتاج إلى إعمال الفكر ، وضرورة العودة إلى قواميس اللغة . أضف إلى ذلك الصور الفنية التى ترتبط بالبيئـة العربية ارتباطا وثيقا وكأن الشاعر لم يعد يشغله شاغل من أمر تلك المعركة ، وفرغ تماما إلى فنه الشعرى . فأخذ يجمع أدواته ، ويختار ألفاظه ، ويستوحى خياله ، ويقدح فكره ، يتحدى أرباب العقـول وينازل أساطين البيان ، ويخوض معركة أخرى ، لكنها اليوم لا سيف

فيها ولا طعان ، وإنما أدواتها وأسلحتها ، التعبير المحلق ، والقــول الجزل ، والتصوير المبدع • ولهذا امتد نفسه ، وسما لفظه ، ودق تعبيره ، وانطلق خياله يجمع إلى جزالة اللفظ دقة الصورة وحيويتها مستوحيا بيئته العربية • فعند قراءتنا للألفاظ والتعابير التاليـــة : خريدة ، نفج الحقيبة ، بوصها متنضد ، بنيت على قطن ، طداك رخام، محصد ورجام ، ارمدت به ، ودسنه بحوامى ، نسب القصار، سميدع • استبان لنا قاموس شاعرنا اللغوى فى هذه القصيدة • فهو يعود إلى اللغة فى أصولها القوية وجذورها الأولى المعتمدة على الفخامة والجزالة ، المترجمة لبيئة الشاعر ، والتى أصبحت بعيدة عن استعمالنا وتعبيرنا فى هذا الزمان مما يدعونا إلى ضرورة العودة إلى معاجــم اللغة لفهم مدلول تلك التعابير ومعانى ألفاظها • كذلك فإن صـــوره تعكس لنا ارتباط الشاعر ببيئته واشتقاقه لها من الحياة من حوله — فرضاب الحبيب بارد بسام كالمسك المخلوط بماء السحابة الصافى ، أو كالخمر المعتقة التى مال لونها إلى الحمرة حتى صارت كدم الذبيح، دلالة على أنها قديمة غير مشوبة بغيرها ، وردفا الحبيبـــة مكتنزان مرتفعان ، ولهذا استعار لهما قوله : « نفج الحقيبة » يعلو بعضهـــا بعضا « بوصها متنضد » وهى عفيفة هادئة الطبع لا تميل إلى الشر ولا تفعله وكنى عن ذلك بقوله : « بلهـــــاء » وبقوله « غير وشيكة الأقسام » أى أنها لا تقسم كثيرا ، أى أنها لا تفعل الشر ، ولاتحتاج إلى تأكيد ما تفعله أو تقوله إلى القسم والأيمان المغلظة كعادة كثير من الناس فى تبرير أفعالهم وأقوالهم بالأيمان والحلف ، وجسمها ضخم مكتنز شحما ولحما • وكنى عن ذلك بقوله : « بنيت على قطن » وهو ما بين الوركين إلى بعض الظهر ، « أجم » ممتلىء باللحـــم غائب العظام • كما شبه الجسم الضخم فى نعومته ورقته عند رؤيته وقد توشح بالثوب الرقيق كأنه قطعة من الرخام الأملس الرقيق « مداك رخام » والمداك : الحجر الذى يسحق عليه الطيب • كما أن محبوبته بطيئة الحركة « تكسل أن تجىء فراشها » ومع هذا الاكتناز فى الجسم وبطء الحركة فهى غضة بضة حسنة الخلق كالغصن الطرى الناعــم

« خرعبة » • ثم إن هذه المحبوبة لا تنسى أن تعظ صاحبها وتوجهه حيث أكدت له أن الفقر يقرب الأجل وينهى العمر ولذلك تنصحه بالإمساك حتى يجد المال كلما احتاج له ايحل به أزمة عارضة ، ويتغلب به على مصيبة نازلة ، وهذا ولا شك نصيحة غالية ، وتوجيه سديد ، فإن احتياج الإنسان إلى غيره واضطراره إلى أن يمد يده للآخرين في وقت احتياجه مذلة وهوان يورث الإنسان الأحزان والآلام النفسية العاصفة : « إن المرء يكرب عمره عدم ، لمعتكر من الأصرام » ، وإذا كان هذا التركيب فيه شيء من الغموض فإنه من ألفاظ البيئة وصورة من صورها •

فالمعتكر : الإبل التى ترجع بعضها على بعض فلا يمكن عدها لكثرتها ، والأصرام : جمع صرم ، وهو القطعة من الإبل • وعندما أراد حسان بن ثابت تقدير سرعة الفرس لجأ إلى تلك الصورة الطبيعية التى يلقاها ابن البادية فى طريقه صباح مساء ، وهى صورة آلة السقى التى تنصب على البئر فيديرها الإنسان لتخرج المياه إلى أعلى الأرض ، فيسقى الإنسان الحيوان والنبات ، ويأخذ الشاعر من تلك الصورة الريفية ما يدل فيها على السرعة ، وهى البكرة التى تعلق فى أعلى هذه الآلة ، وينزل منها الخيط المنتهى بالدلو ليشبه سرعة الجواد بسرعة دوران تلك البكرة التى يحركها ذلك الحبل ، عندما يجذبها الشخص فى عملية إنزال أو رفع الدلو من البئر • وهى صورة طبيعية تدل على تأثر الشاعر تأثرا عظيما بالطبيعة من حوله ، وإن كانت السرعة هنا نسبية إذ لو قارنا بين تلك السرعة وبين سرعةفرس امرىء القيس التى صورها بقوله :

مكر مفــر مقبــل مدبر معـــا
كجلمود صخر حطه السيل من عــل

لوجدنا السرعة عند حسان بطيئة شديدة التثاقل ، بينما نراها عند امرىء القيس تخطف الأبصار ، وتستلب الفؤاد • ولا شك أن الفارق شاسع بين التصويرين ، إلا أن انعكاس أثر البيئة فى الصورتين

واضح ، وربط الشاعرين بين المعانى الإبداعية والصور الحسية التى تعكس أثر البيئة والترجمة عنها فى المقام الأول من تفكير الشاعرين. ويبقى بعد ذلك الرؤيا الخيالية لدى الشاعر وقدرته على توجيه لاقطته الفنية لاصطياد الصورة الدقيقة الطريفة ، حتى تعبر فى إيجـــاز وإبداع فنى عن خواطر الشاعر وأفكاره . وهذا هو الفارق بين شاعر وشاعر . ولذلك فإن حسان بن ثابت لم يذكر البكرة وإنما ذكر مكانها ما يدل على السرعة وهو لفظ « الدموك » يقال دمكه دمكا : أى طحنه طحنا سريعا ، وبكرة دموك : أى سريعة ثم رشح لتلك الإستعـــارة حتى يؤكد صورة السرعة فذكر « المحصن » وهو الحبل الشديد الفتل ، و « الرجام » وهو الحجر الذى يربط به الدلو ليكون أسرع لها عند إرسالها إلى البئر ، فإذا اجتمع للبكرة حبل متين وثقل شديد أدى ذلك إلى دوان البكرة فى توال وسرعة فى حالتى انحدار الدلو ورفعـــه من البئر .

وهذه الصورة أقوى ما يراه الشاعر فى بيئته للدلالة على السرعة وتوالى الحركة ، وفى تصويره لهول المعركة وشـــدتها ما يدل على الإهلاك والتفتيت ، فقال : « طحنتهمو حرب » كما تطحن الرحاة الحب والنوى . ولا شك أن هذه الصورة تعكس ضراوة المعركة وشراستها على الأعداء ، ومع ذلك فقد أضاف الشاعر إلى معركته أنهـــا يشب سعيرها بضرام مما يجسم الخطر المحدق ، والهول العظيم ، كما أنه صور عناد المشركين وإصرارهم على الكفر بأنه وصـــل إلى درجة لا يرجى معها تغيير أو تبديل كالجبال الراسيات . وهذا تصوير دقيق لما وصل إليه حال هؤلاء القوم من عناد واختلاف فى الرأى لم يعـــد يرجى معه سماع لقول أو إصاخة سمع لرشد أو استفادة بنصيحة .

(جـ)

وأعود إلى مقدمة القصيدة الغزلية الطويلة ، التى امتدت إلى عشرة أبيات لدى حسان بن ثابت والتى اتخذها تمهيدا ومقدمـــة لغرضه ، وهو تسجيل فرار الحـــارث بن هشام من معركة بدر ،

والتشهير بذلك الموقف المخزى ، وما كان من أمر أولئك المعـــاندين الضالين ، من قتل وأسر وفرار ألحق بهم جميعا المذلة والعار •

أعود إلى هذه المقدمة لأذكر أن حسان بن ثابت قد أقســم فى البيت السابع منها أنه سيظل على عهده وحبه حتى تغيب عظامه فى القبر ، ثم اتجـــه بعد ذلك إلى إحـــدى عواذله ومن يلومه على هواه واسترساله فيه،موضحا لهؤلاء أن اللوم سفاهة وحمق،ولذلك فلن يلتفت إليه أو يعيره أدنى اهتمام ، بل إنه سيظــل فى عصيـــانه للائمين وسيستمر فى هواه وحبه ، ثم يوضح أن تلك اللائمـــة قد جاءته فى أحد الأيام القريبة العهد من ذلك الحديث سحرة تزعم له أن الفقر يقرب أجل المرء ، ولهذا فإنها تنصحه بالإمساك والتروى • وهنا نجد الشاعر يتخذ من هذا الحديث تمهيدا ومعبرا ينتقل به الى موضوعه وهو الحديث عن فرار الحارث بن هشام ، آخذا فى متابعة حديثه مع تلك اللائمة ، رابطا بين ما تسربه إليه ، وبين موقف الحارث فى لباقة وقدرة فنية عالية ، موضحا أن ما همست به اليه إنما هــو كذب ومحض افتراء • فالأعمار بيــد الله ، وكذا الأرزاق ، لكنهـــا مغالطة الجبناء ، وأضاليل المتقاعسين الأشحاء ، أمثال محدثته ومن على شاكلتها ممن يبررون الخوف والخور والعقود عن المكارم ، وعدم الحرص على اكتساب الفضائل • وهم بذلك يوفرون لأنفسهم — كما يتصورون — النجاة والبعد عن المخاطر ، وليس هذا مسلكا انفردت به ، بل لقد شاركها فيه وارتآه الحارث بن هشام ، حيث آثر الفرار من معركة بدر ، والنجاة بنفسه من سعير لقـــاء بدر الحـــاسم ، والتقاعس عن نصرة آله وذويه ولكنها نجاة الجبنـــاء ، ومســلك الأدعياء ، يرفضه ويأباه كل ذى نفس أبية ، وينأى عنه صاحب الخلق الكريم • وهنا يلجأ الشـــاعر إلى التشبيه الضمنى ليؤكد النيل من صاحبه والتشنيع بموقفه المخزى فيشبه مسلك تلك المرأة وما ندت إليه من خلق شائن مما كان سببا فى نجاتها بموقف الحارث بن هشام الذى آثر الفرار من بدر ضنا بنفسه ، وحرصـــا على الحيـــاة ، مستهينا بكل القيم والأخلاقيات ، غير آبه بشىء ســوى نجـــاته

والحفاظ على روحه ، وهنا نجد التعبير الدقيق الذى يعبر به الشاعر عن موقفه الرافض لهذه الأخلاقيات ، والمنكر لها اذ جاء بأسلوب الشرط « إن كنت كاذبة الذى حدثنى .. » . ويريد به تأكيـد كذب حديثها ولذلك نراه يأتى بفعل الشرط فعلا ماضيا ، فهو يقول لهـا : « إنك كاذبة فيما حدثتنى به » ، ثم لا يذكر جواب الشرط لأنه مفهوم من سياق الحوار ، وهو الرفض القاطع لهذا المسلك ، وإنكار الشاعر لذلك الخلق الوضيع ، كما يدل على تمكن الشاعر من ناصية القول ، وقدرته على الحوار الجاد الذى يعكس أخلاقيات الشاعر الاسلامية الرفيعة ، ويعقد الموازنة الفنية الدقيقة بين مسلكين وخلقين متباينين ليؤكد قدرة الشاعر مرة أخرى على الإبداع الفنى والتصـوير الدقيق .

٦ ـ مع نصر الله للمسلمين ، وجحيم الكافرين :

يقول على بن أبى طالب فى يوم بدر [1] :

ألـــم ترأن الله أبـــلى رســـوله
بلاء عزيز ذى اقتــدار وذى فضــل [2]
بمـــا أنــزل الكفـــار دار مذلـــة
فلاقوا هوانا من إســـار ومن قتل
فأمسى رســول الله قــد عــز نصره
وكان رسول الله أرســـل بالعــدل
فجــاء بفرقان مــن الله منــزل
مبينـــة آياتــه لذوى العقـــل
فآمـــن أقـــوام بذاك وأيقنـــوا
فأمسوا بحمــد الله مجتمعى الشــمل
وأنكر أقـــوام فزاغـــت قلوبهـــم
فزادهمو ذو العرش خبلا على خبل [3]
وأمكن منهــم يـــوم بدر رســـوله
وقوما غضابا فعلهم أحسن الفعـــل
بأيد يهمو بيض خفـــاف عصـــوابها
وقد حادثوها بالجــلاء وبالصقــل [4]
فكـــم تركوا من ناشىء ذى حميـــة
صريعـــا ومن ذى نجدة منمو كهـــل

---

(١) يذكر ابن هشام انه لم ير احدا من اهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضتهما ، وانما كتبهما لأنه يقال : ان عمرو بن عبد الله بن جدعان قتل يوم بدر ، ولم يذكره ابن اسحاق فى القتلى ، وذكره فى هذا الشعر . راجـع السيرة النبوية لابن هشام ٢/١١ .

(٢) أبلى : أى من الله عليه وانعم ، وصنع له صنعا حسنا ، من أبلى الله عباده : اى اخييرهم بصنع جميل .

(٣) زاغت : اى مالت عن الحق . الخبل الفساد .

(٤) عصوا بها : ضربوا بها ، يقال : عصيت بالسيف ، وعصوت بالعصا : اذا ضربت بهما . حادثوها : تعهدوها .

تبيت عيـــون النائحـات عليهمــو
مجرد بأسبال الرشــــاش وبالوبل (١)

نوائـــح تنعى عتبـــة الغى وابنـــه
وشيبة تنعـاه وتنعى أبا جهـل (٢)

وذا الرجل تنعى وابن جدعـــان فيهمو
مســـلبة حـرى مبينـــة الثكل (٣)

ثوى منهمـــو فى بئر بدر عصــــابة
ذوى نجدات فى الحروب وفى المحـل

دعا الغى منهـم من دعـــا فأجـــابه
وللغى أسباب مرمقــة الوصــل (٤)

---

(١) الإنسان : الإرسال ، يقال : أسبل دمعة : ارسل . الرشاش ، المطر الضعيف . الوبل : الكثير ، والمعنى : تجود بإرسال ما تحـــدر من الدمـــع .

(٢) عتبه وابنه وشيبه : هم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد بن عتبة . قتل الأول حمزة بن عبد المطلب ، وقتل الثانى على بن ابى طالب . أما شيبة بن أبى ربيعة أخـــو عتبة فقتله عبيدة بن الهارث ، وحمـــزة وعلى .

(٣) ذو الرجل : هو الأسود بن عبن الأسد المخزومى . وكان رجلا شرسا سيىء الخلق ، وكان أول من خرج من صفوف قريش يدعو إلى المبارزة ، وقال ، أعاهد الله لأشربن من حوضهم أولأهدمنه او لأموتن دونه ، فخرج حمزة بن عبـــد المطلب إليه فضربه فأطـــار قدمه بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشجب رجله دما ، ثم اقتحم فيه يريد أن يبر بيمينه ، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله على الحـــوض . راجع الاكتفاء ٢٧/٢ ، والروض الأنف ١٠٢/٥ . وابن جدعان : هـــو عمرو بن عبد الله بن جدعان من بنى تيم ، وكان يسمى حاسى الذهب ، لأنه كان يشرب فى إناء من الذهب . وهو ابن عم أبى بكر الصديق . وهـــو الجواد المشهور صاحب الجفنة العظيمة التى كان يأكل منها الراكب على البعير . وكان النبى (ص) يستظل بظلها ، وقد وقع فيها إنسان فغرق ومات ، وكان فى أول حياته صعلوكا لا يملك شيئا ومع ذلك لا ينفعه ذلك العمل لكفره وبقائه عليه حتى قتل . راجع الأنف ٣١٠/٥ ، ٣٥١ . مسلبة : التى ليست السلاب ، وهى الثياب السود تلبسها الثكلى حدادا . وحرى : محرقة الجوف من الحزن . الثكل : الفقد .

(٤) مرمقة : ضعيفة ، من الرمق ، وهو الشىء اليسير الضعيف .

فأضحوا لدى دار الجحيـــم بمعــزل

عن الشغب والعدوان فى أشغل الشغل[1]

لا تفرحـــوا أن تقتلوهم !

أجاب الحارث بن هشام بن المغيرة [2] على بن أبى طالب بقوله:

عجبت لأقـــوام تغنـــى سقيمهـــم

بأمر سفاه ذى اعتراض وذى بطـــل

تعنـــى بقتـــلى يـــوم بدر تتابعوا

كرام المساعى من غلام ومن كهـــل

مصـــاليت بيض من لـــؤى بن غالب

مطاعين فى الهيجا مطاعيم فى المحل [3]

أصيبـــوا كـــراما لم يبيعـــوا عشيـــرة

بقوم سواهم نازحى الدار والأصـــل

كما أصبحت غســـان فيكم بطـــانة

لكم بدلا منـــا فيـــالك من فعـــل[4]

عقـــوقا ، وإثمـــا بينـــا وقطيعـــة

يرى جوركم فيها ذوو الرأى والعقل

فإن يك قـــوم قد مضـــوا لسبيلهـــم

وخير المنايا مـــا يكون من القتـــل

فـــلا تفرحوا أن تقتلوهم فقتلهـــم

لكم كائن خبلا مقيمـــا على خبـــل

---

(١) الشغب : تهيج الشر . وراجع الأبيات فى السيرة النبـــوية لابن هشام ٢/١٢ ، والروض الأنف ٥/٣٢٠ ، والبداية والنهاية ٣/٣٣٤ وما بعدها ، والاكتفـــاء ٢/٦٩ وما بعـــدها ، وعيون الأثر ذكر البيتين الأولين فقط ١/٢٣٥ ولم يذكر الأبيات من ١١ ـــ ١٣ .

(٢) راجع ترجمته فى نقائض موقعة أحد .

(٣) المصاليت : الشجعان . مطاعين : جمع مطعان ، وهـــو الذى يكثر الطعن فى الحرب . الهيجا : الحرب . المطاعيم : جمع مطعام ، وهو الذى يكثر الاطعام . المحل : القحط والجدب .

(٤) بطـــاقة الرجل : خاصته .

فإنكم لن تبرحوا بعد قتلهم
شتيتا هواكم غير مجتمعى الشمل (١)

بفقد ابن جدعان الحميد فعاله
وعتبة والمدعو فيكم أباجهل

وشيبة فيهم والوليد وفيهمو
أمية مأوى المعترين وذو الرجل (٢)

أولئك فابك ثم لا تبك غيرهم
نوائح تدعو بالرزية والثكل

وقولوا لأهل المكتين تحاشدوا
وسيروا إلى آطام يثرب ذى النخل (٣)

جميعا وحاموا آل كعب وذببوا
بخالصة الألوان محدثة الصقل (٤)

وإلا فبيتوا خائفين وأصبحوا
أذل لوطء الواطئين من النعل

على أننى واللات يا قوم فاعلموا
بكم واثق أن تقيموا على تبل (٥)

سوى جمعكم للسابغات وللقنا
وللبيض ، والبيض القواطع والنبل (٦)

نظرة فى القصيدتين : هاتان لاميتان جاءتا على بحر الطويل ، كما اتفقتا فى القافية ، حيث التزمت كل منهما فى نهاية الأبيات حركتين بينهما ساكن • وقد وفق الشاعران فى استعمال اللام المكسورة رويا لقصيدتيهما ، إذ ساعد حرف الروى هذا على امتداد

(١) الشتيت : المتفرق .
(٢) المعترون : المحتاجون المتعرضون للمسألة ، ويروى : «المفترون» والمفتر : الفقير . والوليد : هو الوليد بن عتبة بن ربيعة . وأمية : هو أمية بن خلف .
(٣) المكتين : مكة والطائف . والآطام : جمع أطم ، وهو الحصن .
(٤) ذببوا : اى امنعوا وادفعوا .
(٥) التبل : العداوة والثأر .
(٦) السابغات : الدروع .

الصوت الذى يستدعيه الحديث عن النصر وما وفق المسلمون اليه من هزيمة أعدائهم ، كما يتفق امتداد الصوت هذا مع ما نحا إليه الحارث فى أبياته من فخر بقتلاه ، ومالهم من مكانة رفيعة بين قومهم ، ومـــا حاوله من إظهار تماسكه وعدم جزعه وذلك بدعوته لقومه إلى التجمع للأخذ بالثأر ممن ألحق بهم تلك الهزيمة القاسية .

وقد عرضت قصيدة على بن أبى طالب لنصر الله العظيم لرسوله وأتباعه . وما لحق بالكافرين من الهوان والمذلة ، والأسر والقتـــــل مما أعز الله به دينه ، وأكد للجميع أن محمدا رسول الله حقا ، جاء بالفرقان الذى أنزل الله عليه فآمن به من فتح الله قلبـــــه للهدى ، وأنكر أصحاب القلوب الضـــــالة الجاحدة ، فازدادوا بذلك بعدا عن الحق ، وعن الطريق السوى ، ولذلك أمكن الله رسوله منهم فى تلك الموقعة حيث انبرى لهم جنود مخلصون حملوا ســـيوفهم وانطلقوا يضربون بها فى سبيل الله ، فهوت تلك السيوف الماضية على رقاب سادة الكفر وأباطرته فأزهقت أرواحهم ، وكان مصيرهم جميعا ذلك البئر الذى طرحوا فيه ، وكان هذا جزاء عادلا لعنتهم وفســـــادهم الموصول ، وكانت دار الجحيم هى النهاية المحتومة والمقـــــام الذى نزلوه فاصطلوا بناره بعد أن دأبوا على تأجيج نار العداوة والاضطهاد فى حياتهم الدنيا .

أما أبيات الحارث فقد تناولت ما عرض له على بن أبى طالب بالهدم والرفض ، حيث استهل أبياته بذم قائل هذه الأبيات وتعجبه منه وممن معه لتغنيهم بهذا النصر المزعوم الذى لا وجود له إلا فى تصورهم ، فإن قتل المسلمون يوم بدر منهم رجالا فإنهم رجال سعوا إلى درء الأخطار عن قومهم لأنهم فرسان شجعان ، من علية القوم وكبرائها ، كما انهم أصحاب طعان ونزال إلى جانب ما عرف عنهم من الكرم والأيادى البيض فإذا كان المسلمون قد أصابوهم فإنهـــــم الأكارم أصحاب المثل والقيم الرفيعة الذين لم يبيعوا قومهم — كما فعل غيرهم — معرضا بذلك بآل غســــان الذين انضموا للمسلمين

وأصبحوا عونا لهم ــ بقوم سواهم لأن ذلك من أرذل الأعمـــال ، واحقر الصفات ، ولذلك فإن هذا المسلك إنما هو عقوق وإثم عظيم •
وإذا كان هؤلاء الأماجد قد لاقوا حتفهم على أيدى المسلمين فإنهم قد تركوا على مر الزمن ما يؤكد بطولتهم وشجاعتهم إذ أن خير المنايا ما يكون من القتل ، والوقوع فى ميدان المعركة ، ولذلك فلا محـل لفرحكم ، ولا أهمية لما تبدونه من غبطة وسعادة ، بل إن الأمر ــ فى حقيقته ــ على العكس من ذلك تماما ، فقتلكم لهم سيظل دليلا على فسادكم وظلمكم ، ومع كل ذلك فإنكم لم تحققوا بذلك النصر شيئا من ترابطكم واتحادكم ، فما زلتم متفرقين غير مجتمعى الشمل على الرغم من قتلكم لهؤلاء الأبطال من صناديد قريش كابن جـدعان ، وعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة ، والوليد بن عتبة ، وما تدعونه أنتـم بأبى جهل ، وأمية بن خلف ، والأسود بن عبد الأسد (ذو الرجل) • فهؤلاء الأماجد أصحاب النجدة والغوث للمحتاجين انما نبكى عليهم بكاء حارا ، وعلى النائحات أن ينحن عليهم فى دعاء متصـــل على المعتدين القاتلين بالرزية والثكل • ثم لا يلبث الشاعر أن يلجأ الى التظاهر بالتماسك ورباطة الجأش ، فيطلب من الجميع العمل على جمـع الصفوف والتأهب للأخـذ بالثأر ، وأن يدافعـوا بسيوفهم وأسلحتهم عن شرفهم ومكانتهم ، والا فإنهم سيكون مصيرهم الهلاك والفناء والهوان والذل الدائم ، إلا أنه لا يخالجه أدنى شك فى أنهم سيهبون سراعا لجمع ألوان الأسلحة وأمضاها كى يثأروا لقتلاهـم ويلحقوا بأعدائهم الهزيمة النكراء •

وإذا كان الشاعر قد عرض لأبرز أسماء قتلى قريش فإن على بن أبى طالب قد سخر منهم ومن غيهم وتماديهم فى العناد حتى كان مصيرهم هذا الهوان الذى لا هوان بعده ، وبذلك استراح المسلمون من شرورهم المستطيرة • أما الحارث فقد جعل من قتلهـم محمدة لهم ، لما فيه من دلالة على شجاعتهم ، وتصديهم للشر الذى يهـدد قومهم ، وتضحيتهم المحمودة فى سبيل درء الأخطار عنهم وتأمينهم من أى اعتداء أو أذى يلحق بهم •

والروح الاسلامية تسود قصيدة على بن قبى طالب وتسرى فيهـا • فالله من على رسوله وأنعم بالنصر المبين وبالفرقان المنزل عليه ، الواضحة آياته لذوى العقول المفكرة ، وقد اجتمع شـمل المسلمين بهذا الايمان الذى أيقنوا به • أما من كفر وأنكر الرسـالة المحمدية ، فقد زاغ قلبه ومال عن الحق ، ولذلك كان نصر الله عزيزا للمسلمين الصامدين فى وجه الطغيان ، وأمكنهم من أعدائهـم قادة الكفر والضلال •

أما قصيدة الحارث ، ففيها كثير من سمات العصبية القبلية ، والزراية بالآخرين مما يتنافى مع تعاليم الاسلام ومبادئه السمحة ، ومنها كذلك الفخر بالأفعال والمواقف الكريمة مما هو من سـمات الإنسان العربى عامة ، كذلك فإن القسـم باللات يؤكد الاتجـاه العقائدى لدى الشاعر • فقتلى بدر من لؤى بن غالب ذات الامجاد العظيمة ، ولذلك فإن قتلاها مصاليت ، بيص ، مطاعين فى الهيجا ، مطاعيم فى المحل ، وهم أصحاب ولاء لقبيلتهم وعقيدتهم ، لا يبيعون عشيرتهم ولا يفرطون فى ولائهم ، واذا كان المسلمون قد نالوا منهم فى هذه الموقعة فإنه ينادى بأعلى صوته أهله وعشيرته — وهـم كثيرون — فى مكة والطائف أن يسارعوا بالتجمع ليدافعوا بأسلحتهم الماضية عن أمجادهم وعقيدتهم فما انتصار المسلمين عليهم — فى رأيه — إلا أمر باطل ، وشىء عارض سرعان ما يزول • فالمسلمون — فى نظرة — ومنهم غسان قد باعوا ولاءهم وتحولوا به من لؤى ابن غالب إلى محمد ودعوته ، فيا له من فعل شائن — كما فى معتقده — وهو عقوق واثم بين ، وقطيعة لا يقرها ذوو الرأى والعقل •

٧ ـ إن تك قتلى غودرت فإنا بعدهم سنغادر !

يقول ضرار بن الخطـــاب بن مرداس ، أخو بنى محارب بن فهر (١) ، فى يوم بدر :

عجـــبت لفخر الأوس والحـــين دائر
عليهم غدا والدهــر فيه بصـــائر (٢)
وفخر بنى النجـــار إن كان معشـــر
أصيبـــو ببـــدر كلهـــم ثم صابر
فإن تـــك قتلى غودرت من رجالنـــا
فإنا رجـــال بعدهم ســـنغادر
وترى بنا الجرد العناجيج وسطكم
بنى الأوس حتى يشفى النفس ثائر (٣)
ووسط بنى النجـــار سوف نكرهـــا
لهـــا بالقنـــا والدارعـــين زوافر (٤)
فنترك صرعى تعصب الطـــير حولهم
وليس لهـــم إلا الأمانى ناصـــر (٥)
وتبكيهمو من أهـــل يثرب نســوة
لهن بهـــا ليل عن النـــوم ســـاهر

---

(١) قال هذه القصيدة يرثى بها قتلى المشركين فى بدر . راجـــع البداية والنهاية ٣٤١/٣ ، والإصابة فى تمييز الصحابة ١٩٠/٥ .

(٢) الأوس : بطن من بطون العرب ناصروا الرسول (ص) وآزروه ، وقد اشترك منهم فى معركة بدر واحد وستون رجلا . راجـــع الروض الأنف ٣٣/١٧ .

(٣) تروى (بفتح فسكون فكسر) : تسرع . الجرد : الخيل العتاق القصيرات الشعر . العناجيج : جمع عنجوج ، وهو الطويل السريع . الثـــائر : الطالب بثأر .

(٤) بنو النجار : هم اخوال النبى (ص) ، وهـــم احدى طـــوائف الأنصار واشترك منهم فى بدر مع المسلمين بعض رجالهم . الدارعين : الذين يلبســون الدروع . زوافر : جمع زافرة ، وهى الحاملات للثقل .

(٥) تعصب : تجتمع عصائب ، اى جماعات جماعات .

وذلـــك أنـــا لا تزال ســـــيوفنا

بهن دم ممــن يحـــاربن مـــائر (١)

فإن تظفــروا فى يـــوم بدر فإنمـــا

بأحمد أمسى جدكم وهو ظـــاهر (٢)

وبالنفـــر الأخيـــار هم أوليـــاؤه

يحامون فى اللأواء والموت حــاضر (٣)

يعـــد أبـــو بـــكر وحمـــزة فيهمو

ويدعى على وســـط من أنت ذاكر

ويدعى أبـــو حفص وعثمـــان فهيمـــو

وسعد إذا ما كان فى الحرب حاضر (٤)

أولئك لا من نتجت فى ديارهـــا

بنو الأوس والنجـــار حين تفاخر (٥)

ولكن أبوهـــم مـــن لؤى بن غـــالب

إذا عـــدت الأنســـاب كعب وعامر

هم الطاعنون الخيـــل فى كل معـــرك

غـــداة الهيـــاج الأطيبون الأكاثر (٦)

---

(١) مـــائر : ســـائل .

(٢) فى الاكتفاء : ظافر بدلا من ظاهر .

(٣) اللأواء : البـــأس والشدة .

(٤) أبو حفص : عمر بن الخطـــاب . ســـعد : هو ســـعد بن أبى وقـــاص .

(٥) نتجت (بتشديد التاء المفتوحة) : ولدت .

(٦) راجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ١٤/٢ ، والبداية والنهاية ٣٤١/٣ ، والاكتفاء ٧١/٢ وما بعدها ، والروض الأنف ٣٢١/٥ وما بعدها ، وعيون الأثر ٢٩٣/١ وما بعدها ، وسيرة النبى (ص) ٥٣٩ ، والسيرة النبوية ١٠/٣ .

« ليس لله قاهر »

أجاب كعب بن مالك [1] ، أخو بنى سلمة ، ضرارا ، فقال :

عجبت لأمر الله ، والله قادر
على ما أراد ، ليس لله قاهر

قضى يوم بدر أن نلاقى معشرا
بغوا ، وسبيل البغى بالناس جائز

وقد حشدوا واستنفروا من يليهمو
من الناس ، حتى جمعهم متكاثر

وسارت الينا لا تحاول غيرنا
بأجمعها كعب جميعا وعامر

---

(١) كعب بن مالك : هو كعب بن مالك بن أبى كعب ، من بنى سلمة (بفتح السين وكسر اللام) وهو من الخزرج . ولد بيثرب نحو عام ٢٥ ق . هـ (٥٩٨ م) وشهد بيعة العقبة وهو ابن خمس وعشرين مع قومه ،ودخل الإسلام معهم ، وقد شهد جميع الغزوات مع الرسول (ص) إلا بدرا وتبوك . وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم حيث كان أحد ثلاثة تخلفوا عن تبوك هو وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع فتاب الله عليهم كما جاء فى سورة براءة (التوبة) الآية ١١٨ ، ويروى أن القوم قالوا فى ذلك : لو اعتذرت إلى رسول الله) ص (ببعض ما يعتذر به الناس ، عذرك قال : إنى لأصنعهم لسانا واقدرهم على ذلك ولكن والله لا اعتذر إليه بكذب وإن عذرنى ، فيطلعه الله عليه ، فيقال إن الله عز وجل أنزل فيه : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »(التوبة : ١١٩)

وكان من العثمانيين الذين يناصرون عثمان بن عفان ولذلك لم يشهد حروب على بن أبى طالب معه واعتزله . وهو محدث موثوق به ، يروى الأحاديث عن رسول الله (ص) . اما عن شاعريته ، فهو ذو أصل عريق فى الشعر ، فأبوه مالك شاعر ، وعمه قيس بن ابى كعب الذى شهد بدرا شاعر أيضا ، وابنه عبد الرحمن شاعر ، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر ، وهو من كبار الشعراء المخضرمين ، له شعر كثير جيد ، وخاصة فى الحماسة ووصف الحروب . وله ديوان شعر مطبوع حققه : سامى مكى العانى ، وطبعته مطبعة العانى ببغداد . وقد عمر كعب بن مالك وكف بصره فى آخر حياته وتوفى وسنه نحو السابعة والسبعين بين سنة ٥٠ هـ ، وسنة ٥٥ هـ . راجع الأغانى ٢٢٦/١٦ — ٢٤٠ نسخة مصورة عن دار الكتب ، وتاريخ الأدب العربى لعمر فروخ ٣٢٤/١ ، والإصابة فى تمييز الصحابة ٣٠٤/٨ ، وطبقات فحول الشعراء ٢٢٣/١ .

وفينـــــا رسول الله والأوس حـــــوله

له معقـــل منهـــم عزيز وناصـــر (١)

وجمــــع بنى النجـــلر تحت لوائــــه

يمشون فى المــاذى والنفــع ثائر (٢)

فلمـــا لقينـــــا هــم وكل مجـــاهد

لأصحابه مستبســـل النفس صــــابر

شـــهدنا بـــأن الله لا رب غـــيره

وأن رســـول الله بالحق ظـــاهر

وقــد عريت بيض خفـــاف كأنهـــا

مقـــابيس يزهيها لعينك شـــاهر (٣)

بهـــن أبــدنا جمعهـــم فتبـــددوا

وكان يلاقى الحين من هو فاجـــر

فكب أبـــو جهـــل صريعا لوجهـــه

وعتبــــة قد غادرنه وهو عاثر (٤)

وشـــيبة والتيمى غــادرن فى الوغى

وما منهمـــو إلا بذى العرش كافر (٥)

فأمســـوا وقــود النـــار فى مستقرها

وكل كفور فى جهنـــم صـــائر

تلظى عليهم ، وهى قد شب حميهـا

بزبر الحديد والحجـــارة ســـاجر (٦)

---

(١) المعقل : الموضع الممتنع كالخندق وغيره .

(٢) ويروى : « يميسون » والميس : التبختر والاختيـال . الماذى : الدروع البيض اللينة . النقع : الغبـار .

(٣) مقابيس : المقباس : الشعلة من النار ، وكذا القبس (بفتحتين). يزهيها : يستخفها ويحركها .

(٤) العاثر : الساقط . ويروى (عافر) وهو الذى لصق بالعفـر وهو التراب .

(٥) التيمى : لعله يقصد عمير بن عثمان بن عمر التيمى وقــد قتلــه على بن أبى طالب ، ويقال عبد الرحمن بن عوف .

(٦) زبر الحديد : ــ هو بفتح الباء وسكن هنـا لضرورة الشعر ــ قطعه . ساجر . موقد .راجع الروض الأنف ٣٠٥/٥ .

وكان رســـول الله قــد قال أقبلوا
فولوا وقـــالوا : إنما أنت ســـاحر

لأمــــر أراد الله أن يهلكـــوا بـــه
وليس لأمر حمــه الله زاجــــر (1)

مع الشاعرين :

هاتان قصيدتان قيلتا حول أحداث بدر وما نتج عنها ، وهمـا لشاعرين من أشهر الشعراء فى العصر الإسلامى ، فضرار بن فهر كما يقول الزبير عنه : ليس فى قريش أشعر منه ، وقد اشتهر بإقذاعه فى هجاء المسلمين قبل إسلامه • أما كعب بن مالك فهو الصحــابى الجليل الذى شهد معظم الوقائع الإسلامية ومن أسرة شـــاعرة ، وديوانه الذى وصل إلينا يشهد بشاعريتــه وتفوقه فى ذلك الفن • ولذلك فنحن أمام ملحمتين ، أو قل أمام خصمين عنيدين ، يمتــلك كل منهما ناصيـــة البيان ، والقول الرائع • وقد صاغ الشاعران قصيدتيهما على بحر الطويل والتزما رويا واحدا هو الراء المضمومة التى تتطلب امتداد الصوت ورفعه مما يناسب الموقف الذى يتحدثان عنه • وقد تقاربت أبيات الشاعرين عددا ، فأبيات ضرار خمســـة عشر بيتا ، بينما بلغت أبيات كعب ستة عشر بيتا •

ونعود إلى ما ذكره صاحب كتاب الاكتفــاء من أن الأظهر من مقتضى الشعر أن ضرارا هو الذى أجاب كعبا ونقض عليه لنؤكد هذا الرأى ونرجحه ، حيث نرى قصيدة كعب بن مالك تتجه إلى تأكيــد نصر الله لرسوله وقدرته القادرة التى لا تقهر ، موضـــحا أنه على الرغم من استعداد قريش الكامل لهذه المعركة والتخطيط المسبق لها حيث حشــدوا واستنفروا جموعهم وأعوانهم الكثيرة ، وساروا فى

---

(1) حمة الله : قدره . راجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ١٤/٢ ، والروض الأنف ٣٢٢/٥ ، والبداية والنهاية ٣٣٥/٣ ، والاكتفاء ٧٠/٢ ويذكر صاحب الاكتفاء أن الأظهر من مقتضى الشعر أن ضرارا هو الذى أجاب كعب بن مالك ونقض عليه ، والسيرة النبوية ١١/٣ .

ثقة من قوتهم إلى لقاء المسلمين قاصدين إليهم ، فإن الله منع رسوله بقوة أعظم وذلك بتأييده أولا ، والتفاف المسلمين ومن بينهم الأوس وبنو النجار من حوله ثانيا فأيد الله بهم رسوله وكانوا عونا عظيما له ، حيث أقبلوا بجمعهم يؤيدون رسولهم ويحملون أسلحتهم فى ثقة وصبر عظيمين ، رافعين شعار الإيمان الراسخ بأنه لا رب غير الله، وأن محمدا رسول الله فدفعهم ذلك إلى الاستبسال أمام طواغيت الكفر فأعملوا سيوفهم التى تحولت فى أيديهم إلى لهب يقذفون به أعداءهم فأبادوهم ، وقضوا على جموعهم ، حتى غدا زعماؤهم وقودا لنار حامية يصلونها أبد الآبدين ، وما ذلك إلا نتيجة طبعية ، وجزاء عادلا لأهل الكفر والعناد الذين رفضوا دعوة محمد واتهموه بالسحر والضلال .

وقد بنى ضرار معانيه على ما جاء فى قصيدة كعب حيث وجدناه يرد على كعب منذ بداية الأبيات ، فيتعجب من نشوة الأوس وفخرهم بما حققه المسلمون فى تلك المعركة موضحا أنه إذا كانت الدائرة عليهم اليوم فالحين دائر عليكم غدا ، وإذا كان رجال منهم قد قتلوا فى تلك المعركة فإنهم سيقتصون لهم ويثأرون لقتلهم ، أو يقتلون مثلهم فى سبيل ذلك وستحملهم اليكم الخيل العتاق لتلقى بهم بينكم فيثخنونكم بالقتل والجراح وبذلك تشفى صدورهم ، وليتأكد من ذلك الأوس وبنو النجار الذين اتخذوا من هذا النصر منطلقا لزهوهم وفخارهم ، فإنهم هدفنا فى المقام الأول ، وهم أصحاب ثأرنا الذين سنقتص منهم حتى نتركهم صرعى تتجمع الطير حول جثثهم وتنهش جسومهم ، فتنوح عليهم النائحات من أهل يثرب فى ليل متصل ، خاصم النوم فيه أجفانهن فبقين ساهرات يندبن قتلاهن فقد شهدت الأيام بما لنا من فروسية وشجاعة ولما لنا من حروب متصلة مازالت سيوفنا تقطر منها الدماء ، وإذا كنتم قد انتصرتم علينا فى بدر فإن ذلك مرجعه إلى حظكم العظيم الذى جعل محمدا قائدا وزعيما لكم وضم بين صفوف جنده أخيار القوم وعليتهم ممن انضووا تحت لوائه ، وقاموا يدافعون عنه غير مبالين بالموت الذى يحيط بهم

أمثال أبى بكر وحمزة وعلى وعمر وعثمان وسعد بن أبى وقاص ،هؤلاء الصفوة لا يوجد لهم نظير فى الأوس أو بنى النجار ولا يرقى أحـد فيهما إلى مثل مكانة هؤلاء العظماء الذين هم من أعظم الناس نسبـا ومجدا ، فهم أبناء قريش المشهود لها بين القبائل بالرفعـة والمكانة الرفيعة ، والتى عرفت بالبطولة والشجاعة فى ميادين القتال ، ولذلك فإننى أعجب من فخر الأوس وبنى النجار من انتصارهم علينـا لأن النصر فى حقيقته يرجع إلى أبناء لؤى بن غالب أصحاب الطعـان وأرباب النزال وأولو الفضل والمجد التليد ٠

فإذا ما حاولنا أن نتعرف على لغة الشاعرين فإننا نجدها اللغة الجزلة التى تحمل المعانى الجليلة فى وضوح وجلاء بعيدا عن التقعر أو التعقيد ، كما أنها تعكس عقيدة كل من الشاعرين وما يدينان به ٠ فضرار يتوعد الأوس والمسلمين بأن الدائرة عليهم فى الغد القريب ، ولا بد من الأخذ بالثأر من قاتلى رجالهم ، وإن كـان المسلمون قد حققوا النصر فإن ذلك راجع إلى أن فيهم الأماجد الشجعـان ممن ينتسبون إلى قريش وتربوا فى رحابها ٠ أما كعب فإنه يؤكد منـذ البداية أن الله قادر لا قاهر له ، وإذا افتخر فإنه يفتخر بما وقر فى القلب واستقر فى الوجدان من إيمان وعقيدة بوحدانيـة الله الذى لا شريك له ، وأن محمدا رسول الله حقا ، ثم يعـزى ذلك النصر العظيم إلى ذلك الاعتقاد الذى دفع بالمسلمين إلى الاستبسال والدفاع عن عقيدتهم حتى تمكنوا من أعداء الله وأذلوا كبرياءهم ٠

٨ — فى أعقاب بدر — غزوة السويق

أعقب بدرا الكبرى بعض السرايا والغزوات التى خرج فيهـا رسول الله (ص) بنفسه ولكنه عاد منها — ولم يلق كيدا — إلى المدينة. منها غزوة بنى سليم بالكدر . فقد ذكر ابن إسحق أن رسول الله (ص) لم يقم بالمدينة بعد عودته إليها من معركة بدر فى أول شوال من السنة الثانية للهجرة سوى سبع ليال ثم غزا بنفسه بنى سليم ، فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر — بضم فسكون — فأقام عليه ثلاث ليال ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا . فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وأفدى فى إقامته تلك جل الأسارى من قريش [1] ومنها غزوة السويق، وكانت فى ذى الحجة من السنة نفسها . وكان أبو سفيان بن حرب، قد حلف بعد عودته إلى مكة ، ورجـع فل قريش من بدر ، ألا يمس رأسه ماء من جنابه [2] حتى يغزو محمدا (ص) ، ولذلك خرج فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه ثم أخذ يحاول تجميع العرب واليهود ضد محمد ثم بعث رجالا من قريش إلى المدينة فأتوا ناحية منهـا يقال لها : العريض — بضم ففتح — فحرقوا فى مجموعة من نخـل بها ، ووجدوا بها رجلا من الأنصار وحليفا له فى حرث لهما فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين ، فخرج إليهم رسول الله (ص) حتى بلغ قرقرة الكدر [3] ثم انصرف راجعا ، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه ، وقد رأوا أزوادا من أزواد القوم قد طرحوها فى الحرث يتخففون منهـاء للنجاء — للسرعة — ولذلك سميت غزوة السويق لأن أكثر ما طرح

---

(١) راجـع السيرة النبوية لابن هشام ٣/٤٤ ، والروض الانف ٥/٣٨٨ ، وسيرة النبى ٢/٥٥٨ .

(٢) ذكر السهيلى أن الغسل من الجنـابة كان معمولا به فى الجاهلية بقية من دين ابراهيم واسماعيل ، كما بقى معهم الحج والنكاح . راجع الروض الأنف ٥/٤٠٥ .

(٣) قرقرة الكدر : قرقرة : ارض ملساء ، الكدر — بضم فسكون — طير فى الوانها كدرة ، عرف بها ذلك الموضع وهو على بعد ثمانيـة برد من المدينة ناحية المعدن . راجع معجم البلدان .

القوم مظ أزوادهم السويق(1) — كما قال ابن هشام — فهجم المسلمون على سويق كثير (2) فقال أبو سفيان وهو يتجهز غازيا من مكة إلى المدينـــة :

كـــروا على يثـــرب وجمعهـــم
فــإن مــا جمعـــوا لكــم نفــل

إن يــك يــوم القليب كــان لهــم
فــإن مــا بعـــده لــكــم دول

والـــلات (3) لا أقرب النســـاء ولا
يمس رأسى وجلـــدى الغســـل

حتى تبيـــدوا قبـــائل الأوس والـــ
خـــزرج إن الفـــؤاد مشتعـــل (4)

فأجابه كعب بن مالك :

يـــا لهـــف أم المتجعيـــن (5) على
جيش ابن حرب فى الحرة الفشـــل

إذ يطرحون الرحال من نســـم الطيـ
ـر ترقـــوا بقيـــة الجبـــل (6)

(1) السويق : طحين الحنطة او الشعير ، وقد تمزج باللبن والعسل والسمن ، أو بالماء ليتخذها المسافر زادا له .

(2) راجع : الســـيرة النبوية لابن هشام ٣/٤٥ ، والروض والأنف ٥/٣٩٠ ، وسيرة النبى ٢/٥٥٩ .

(3) رواها صـــاحب الكامل : « آليت » .

(4) وردت بالفعل المضارع « يشتغل » فى الكامل ٢/٩٨

(5) رواها ابن الأثير : « المســـبحين » ، ورواها الروض الأنف « المستحين » وهو الأقرب للمعنى والوزن .

(6) هذا البيت لم يذكره صاحب الروض الأنف ، وروى ابن الأثير « شيم بدلا من نسم » وأورد الشطر الثانى كهذا : « — يرقى لقنة الجبل » والرحال : ما يستصحب من الأثاث .

جـــاءوا بجمـــع لو قيـــس منزله
لـم يـك إلا كمعـرس الدؤل [1]

وقفـــة أدبيـــة :

أبيات كل من الشاعرين واضحة لا خفاء فيها ولا غموض ، جمع بينها الوزن والقافية واتفقا فى حرف الروى ، وإذا كان أبو سفيان قد حاول فى أبياته الأربعة أن يظهر رباطة جأشه وتماسكه أمام ما حدث له ولقومه فى بدر ، داعيا قومه إلى التجمع السريع لملاقاة محمـد وأتباعه ، حتى يثأروا منهم ، فإنه أكد على تقلب الأيام وعدم صيرورتها على ديدن واحد ، موضحا أنه إذا كان محمد قد حقق نصرا اليوم فى بدر فإن الأيام القادمة ستكون له ولقومه ، وسيظهرون عليه وينالون منه • فالأيام دول • إلا أننا نلاحظ حقده وكراهيته الدفينة للأوس والخزرج ولذلك فهو لا يدعو لقتال محمد من أجل النصرة عليه وحدها ، بل بهدف القضاء على أولئك الذين كانوا سببـا فى ذلك النصر وهم الأوس والخزرج مما أوغر صدره عليهم وملأه حقدا وكراهية لهم ، وتعبيره « إن الفؤاد مشتعل » يصور هذا العداء تصويرا دقيقا •

أما كعب بن مالك فإنه فى أسلوب تهكمى لاذع يسخر من أبى

---

(1) روى ابن الأثير بجيش بدلا من « بجمع » ، و « ببركه » مكان « منزله » ، وروى الشطر الثانى هكذا : « ما كان إلا كمفحص الدئل » وقد أورد صاحب الكامل بعد الأبيات السابقة البيت التالى :

عار من النصر والثراء … أبطال أهل البطحاء والأســن

المعرس : مكان القوم ينزلون فيه بالليل . والأشهر فيه معرس ـــ بضم الميم وراء مفتوحة مشددة ـــ . الدؤل : جاء فى اللســان : الدئل بضم الدال وهمزة مكسورة دويبة شبيهة بابن عرس ، ولا يوجد اســم على وزن « فعــل » ـــ بضــم فكسر ـــ سوى الدئل ورئم ، وقال فى القاموس : وقد تضم الهمزة فيكون الرسم بالواو ـــ كما هنا ـــ وتشبيه الجمع أو الجيش فى ما نزوله إلى المكان الذى اجتمعوا فيه بمعرس الدئل لوصفه بالقلة والحقارة والمعنى : لو قدر مكان القوم عند تعريسهم كان كمكان هذه الدابة عند تعريسها .

راجع المقطوعتين فى : الســير والمغازى لابن إسحق ص ٣١١ ـــ تحقيق سهيل ذكار ـــ دار الفكر الطبعـــة الأولى ســـنة ١٩٧٨ م . ، والروض الأنف ٤٢٨/١ ، والكامل ٩٨/٢ .

سفيان ويحقر صنيعه وما كان منه من تحريض القوم ضد رسول الله (ص) وخروجه مع من استجاب له مستوفزا خائفا ، فإذا به جبـــان رعديد يقوم بهجمة سريعة يحرق بعض النخيل ويقتل نفرا من الآمنين ثم يفر مسرعا هو وقومه ، وقد اعتراهم الذهول وشملهـــم الخوف عندما علموا بخروج الرسول (ص) إليهم فيسرعون بإلقاء أحمالهـــم وزادهم لا يلوون على شيء ولا يفكرون في أمر ، ســــوى الهرب والفرار قبل أن يلحق بهم محمد وأتباعه ٠ وهو في تشبيهه لهم عند نزولهم ليلا بالمكان الذى اجتمعوا فيه بالدويبة الحقيرة — الدئل — عند نزولها منزلها إنما يصف جمعهم بالحقارة والقلة ويسجل الاستهانة بهم والغض من شأنهم ٠

الفصــل الثالث

النقائض فى معركة أحــد

تمهيــــــد :

اجتمعت قريش لحرب رسول الله (ص) بعد أن أصيبت ببدر ، وألقى بقتلاهم فى القليب ، فخرجت بحدها وجدها ، وحـــــديدها وأحابيشها — أنصارها — ومن تابعها من كنانة وأهل تهامة ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع ، وكان أبو سفيان بن حرب قائدهم ، ترافقه زوجه هند بنت عتبة ، كما خرج سائر أشراف قريش بنسائهم ، إثارة للحفيظة ، وحفزا للهمم ، وتثبيتا لهم فى القتـــال وألا يفروا •

وبعد أن استشار الرسول (ص) أصحابه ، خرج إليهم وقد جعل أحدا وراء ظهره مستقبلا المدينة فى ألف من أصحابه ، حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس ممن اتبعه من أهل النفاق ، وبقى رسول الله (ص) فى سبعمائة من أصحابه •

وكانت أحد يوم السبت النصف من شوال من السنة الثالثـــــة للهجرة [1] • وقد رافق الشعر هذه المعركة منذ البداية حتى نهايتها، يحرض على القتال ، ويستثير الهمم ، ويدعو للنزال والصمود ، فكان أحد الأسلحة الماضية فى هذا اللقاء ، وبعد المعركة أيضا ، حيث أخذ الشعراء يرثون القتلى ، ويعرضون بأعدائهم ، وينقــدون المواقف ، ويظهرون المعايب والمثالب ، وينال كل فريق من خصــــومه • فكانت

---

(1) هذا قول ابن إسحق ، وقال قتادة كانت يوم السبت الحــادى عشر من شوال . راجع السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٠٠ ، والبداية والنهـــاية ٣/٩ .

أشعار هذه الموقعة فيضا غزيرا ، وكما هائلا من الفن الشعرى الراقى ، النابض بالعاطفة ، الزاخر بالمعانى ، المصور للأحداث وللمشاعر فى دقة وبراعة فائقين • وكان نصيب النقائض — موضوع هذه الدراسة — من ذلك الفيض الشعرى ثمانى لوحات فنية عرضت لأهم أحداث هذه الملحمة ، وسجلت الصراعات العقائدية والفكرية التى جعلت من هذا اللقاء لقاء شرسا ضاريا ، ارتفعت حرارته إلى درجة تشبه غليان المرجل الذى احتوته النار ، فثار ما فى داخله حتى تحول إلى لهيب يقذف بالحمم ، وفوران يلتهم كل ما وصل إليه • وسنعرض لهـــذه المواقف الثمانية ، ونتناول ما صورته من أحداث ، وما عرضت له من مواقف ، وما تميزت به من إبداع فنى •

١ ـ حنظلة الغسيل وأبو سفيان

لما اشتدت معركة أحد التقى حنظلة بن أبى عامر الغسيل [١] بأبى سفيان بن حرب ، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود ـ وهو ابن شعوب ـ فضربه شداد فقتله [٢] . وقال فى قتله حنظلة :

لأحمين صـــاحبى ونفسى   بطعنة مثل شعاع الشمس

وقال أبو سفيان بن حرب يذكر صبره فى ذلك اليوم ، ومعاونة ابن شعوب إياه على حنظلة :

ولــو شـــئت نجتنـى طمـــرة
ولم أحمــل النعمــاء لابن شعوب [٣]
وما زال مهــرى مزجــر الكلب منهمــو
لدن غـــدوة حتى دنت لغروب [٤]
أقاتلهـــم وأدعــى يــا لغـــالب
وأدفعهـــم عنى بركــن صليب [٥]

---

(١) اسمه عمرو ، وقيل عبد عمرو بن صيفى ، وسمى الغسيل لأنه لمـا قتل ، قال رسول الله (ص) :

إن صاحبكم تغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شـأنه ؟ . فسـئلت صاحبته عنه ،فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهائعة ـ الصيحة ـ فقال رسول الله (ص) لذلك غسلته الملائكة ، قال الواقدى : هى جميلة بنت أبى بن سلول ، وكانت عروسا ابتنى بها تلك الليلة .

راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٧٥/٢ ، والبداية والنهـاية ٢١/٤ ، والروض والأنف ٤٣٦/٥ .

(٢) راجع : ديوان حسان بن ثابت ص ٣٧٢ .

(٣) طمرة : فرس سريعة الوثب .

(٤) مزجر الكلب : يريد أنه لم يبعـد منهم إلا بمقدار الموضع الذى يزجر الكلب فيه ، أى أنه قريب . دنت لغروب : أى الشمس . وقـد أضمرها ولم يتقدم ذكرها ، لأن الغدوة دلت عليها .

(٥) الركن : الجانب الأقوى من الشىء . الصليب : المتين .

فبـــكى ولا ترعى مقـــالة عـــاذل
ولا تســـأمى من عبـــرة ونحيب

أبـــاك وإخـــوانا له قد تتابعـــوا
وحق لهـــم مـــن عبـــرة بنصيب

وسلى الذين قد كان فى النفس أننى
قتلت من النجـــار كـــل نجيب

ومن هاشـــم قرما كريما ومصعبـــا
وكان لدى الهيجـــاء غير هيـــوب (١)

ولو أننى لم أشف نفسى منهمـــو
لكانت شجا فى القلب ذات ندوب (٢)

فآبوا وقد أودى الجلابيب منهمـــو
بهـــم خـــدب من معطب وكئيب (٣)

أصابهـــمو من لم يكن لدمائهـــم
كفـــاء ، ولا فى خطـــة بضريب (٤)

ـ ذكرت القروم الصيد من آل هاشم ـ

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

---

(١) القرم : فى الأصل هو الفحل الكريم من الإبل ، والمقصـــود به هنا حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وقد قتله وحشى الحبشى مولى جبير بن مطعم بن عدى . المصعب : الفحل من الإبل ، والمقصود به هنا : مصعب بن عمير ، وقد أخذ يقاتل دون الرسول (ص) حتى قتله ابن قميئـــة الليثى .

(٢) شجا : حزنا . الندوب : آثار الجروح ، الواحد : ندب .

(٣) جلابيب : جمـــع جلبـــاب ، وهو هنـــا الإزار الخشن ، وكان مشركو مكة يسمون من أسلم مع محمد . الجلابيب ، يلقبونهـــم بذلك ، فيكون المراد بها هنـــا : جماعات المســـلمين . خدب : طعن نافذ إلى الجوف . المعطب : قال أبو ذر : المعطب : الذى يسيل دمه . الكئيب : الحزين ، ويروى « كبيب » أى قد كب على وجهه .

(٤) الخطة : المراد هنا : الخصلة الرفيعة . الضريب : الشبيه . راجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٧٥/٢ ، والبداية والنهاية ٢١/٤ ، والكامل لابن الأثير ١١٠/٢ ، والروض الأنف ٤٣٧/٥ ومـــا بعدها ، والسيرة النبوية ٨٠/٣ ، وسيرة النبى ٥٩٤/٣ .

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم
ولست لزور قلته بمصيب (١)
أتعجب أن أقصدت حمزة منهمو
نجيبا وقد سميته بنجيب (٢)
ألم يقتلوا عمرا وعتبة وابنه
وشيبة والحجاج وابن حبيب (٣)
غداة دعا العاصى عليا فراعه
بضربة عضب بله بخضيب (٤)

وقال الحارث بن هشام يجيب أبا سفيان :

جزيتهمو يوما ببدر كمثله
على سابح ذى ميعة وشبيب (٥)
لدى صحن بدر أو أقمت نوائحا
عليك ولم تحفل مصاب حبيب

---

(١) القروم الصيد : اى الملوك المتكبرين .

(٢) أقصده : رماه فأصابه .

(٣) عمرو : هو ابو جهل : اما الحجاج ، فإن ممن قتل فى بدر : سهم ابن منبه بن الحجاج ، وابنه العاص بن منبه بن الحجاج ، ونبيه بن الحجاج ابن عامر ، وذكر ابن هشام ايضا : الحارث بن منبه بن الحجاج ، فلعله يقصد آل الحجاج ، أو واحدا من هؤلاء . راجع الروض الأنف ٣٠٧/٥ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٧١٣/١ ، ٧١٥ .

(٤) العاصى : يقصد به عتبة بن ربيعة ، وكان هو واخوه شيبة وابنه الوليد قد خرجوا فى بداية بدر يدعون المسلمين للخروج إلى مبارزتهم فأخرج لهم الرسول (ص) حمزة وعليا وعبيدة بن الحارث ، فقتل على الوليد ، وقتل حمزة شيبة ، واجتمع الثلاثة على عتبة فقتله حمزة وعلى . راجع السيرة النبوية لابن هشام ٦٢٥/١ ، وراجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٧٢/٢ ، والبداية والنهاية ٢٢/٤ ، والكامل لابن الأثير ١١١/٢ ، والروض الأنف ٤٣٨/٥ ، وديوان حسان بن ثابت ص ٣٧٢ .

(٥) السابح : الفرس الشديد السرعة حتى كأنه يسبح فى جريه . الميعة : الخفة والنشاط . والشبيب : اى شباب ، وهو أن يرفع الفرس يديه جميعا ، ويروى « سبيب » بالسين المهملة ، والسبيب : شعر ناصية الفرس .

وإنك لو عانيت ما كان منهمو
لأبت بقلب ما بقيت نخيب (١)

قال ابن هشام : وإنما أجاب الحارث بن هشام أبا سفيان لأنه ظن أنه عرض به فى قوله : « وما زال مهرى مزجر الكلب منهمو » ، وذلك لأن الحارث فر يوم بدر (٢) كما أوضحنا ذلك فى أحداث بدر .

وقال ابن شعوب يذكر يده عند أبى سفيان فيما دفع عنه :

ولولا دفاعى يا بن حرب ومشهدى
لألفيت يوم النعف غير مجيب (٣)

ولولا مكرى المهر بالنعف قرقرت
ضباع عليه أو ضراء كليب (٤)

الرؤيا الفنيـــة :

١ ـ هذه مساجلات أربع ، تعرض علينا جانبا من الصراع المتلاحق فى موقعة من أشهر المواقع الحربية فى الإسلام وترسم فى إطارها العام لوحة فنية تنبض بالحياة ، وتتدفق بالمشاعر والأحاسيس الملتهبة ، بل وتقذف بالحمم فى وجه الخصم ، وتطعنه طعنات نافذة ، فأبو سفيان بن حرب وإن سجل لنفسه صموده وثباته فى المعركة ، مع تهيؤ الفرصة للفرار والبعد عن أخطار ذلك اللقاء ، فإنه يؤكد شجاعته وصموده مقاتلا ومنافحا طول اليوم ، مطارد الخصومه، مناديا آل غالب أن يتذكروا الثأر الذى بينهم ، وأن يبكوا طويلا وينتحبوا على ما نزل بهم من قتل ، وإزهاق عظيم للأرواح ، حيث اشتفت نفسه من أولئك الذين صرعوا وقتلوا ، واستقرت بلابله بقتل

---

(١) آب : رجع . النخيب : الجبان الفزع . وراجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٢/٧٧ .
(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام ٢/٧٧ ، والروض الأنف ٥/٤٣٩
(٣) النعف : أسفل الجبل .
(٤) قرقرت : أسرعت وخفت لأكله . الضراء : الضارية المتعودة الصيد أو أكل لحوم الناس . كليب : اسم لجماعة الكلاب . راجع السيرة النبوية لابن هشام ٣/٧٧ ، والبداية والنهاية ٤/٢١ .

أولئك النجباء الأخيار من بنى النجار ومن بنى هاشم الأكرمين ، وفى مقدمتهم حمزة بن عبد المطلب الذى فعل بهم الأفاعيل يوم بدر،وأنزل بهم فى ذلك اللقاء البطولى القتل والهزيمة النكراء ، ومصعب بن عمير البطل المقدام [1] • ثم يوضح أنه لم يكن يستقر له بال ، أو تهدأ له نفس إلا بمثل ذلك الذى حدث فى هذا اليوم ، وإلا لاستحالتحياته كلها ألما وقتامة ، وعارا يطارده مدى الحياة ، فهو سعيد بهذا اللقــاء الذى تحقق له فيه قتل أبطال المسلمين ، وذوى المكانة الرفيعــة فى قريش ، ممن ناصروا محمدا وانضووا تحت لوائه ، ثم عودة أولئك الجلابيب من أتباع محمد بجروحهم الدامية ، وطعناتهــم النافذة ، وحزنهم الكئيب الذى احتواهم ولفهم •

ولذلك نجد حسان بن ثابت يسارع إلى إطفاء جذوة نشوة أبى سفيان ، ويدفع بالشجى والألم إلى قلبه مؤكدا له أن ما ســجله من مكانة رفيعة لقتلى المسلمين من آل هاشم إنما هو حق لا تزيد فيه ، ولكن لماذا يتيه فخرا واختيالا بقتل حمزة وينسى ما أصاب علية قومه أمثال أبى جهل ، وعتبة ، وأخيه شيبة ، وابنه الوليد ، والحجاج وابن حبيب ممن صرعوا وقتلوا وألقى بهم فى القليب فى الأمس القريب• فإذا كان حمزة البطل قد قتل بيد آثمة ، فلا يجب أن يغيب عنك ماكان من أمر عتبة المتغطرس الذى خرج يتحدى وينادى بالنزال والمبارزة يوم بدر ، فخرج إليه على بن أبى طالب البطل المقدام ، وأطاحبرقبته بضربة سيفه البتار ، وما زال على بين الصفوف ، وفى مقدة الأبطال يفزعكم سماع اسمه ، ويقلق راحتكم بأسه وبسالته •

أما الحارث بن هشام ، وهو من حزب أبى سفيان وأنصاره ، فإنه يشيد بذلك اللقاء الرادع الذى انتصف فيه أهل الشرك والنفاق لأنفسهم ، واقتصوا من أعدائهم ، مؤكدا صدق فراسته ، وبعد نظره عندما فر من بدر أملا فى أن تسنح الفرصة ليقتص لقومه ، ويثأر من

---

(1) قتله ابن قميئة الليثى بعد أن قاتل دون الرسول (ص) وكان ابن قميئــة يظنه النبى (ص) .

خصومه ، وها هو اليوم تتهيأ له سبل الانتقام ، فينزل بخصومه مثل ما أنزلوا بقومه فى بدر ، يعينه على تحقيق هدفه فرس خفيف الحركة، سريع الانقضاض ، فى اكتمال قوته وشبابه ، وهو بذلك لم يعد فى حاجة لأن يدفع عن نفسه تهمة التخلى عن قومه فى بدر،وفراره عنهم، ولا يصح من أبى سفيان أن يعرض به فى قوله : « وما زال مهرى مزجر الكلب منهمو ••• » لأنه إنما فر أملا فى ترقب مثل ذلك اليوم، وقد تحقق له ما فكر فيه فعلا ، حيث نجا من أحداث بدر المروعة،التى لو شهدها أبو سفيان وعاين أحداثها لكان أسرع الناس فرارا،وأشدهم هلعا وفزعا (1) •

وفى خضم هذا الصراع الأدبى يأتينا صوت ابن شعوب يزهو ويفتخر بصنيعه ، ويده على أبى سفيان ، التى كانت سبب نجاته من هلاك محقق ، فيقول له : لولا نجدتى لك ، ومسارعتى فى توجيه الضربة القاضية إلى حنظلة الذى اعتلاك وتمكن من رقبتك يوم أحد ، لكنت فى ذلك اليوم جثة هامدة لا تجيب نداء ، أو تسمع لقول • ولولا سرعة فرسى ومبادرتى إليك فى سرعة خاطفة لكنت حينذاك طعاما سائغا للوحوش والسباع الضارية ، أو مجموعة من الكلاب تنهش لحمك ، وتفتك بعظامك • فأنت مدين لى بحياتك ووجودك •

٢ ــ إنها ملحمة اختصام الرأى ، واختلاف النوازع والأهواء ، وتصارع المذاهب والأفكار ، صيغت على بحر الطويل وقافية تستدعى امتداد الصوت وانطلاقه• فحرف الروى باء مكسورة بعد ياء من قبلها كسرة مما يوفر للقول شدة الوقع وقوة الأسر ويعكس إضطرام هذه المواقف التى تموج غضبا وحقدا ، مما طبع هذه الأعمال الأدبية بالجودة الفنية ، وأضفى عليها كثيرا من روعة العمل الجاد • حيث يشعر القارىء لهذه الأبيات وكأنه فى معركة تصول فيها الألفاظ وتجول ، وتتصارع المعانى والأفكار ، كما يصول الفرسان الأكفاء ويجولون فى أشد المعارك وأشرسها • كما اعتمدت الأبيات فى

---

(1) كان أبو سفيان بن حرب قد تخلف عن بدر ولم يشهدها •

النصوص الأربعة على تسجيل الحقائق التى لا اختلاف فيها لرأى ، ولا جدال حولها . فأبو سفيان يبذل جهده فى معركة ثأرية ، يتشفى فيها من أعدائه وما يراه نازلا بخصومه من هزيمة وقتـــل لقوادهم وشجعانهم الذين هم من أكارم القوم وسادتهم ، وأن ما حل بالمسلمين فى تلك الموقعة كان أملا وحلما غاليا لأبى سفيان وقد تحققت له به السعادة التى غسلت همومه وأحزانه . وأبرأت أتراحـــه وآلامه . أما حسان فإنه يسجل لأبى سفيان التزام الحقيقة فيما ذكر من أصالة نسب قتلى بنى هاشم ، والإشادة ببطولتهم وبسالتهم ، فإن هذه حقائق ثابتة لا إنكار فيها . وإذا كان حمزة قد قتل غدرا وغيلة فإن عتبة وآله ومن رافقه قد طلبوا المبارزة والنزال ،فخرج إليهم الشجعان الأشاوس من المسلمين ، فأغمدوا السيوف فى نحورهم ، وأزهقــوا أرواحهم المتمردة فى مواجهة ومباغتة وبطولة رائدة .

والحارث بن هشام تمتلىء رئتاه هواء نقيا بعد ما حرم منه زمنا، ويرفع رأسه بعد ذلة وانكسار أدمت قلبه وطعنت كبرياءه ، بعد فراره من بدر ، وها هو اليوم يتيه فخرا بذلك الفرار الذى مكنـــه من الثأر والاقتصاص لأحداث بدر المروعة والتى أذهلته وأذهلت من شاهدها وعايش أحداثها .

ويأتى ابن شعوب ليسجل فضله ونعمته الكبرى على أبى سفيان، حيث كانت نجاته من موت محقق على يديه ، فلولاه لأجهز عليه حنظلة وصيره طعاما سائغا للوحوش وأكلة لحوم البشر .

ولما كان هدف الشعراء الأربعة تسجيل الحقائق وعرض أحاسيسهم ومشاعرهم فى صدق فنى فإن الأبيات قد جاءت نابضـــة بالحركة ، مفعمة بالعواطف ، مصورة لخوالج النفوس ، ونبضــــات القلوب ، وكانت الألفاظ بعيدة عن التعقيد أو التقعر والخشونة ، كما خلت من الخيالات والتهويمات المجنحة ، مما أضفى على تلك النصوص الروعة، والجودة الفنية ، فكان ذلك كله دلائل وصدق على تمكن الشعراء من أدوات فنهم ، وقدرتهم على الإبداع الفنى .

٢ ـــ نحن جزيناكم بيوم بدر

كانت أحد معركة الثأر لمشركى قريش ، ولذلك جهد الجميع فى الإعداد لها ، وتوفير كافة عوامل التفوق والنصر لهذا اللقاء الحاسم فوجدنا سادة قريش ترافقهم زوجاتهم ، اللاتى يمثلن شرف الرجـــل وكرامته ، فهم بهذه الرفقة يقولون لأنفسهم لا فرار ، ولا تقـــاعس أو خذلانا ، حيث يكون الفرار على هذه الحال طعنة نجـــلاء تصيب الكرامة ، وتدمى الشرف ، إذ يترك الرجل زوجتـــــه للسبى والأسر وانتهاك الأعراض ، مما يتنافى مع خلق الإنسان العـــــربى وإبائه وما نشأ عليه من محامد ، كما بذل البعض الوعود البراقة لعبيدهم إن هم حققوا لهم ما يشفى صدورهم ، ويثأر لكرامتهم فى تلك المعركة ، كالذى حدث من مطعم بن جبير الذى طلب من غلامه وحشى الحبشى ـــ وكان قناصا ماهرا قلما تخطىء حربته ـــ أن يخرج مع القوم ليثأر له من حمزة قاتل عمه « طعيمة بن عدى » قائلا له : إن قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق ، ثم إن هندا [1] بنت عتبة كانت كلما مرت بوحشى أو مر بها قالت له : ويها أبا دسمه [2] اشف واشتف ، تحثه بذلك على قتل حمزة لأنه قتل أباها عتبة يوم بدر ،فكان

---

(١) هند بنت عتبة : هى هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ـــ زوج أبى سفيان بن حرب ، وأم الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان ، تزوجت أباه بعد مفارقتها لزوجها الأول « الفاكه بن المغيرة المخزومى » وكانت فصيحة جريئة صاحبة رأى وحزم وأنفة ، تقول الشعر الجيد ، وأكثر ما عرف من شعرها مراثيها لقتلى بدر من مشركى قريش قبل أن تسلم وكانت ممن أهدر النبى « صلى الله عليه وسلم » دماءهـــم يوم فتح مكة ، وأمر بقتلهم لو وجدوا تحت أستار الكعبة وكان لها صنم فى بيتها تعبده وجاءت النبى « صلى الله عليه وسلم » فى نسوة يوم فتـــح مكة ، وهو على الصفا يبايعن على الإسلام ، فأعلنت إسلامها . شهدت اليرموك ، وحرضت على قتال الروم ، توفيت فى خلافة عمر بن الخطاب فى اليوم الذى مات فيه أبو قحافة والد أبى بكر الصديق عام ١٤ هـ وقيـــل إنها بقيت إلى خلافة عثمان . راجع الروض الأنف ١٣٩/٧ ، والســـيرة النبوية لابن هشام ٦٢/٢ ، ٦٨ ، والاكتفاء ١٣٣/٢ ، والإصابة فى تمييز الصحابة ١٦٥/١٣ ، وأسد الغابة ... ٢٩٢/١٧ .

(٢) ويهـــا : كلمة للتحريض والتشجيع . أبو دسمة : كنية وحشى . راجع الروض الأنف ٤٢١/٥ .

وحشى يرقب تحركات حمزة حتى إذا تهيأت الفرصة له دفع حربتـــه إلى سيد الشهداء (١) فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه ، ولم تكن له بغيرة حاجة ، إنما قتله ليعتق • كما تابعت النسوة الفرسان والمحاربين يحرضنهم على القتال ، ويثرن حميتهم ، ضـــاربات على الدفوف خلفهم وكان مما قالته هند بنت عتبة فى ذلك :

ويهـــا بنى عبد الدار ويهـــــا حمـــاة الأدبار
ضربا بكل بتـــــار

كما أخذت تردد :

إن تقبـــــلوا نعـــانق ونفـــــرش النمـــــارق
أو تـــدبـــروا نفـــارق فـــــراق غير وامق (٢)

فلما انحسرت وقائع المعركة ، أخذت هنــــد مع النسوة يمثان بالقتلى من أصحاب رسول الله (ص) يجدعن الآذان والآنف ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خدما(٣) وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشيا ، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها ، فلمتستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم علت على صخـــرة مشرفة ، فصرخت بأعلى صوتها قائلة :

---

(١) لقب حمزة بن عبد المطلب بسيد الشهداء ، وأسد الله ، وأسد رسول الله • وهو رضيع النبى (ص) ، هو وأبو سلمة بن عبد الأسد ، أرضعتهم ثوبية مولاة أبى لهب ، كما ثبت ذلك فى الحديث المتفق عليه . وعلى هذا يكون حمزة قد جاوز الخمسين يوم قتل رضى الله عنه ، وقد قتل معه يومئذ تمام السبعين من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . راجع : البداية والنهاية ٤/٦١

(٢) حمـــاة الأدبار : أى الذين يحمون أعقاب الناس . النمارق : جمع نمرقة وهى الوسادة الصغيرة . وهذا الرجز لهنـــد بنت طارق بن بياضة الإيادية ، قالته فى حرب الفرس لإياد وتمثلت به هنـــد بنت عتبة ، وقـــد روى صاحب نهاية الأرب هذا الرجز بصورة أخرى ، وجعله لهنـــد بنت عتبة ، أو لهنـــد بنت طارق بن بياضة الإيادية . راجع نهاية الأرب ١٧/٩٠، وراجع أيضا : السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٨ ، والروض الأنف ٥/٤٢٩، وســــيرة النبى ٣/٥٨٨ .

(٣) الخـــدم : الخلاخيـــل .

نحـــن جـــزيناكـــم بيـــوم بدر
والحرب بعـــد الحرب ذات سعر [1]

ما كـــان عن عتبـــة لى من صبـــر
ولا أخـــى وعمـــه وبكـــرى

شـــفيت نفســـى وقضيت نـــذرى
شفيت وحشـــى غليل صـــدرى [2]

فشـــكـــر وحشـــى على عمـــرى
حتى تـــرم أعظمى فى قـــبرى [3]

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب[4] فقالت :

خـــزيت فى بدر وبعـــد بـــدر
يا بنت وقـــاع عظيـــم الكفـــر [5]

صـــبحك الله غـــداة الفخـــر
ملهـــاشميين الطـــوال الزهـــر [6]

بكـــل قطـــاع حسام يفـــرى
حمـــزة ليثـــى وعلى صـــقرى [7]

---

(١) سعر : التهاب وشدة .

(٢) الغليل : العطش ، أو حرارة الجوف .

(٣) راجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٩١/٣ ، والاكتفاء ١٠٤/٢ ، والروض الأنف ١٥/٦ والبداية والنهاية ٣٧/٤

(٤) شاعرة قرشية ، اشتهرت فى الجاهلية ، وأسلمت بعد بدر ، وبايعت النبى « صلى الله عليه وسلم » ويروى لها ابن إسحق أبياتا وهى على الشرك فى رثاء عبيدة بن الحارث بن المطلب أحد قتلى بدر ولها مرثية يوم قضى النبى « صلى الله عليه وسلم » . راجع شاعرات العرب ص ٤٥٣ ، والإصابة ١٥٩/١٣ وما بعدها ، وأسد الغابة ٢٨٨/٧

(٥) الوقاع : الكثير الوقوع فى الدنايا .

(٦) ملهاشميين ، أرادت من الهاشميين فحذفت النـون فى « مـــن » لالتقـــاء الســـاكنين ، ولا يجوز ذلك إلا فى « مـــن » لكثرة اســـتعمالها الزهر : البيض ، الواحد : أزهر .

(٧) يفرى : يقطع .

إذ رام شـــيب وابـــوك غـــدرى
فخضبتا منـــه ضواحى النحـــر (١)

ونذرك الســـوء فشـــر نذر (٢)

الدراســـة الفنيـــة :

هند بنت عتبة ، زوج أبى سفيان من النساء اللاتى يتمتعن بالذكاء الحاد ، والفكر المتوثب ، والقدرة على التحمل والصبر فى مواجهـــة الخصوم ، وقد أضمرت الحقد والكراهية للدعوة المحمدية منـــذ أن سمعت بها ، ولذلك فقد سخرت كل جهدها وطاقاتها للنيـــل من تلك الدعوة ، لم تبخل بجهد ، أو تضن بفكر أملا فى قبر تلك الدعـــوة ، واحتوائها ومواقفها العدائية مشهورة وعديدة حتى أن النبى (ص) قد أهدر دمها يوم الفتح ، وقد فاجأتها تلك الأحداث بما لم يكن قـــد استعدت لسماعه ، أو توقعت حدوثه .

فدعوة محمد (ص) تحتل مكانها فى الصدور، وتستقر فى القلوب، وتدفع بالمؤمنين إلى الاستماتة فى سبيلها ، والزياد عن مبادئهـــا وأفكارها ، والتضحية فى سبيلها بكل عزيز وغال ، وها هم أبناء تلك الدعوة الناشئة يصمدون لعتاة قريش وصناديد الكفر والشرك ، بل وينقضون عليهم فى شجاعة لم يكن لهم عهد بها — يقتلون ويأسرون، وفى سرعة خاطفة تنحسر المعركة عن هزيمة مروعة لجموع قريش

---

(١) شيب : أرادت شيبة فرخمته فى غير النداء . ضواحى النحر : ما ظهر من الصدر .

(٢) راجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٩٢/٣ ، وعيون الأثر ١٨/٢ ، وأسد الغابة ٢٨٨/٧ ، والبداية والنهاية ٣٨/٤ ، والروض الأنف ١٦/٦ ، والإصابة فى تمييز الصحابة ١٥٩/١٣ ، وقد ذكر صاحب تاريخ النقائض فى الشعر العربى المجموعة الثانية من الأبيات بترتيب آخر واختلاف فى بعض الألفاظ ثم نسبها إلى أروى بنت الحارث بن عبد المطلب ص ٢٤ إلا أنه فى ص ١٤٨ قال : وقد ذكرنا قبلا ما كان من هند بنت عتبة ، وهند بنت أثاثة من مناقضة رجزية فى هذا اليوم — يوم أحد — مشيرا بذلك إلى هذه الأبيات ، وهذا هو الصواب . كما جاء فى السيرة النبوية وغيرها من المصادرة المذكورة سابقا .

وأنصارها ، وتروع هند بقتل وجهـــاء قريش وعلية القوم ، بل إن الطعنات تنهال عليها فى غير هوادة وهى تسمع الأخبار المروعة بقتل أبيها عتبة وأخيها الوليد ، وعمها شيبة ، وحنظلة بن أبى سفيان ، ابن زوجها ، وبأسر عمرو بن أبى سفيان مع من أسر من أبناء قومها •
وأمام هذه الطعنات المتلاحقة لا تملك المرأة سوى البكاء والنحيب على ما أصابها ورثاء قتـــلاها بشعر يفيض بالحسرة ، وينضح بالألم والمرارة ، ويجأر بالشكوى واستثارة النفوس للثأر ممن ألحقوا بهم الهزيمة ، وعار الاستسلام والأسر ، مستحثة فى القـــوم إباءهم وكرامتهم ، مخاطبة مشاعرهم ، ووجداناتهم أن يهبوا فى مواجهـــة الخطر الذى يترصدهم ، والتصـــدى لذلك الطوفان الذى سرعان ما يدنو بهم، وأخذت تسعى جاهدة بين القوم لتجميع القلوب ،وتوحيد الصفوف حتى كان لها دورها البارز فى الإعداد لمعركة أحد التى أبت إلا تكون فيها مع زوجها فى مقدمة الصفوف ، بل إنها قد وجهت أنظار القوم بذلك الخروج إلى أن تحذو الكثيرات من نساء قريش حذوها ، فخرجن مع أزواجهن ، وكان ذلك وحده كافيا لدفع الناس إلى الاستبسال فى القتال ، والعطاء بلا حدود حتى لا ينكشفوا عن حرماتهم أو يفرطوا فى شرفهم وكرامتهم •

وأخذت هند مع رفيقاتها يرددن على أسماع رجالهن أناشيـــد الحرب ، ويعزفن على دفوفهن أنغام الحماس والتحريض على القتال، والانتقام ، والاشتفاء من الأعداء • بل إنها أخذت تمشى بين القوم تدفع وتشجع وتبث الثقة فى النفوس وتستثير الهمم ، ولم يطمئن لها بال ، أو تهدأ لها حركة ، حتى حدث ما ظلت ترقبـــه وتتلهف إلى سماعه ودارت ــ فى أحد ــ الدائرة على المسلمين لتفرق صفوفهم وتنازع آرائهم ، وترك مواقع قتالهم ، فتملأ الفرحة جنبات هنـــد ، وتحتويها نشوة النصر ، ولا تكاد تصدق ما حدث فتأخذ فى التشفى الحاقد اذ تسارع مع رفيقاتها إلى تقطيع آذان القتلى وآنفهم ويتخذن منها قلائد وقروطا ، وتعمد هند الموتورة إلى جثمان حمزة فتبقر عن كبده وتأخذ قطعة منه لتلوكها وتمضغها كى تطفىء نار حقدها وهجير

غيظها وعدائها ، وتأخذ فى التباهى والتفاخر بقتل حمزة وغيره ممن أصيب من المسلمين أخذا بثأرها وردا لكرامة قومها،أو انتقاما لقتلاها. فهم قد ردوا على انتصار المسلمين فى بدر بهذا النصر الذى حققوه فى ذلك اليوم ، إذ الحرب لا تلد إلا الحرب تلهبها وتشعل أوارها فهى الموتورة الثكلى المطعونة فى عمها وابنها ، قد هدها الحزن ، وأضناها الصبر على المصيبة ، وأقض مضجعها تباطؤ الزمن فى الأخذ لهـــا بثأرها . وها هى اليوم تشفى نشوة النصر دخلية نفسها ، وتمسح أدرانها ، وتغسل أحزانها وآلامها . فتقـــدم الشكر الجزيل لمن ثار لها وانتقم لأبيها ، بل ولا تملك نفسها من غبطة الفرحة فتجمع ماتحلت به من حلى — وهو كل ما تملكه فى هذا الوقت — لتقدمه هدية متواضعة إلى من شفى غليل صدرها وأذهب عنها آلامها وأحزانها ، مؤكـــدة لوحشى أن شكرها له على ما حققه من قتل حمزة ستظل تلهج به مادام فيها عرق ينبض أو لسان يتحرك .

وهذه الأبيات مع بساطة التعبير فيها ، وسلاسة الأسلوب تتميز بحرارة العاطفة وصدق التعبير،وحمل مشاعر هند وتصويرها تصويرا يعكس فرحتها الغامرة ، وسعادتها غير المحدودة ، كما تعكس الأبيات ما كانت تعانيه هند من اضطرام نار الحقد والكراهية فى نفسهـــا ، ومعاناتها فى مغالبة عواطفها الحزينة الباكيـــة أملا فى ترقب يوم التشفى والانتصاف ، ولذلك نراها تزهو بما أقدمت عليه من بقر بطن حمزة فتقول :

شفيت من حمـــزة نفسى بأحـــد

حتى بقـــرت بطنـــه عن الكبـــد

أذهب عنى ذاك مـــا كنت أجـــد

من لذعة الحزن الشديد المعتمـــد

والحـــرب تعلوكـــم بشؤبوب بـــرد
تقـــدم إقداما عليكـــم كالأســـد (١)

أما أبيات هند بنت أثاثة فإنها قد ألقمت هند بنت أمية صخـــرة مصماة . حيث كانت ردا بليغا ، وحجة دامغة يهدم ما ذهبت إليه بنت عتبة ، فقد أخزاها الله بذلك الانتصار الرائع فى بدر الذى ما زالت أحداثه ماثلة أمام العيون ، لم يذهب بهاؤه وروعته ، أو تطو صفحته، ففيه قتل رءوس الكفر والنفاق ، وقضى على المتهـــالكين فى الدنيا الآخذين فى العناد والكفر والضلال ، أمثال عتبة بن ربيعة والد هند المتطاولة الآن بهذا التفوق العارض ، وسيكون مصيرك يا هنـــد بنت عتبة فى القريب العاجل كمصير هؤلاء الهاشميين الأماجـــد الذين صرعوا فى بدر وقتلو شر قتلة ، ولن يخطئك سيفنا البتار الذى يفرى جسدك ويمزقه • أما حمزة فهو — وإن اغتيل — الليث الهصور الملقب بأسد الله لما قام به من الانتصارات الرائعة وسيظل اسمه مع على ابن أبى طالب — الصقر الجارح السريع الانقضاض — موضع فخرنا وزهونا ، فهما أصحاب الطعان القاتلة التى أردت أباك عتبـــة وأخاه شيبة ، وتركاهما يتدرجان فى دمائهما جزاء غدرهما وعنادهـــمــا ، أما ندرك بالاقتصاص والتمثيل بقتلة أبيك فإنه أسوأ الفعال وأخبث ما يذهب إليه إنسان حيث تعف النفوس الكريمة عن التمثيل بالقتلى أو الإساءة إليهم •

وقد حملت هذه الأبيات أيضا عاطفة هند بنت أثاثة الصادقة فى الدفاع عن المسلمين والتصدى لخصومهم فيما يقولون أو يدبرون • كما تعتمد الأبيات على ذكر بعض الحقائق التى تدعم بها الشاعـــرة ما تذهب إليه ، فعتبة بن ربيعة ملح فى خصومته ، مع الإســــلام والمسلمين ، مغال فى كفره وعناده ، والجزاء العادل له ولأمثاله القتل وإزهاق الروح، أما حمزةوعلىفهما اللذان روعا المتحاربين ببطولاتهما

---

(١) راجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٢/٩٢ .

وكرهما وفرهما ، وهما اللذان خلصا الإسلام من إحـــدى العقبات الكئودة في طريق انتشاره بقتلهما عتبة بن ربيعة وأخاه شيبة •

كما جاء الأسلوب سهلا قريب التناول ، بعيدا عن التعقيـــد أو التنميق الزخرفي مما أسهم في حمل معاني الشاعرة إلى القارىء في سهولة ويسر •

والنقيضتان على قلة أبياتهمـا يموجان بالعاطفة الصـــادقة والأحاسيس المتدفقة ، ويجمعهما بحر الرجز ، السريع الوقع القصير النغمات ، مما يتناسب مع الموقف . ويطبـــع الأرجوزتين بالحيوية والصدق الفني •

٣ — نحن الفوارس يوم أحــد

هذا موقف آخر من مواقف الشعر في أحد ، يقول هبيرة بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ [١] ، وهو على دين قومه من قريش :

ما بال هم عميــــد بات يطــــرقنى
بالود من هند إذ تعــدو عواديها [٢]

باتــــت تعـــاتبنى هنـــد وتعذلنى
والحـــرب قد شغلت عنى مواليهــــا

مهــــلا فلا تعــذلينى إن من خلقى
ما قد علمت ، وما إن لست أخفيهــــا

مســـــاعف لبنى كعب بمـــا كلفـــوا
حمـــال عبء وأثقـــال أعانيهـــا [٣]

وقد حملت ســــلاحى فوق مشترف
ساط سـبوح إذا تجرى تباريهــــا [٤]

كأنـــه إذ جـــرى عـــير بفـــدفدة
مكدم لاحق بالعـــون يحميهـــا [٥]

---

(١) هو هبيرة بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم ، وهو أحد أعداء الدعوة الإســـلامية الحاقدين ، هرب هو وابن الزبعرى إلى نجران لما دخل النبى (ص) مكة ، ثم بدا لابن الزبعرى أن يسلم ، فقال له هبيرة : لو علمت أنك تفعل ما حميتك . ومات هبيرة هناك كافرا . راجع ديوان حسان بن ثابت ص ١٠٠

(٢) العميد : المؤلم الموجع . العوادى : الشواغل .

(٣) مساعف : مطيع موات هنا لما يكلفونه : اى بما اولموا به واحبوه، عبء : الحمل الثقيل واستعاره هنا لما يكلفونه من الأمور الشاقة العظام .

(٤) مشترف : (بفتـــح الراء) : أى فرس يستشرفه الناس ،أى ينظرون إليه لحسنه ، وبكسر الراء اى مشرف . ساط : بعيد الخطو إذا مشى . سبوح : الذى يسبح فى جريه كأنه يعوم . يباريها : يعارضها ، وأعاد الهاء على الخيل وإن لم يتقدم لها ذكر لأن الكلام يدل عليها .

(٥) العير : الحمار الوحشى ، الفدفدة : الفلاة . المكدم : المعضض ، يقال رجل مكدم — بدال مشددة مفتوحة — إذا لقى قتالا فأثرت فيه الجراح عضته : اثته . العون : جماعات حمر الوحشى .

من آل أعــوج يرتاح النـــدى له

كجذع شــعراء مستعل مراقيهـــا (١)

أعـــددته ورقاق الحــد منتخـــلا

ومـــا رنا لخطوب قد ألاقيهـــا (٢)

هـــذا وبيضـــاء مثل النهى محكمة

نيطت على فما تبدو مســــاويها (٣)

سقنـــا كنانـــة من أطراف ذى يمن

عرض البلاد على ما كان يزجيهـــا (٤)

قالت كنـــانة : أنى تذهبـون بنـــا ؟

قلنـــا : النخيل ، فأموها ومن فيهـــا (٥)

نحن الفوارس يوم الجر من أحـــد

هانت معـــد فقلنـــا نحن نأتيها (٦)

هابوا ضرابا وطعنـــا صادقا خذما

مما يرون وقـــد ضمت قواصـــيها (٧)

ثمت رحنـــا كـــأنـــا عارض بـــرد

وقـــام هـــام بنى النجـــار بيكيها (٨)

---

(١) أعوج : اسم فرس مشهور فى العرب . يرتاح : يستبشر ويهتز . الندى : المجلس من القوم . الجذع : الفرع . شعراء : نخلة كثيرة الأغصان . مراقيها : معاليها .

(٢) رقاق الحد : يريد سيفا حادا . منتخلا : متخيرا . المارن : الرمح اللين عند الهز . الخطوب : حوادث الدهر .

(٣) بيضاء : يريد بها الدرع . النهى : الغدير من الماء . ينطت : علقت . مساويها : عيوبها .

(٤) عرض البلاد : سعتها . يزجيها : يسوقها .

(٥) النخيل ــ على وزن « زبير » : مدينة الرسول (ص) ، وهى اسم لعين قرب المدينة . أموها : قصدوها .

(٦) الجر : أصل الجبل .

(٧) خذم : الذى يقطع اللحم سريعا . قواصيها : ما تفرق منها وبعد .

(٨) العارض : السحاب . البرد : الذى فيه برد . الهام : جمع هامة وهى الطائر الذى تزعم العرب أنه يخرج من رأس القتيل .

كـأن هامهمو عنـــد الـوغى فلق
من قبض ربـد عـــن أداحيهــا (١)

أو حنظل ذعذعته الريح فى غصـن
بال تعـــاوره منهـا ســـوافيها (٢)

قد نبـذل المـال سحا لا حساب له
وتطعن الخيل شدرا فى مآقيهــا (٣)

وليلة يصــــطلى الفــرث جاذرهـــا
يختص بالنقـــرى المثرين داعيهــا (٤)

وليـــلة من جمـادى ذات أنـــدية
جربا جمـــادية قد بت أسريهــا (٥)

لا ينبح الكلب فيهـــا غير واحـدة
من القريس ولا تسرى أفاعيهــا (٦)

---

(١) هامهم : جمع هامة وهى الرأس . الفلق : جمع فلقـــة ، وهى القطعة من الشىء . القبض : قشر البيض الأعلى . الربد : النعام ، لأن ألوانها بين البياض والسواد ، وهو اللون الأربد . الأداحى : جمع أدحى وهو الموضع الذى تبيض فيه النعام .

(٢) ذعذعته : حركته . تعاوره : تتداوله . السوافى : الرياح التى تقلع التراب والرمل من الأرض .

(٣) سحا : صبا ، يريد أنه عطاء كثير . الشرز : الطعن عن يمين وشـــمال . المـآقى : له معنيـــان : مجـارى الدمـوع مـن العين ، والمقدمات ، وكلا المعنيين يستقيم به الكلام .

(٤) يصطلى : يستدفىء من شدة البرد . النقرى : أن تدعو قوما دون قوم . ويقال يدعو الجفلى : إذا عمت دعوته الجميـــع . المثرين : الأغنيـــاء .

(٥) أندية : جمع ندى — على غير قياس — وهو المجلس ولا يستقيم معنى البيت بهذا والمراد به هنا : الأهوية والأشتية . جربا : شديدة البرد مؤلمة ، أو قحطه لا مطر فيها . ويريد بجمادية نسبة إلى شـــهر جمـــادى . وكان هذا الاسم قد وقع على هذا الشهر فى زمن جمـــود الماء ، ثم انتقل بالأهلة . وبقى الاسم عليه ، وإن جاء فى الصيف والقيظ . وكذلك أكثر الشهور العربية سميت بأسماء مأخوذة من أحوال السنة الشمسية ، ثم لزمتها هـــذه المسميات ، وإن خرجت عن تلك الأوقات . راجـــع الروض الأنف ١٣٣/٦ وما بعدها .

(٦) القريس : البرد من الصقيع .

أوقدت فيهـا لذى الضراء جاحمـة
كالبرق ذاكيـة الأركان أحميهـا [1]

أورثنـى ذاكـم عمـرو ووالـده
من قبـله كان بالمثنى يغاليهـا [2]

كانوا يبـارون أنواء النجـوم فمـا
دنت عن السورة العليا مسـاعيها [3]

الا اعتبرتم بخيل الله اذ قتلت أهل القليب ؟!

قال ابن إسحق ، فأجـابه حسـان بن ثابت ، فقال [4]

سـقتم كنـانة جهـلا من سفاهتكم
إلى الرسول فجنـد الله مخزيهـا

أوردتمـوها حيـاض الموت ضاحية
فالنار موعدهـا والقتل لاقيهـا [5]

---

(١) لذى الضراء : لذى الحاجة والعـوز . الجاحمة : المتهبة . **ذاكية** : مضيئة .

(٢) بالمثنى : أى مرة بعد مرة .

(٣) يبارون : يعارضون . دنت : قصرت . السـورة : الرفعـة والمنزلة . المساعى : ما يسعى فيه من المكارم . وراجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٢٩ وما بعدها ، والروض الأنف ٦/١٠٠ ، والبداية والنهاية ٤/٥٢ وما بعدها ، وسيرة النبى ٣/٦٤١ وما بعدها ، والسيرة النبوية ٣/٩٧

(٤) ذكر ابن هشـام أن كعب بن مالك أجاب هبيرة أيضا بقوله ، وأورد له قصيدة طويلة بلغت ثمانية وأربعين بيتا . ولم أعرض لها هنا لاختلاف قصيدة كعب فى الوزن والقافية عن قصيدة هبيرة ، فبينما جاءت قصيدة ابن هبيرة متفقة مع قول حسان فى البحر — البسيط — والقافية اختلفت قصيدة كعب عنهما فى الوزن — بحر الطـويل — والقافية وهى تبـدأ بقـوله :

الا هل أتى غسان عنادونهم   من الأرض خرق سيره متنعنع

ولهذا وجدنا صاحب الاكتفاء يقول عن هذه القصيدة : وممـا قيـل من الشعر يوم احد ، قول كعب بن مالك الأنصارى ، وأورد معظم أبيات القصيدة التى أثبتها ابن هشام ، ولم يذكر صاحب الاكتفاء أنهـا رد على قول هبيرة . راجع القصيدة فى السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٣١ ، والروض الأنف ٦/١٠٢ ، والبداية والنهاية ٤/٥٣ ، والاكتفاء ٢/١٢٣ .

(٥) الضاحيـة : البارزة للشمس .

جمعتموها أحابيشا بلا حسب

أئمة الكفر غرتكم طواغيها (1)

ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت

أهل القليب ومن ألقينه فيها

كم من أسير فككناه بلا ثمن

وجز ناصية كنا مواليها (2)

قال ابن هشام : أنشد فيها أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك(3)

مع النقيضتين :

(أ) كانت أحداث أحد — كما سبق أن ذكرت — مجالا رحبا للشعر ، وحافزا قويا لكثير من الشعراء ، وخاصة المشركين منهم لنظم الشعر والانطلاق إلى آفاق أرحب ، من التعبير الفني عن المشاعر والعواطف وعرض وجهات النظر لدى الفريقين المتصارعين ، في نتائج تلك المعركة ، وما أسفرت عنه • ومن الطبيعي أن نرى شعراء قريش يسارعون إلى التغني بذلك النصر الذي حققوه ، وبسط القول في التباهي والتفاخر بشجاعتهم ودفاعهم ، بينما نرى شعراء المسلمين يعمدون إلى نقض ما تباهى به القوم ، وتطاولوا عليهم به ، ورفض فكرة الهزيمة والإصرار على تجاوز هذه العثرة ، وتحويلها — في

---

(1) الأحابيش : أحابيش قريش : أنصارهم ، وسموا بذلك لاجتماع بعض القبائل في الجاهلية عند جبل بأسفل مكة يقال له حبشي وتحالفوا مع قريش هناك ، فسموا أحابيش قريش ، نسبة إلى ذلك الجبل . وقد ساقت قريش أحابيشها لموقعة أحد . راجع طبقات فحول الشعراء ١/٢٢٠ . الحسب : الشرف . الطاغي : جمع طاغية ، وهو المتكبر المتمرد .

(2) مواليها : أهل النعمة عليها . راجع الأبيات في : السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٣١ ، والبداية والنهاية ٤/٥٣ . والروض الأنف ٦/١٠١ ، وسيرة النبي ٣/٤٢ ٦، والسيرة النبوية ٣/٩٩ ، وديوان حسان بن ثابت ص ٢٠٥ مع اختلاف يسير في البيتين الثالث والرابع في الديوان .

(3) ويقول صاحب البداية والنهاية : وقول ابن إسحاق — وهو نسبة الأبيات لحسان — أشهر وأكثر والله أعلم . راجع البداية والنهاية ٤/٥٣ .

القـريب العـــاجل — إلى تفـــوق ســـاحق ونصـــر مؤزر ، ولهذا نرى قصـيدة هبـــيرة بن ابى وهب ، قـــد امضدت إلى ثلاث وعشرين بيتا ، بينما اقتصر حســـان بن ثابت فى رده على تلك القصيدة بأبيات خمســـة ، وحرصت منـــذ البداية على ترك المقدمة المعهودة لدى شعراء العرب جميعهم واتجهت مبـاشرة إلى دحض مزاعم وافتراءات هبيرة بن أبى وهب ، موضحة أن قريشـا وإن ساقت جيشها الجرار بأحابيشها ، وما جمعت من الأنصار ممن لا حسب لهم ولا كرامة لديهم ، وطواغيت الكفر وأرباب الضـلال ، فإن النار هى الجزاء الأوفى لهذا التجمع العدائى ، وستحصــــدهم أسيافنا فى القريب إن شاء الله • ثم يذكرهـــم بما كان من أمرهم القريب فى بدر يوم حصدت سيوف المسلمين طواغيت الكفر وصناديد الشرك ، وألقوا بهم فى القليب وتم أسر العديد منهم ، لكنهم وهم أهل العفو عند المقدرة وقد كانوا يملكون قطع رقابهم • أطلقـــوا سراحهم وفكوا أسرهم بلا مقابل •

(ب) وأبيات حسان بن ثابت — وإن نسبها ابن هشام لأكثر من شاعر — فيها روح الإسلام الحنيف الذى يدعو إلى عدم الجزع عند المصيبة ، والتماسك أمام الأحداث ، كما إنه يؤكد على أن جزاء المعتدين نار جهنم يصلون فيها ، وإذا كان الكفـــار قد استمروا فى عنادهم وكفرهم ، فإنهم بذلك قد فقدوا عقولهم وطاش رشدهم ،لأن صاحب العقل السليم يجب أن يتخذ من الأحداث السابقة عظة وعبرة وكان الأولى بهؤلاء المعاندين أن يأخذوا العبرة من أحداث بدر ولكنهم سرعان ما تناسوا ما حل بهم ، وما أصابهم فى تلك المعركة ، حيث قتل فيها أباطرة الشرك وأرباب العناد ، وألقى بهم المسلمون فى القليب كما أسروا منهم العدد الوفير ، ولكنهم مع ذلك لم يستسلموا لعاطفة الانتقام والنيل من المعتدى ، بل كانوا سـمحاء كرماء ، فمنوا على الكثير منهم بإطلاق سراحهم وإعطائهم فرصة العودة إلى عقولهـم ومراجعة موقفهم العدائى ، وبذلك اعتمد حسان بن ثابت فى أبيـاته على المناقشة العقلية التى تلتزم الموضوعية وتأكيد الحقائق والتذكير

بها ثم لفت الأنظار إليها قد يخفى على البعض أو يتناسونه فى غمرة نشوة طارئة ، أو تحقيق نزوة نفسية عارضة . ولذلك كانت ألفاظ أبياته واضحة بعيدة عن التعقيد أو التقعر ، تحمل المعانى فى سهولة ويسر واضحين ، ولم تعمد إلى الخيال أو التصوير إلا فى قوله : « حياض الموت » لأنه — كما قلت — يتجه إلى المناقشة العقلية القائمة على ذكر الحقائق والتذكير بها .

(ج) أما هبيرة فإنه — والنشوة تغمره — قد إمتد نفسه وطال نغمه ، وتشعب قوله فقد صدر قصيدته بمقدمة غزلية يعتذر فيها إلى محبوبته هند التى تلومه على جفائه ونسيانه لها ، لكنه فى الحقيقة لم ينسها — إلا أنها مشاغل الحرب التى احتوته ، وأخذت جميع تفكيره ، حيث لبى — بما جبل عليه من صفات أبية كريمة — استغاثة بنى مساعف وحمل معهم عبء الدفاع والأخذ بالثأر ، فحمل سلاحه واعتلى غرسه القوى السبوح ، الذى لا يبارى فى الحرب ، ثم أخذ يصف فرسه بصفات تدل على عظمته وشدة بأسه فى الحرب ، ثم ذكر عدته من أدوات الحرب الأخرى كالرمح ، والسيف ، التى هى من أجود الأسلحة وأمضاها ، ثم يذكر إنهم بعد الاستعداد الكامل للحرب قد اتجهوا إلى النخيل وهى عين ماء قريبة من مدينة الرسول (ص) بجيشهم الجرار الذى انضمت إليه كنانة وهو فى طريقه إلى المدينة.

(د) ثم ينتقل الشاعر إلى الفخر بشجاعته وشجاعة قومه وفروسيتهم وجرأتهم فى القتال وخاصة يوم أحد . فقد تهيبهم المسلمون ولم يخرجوا إليهم فساروا هم إليهم وطلعوا عليهم كأنهم السحاب البارد ، مما ألقى الرعب فى قلوبهم ، وكانوا حصادا سهلا لهم ، فتطايرت الهام وتناثرت ، وحلت عليهم ليلة ليلاء شديدة البرد مؤلمة فوقف كل شىء فيها عن الحركة لقسوة بردها ، فربض الكلب مكانه وتوقف عن النباح ، ولاذت الأفاعى بأوكارها فلم تغادرها ، ثم عاد الشاعر للفخر بنفسه فهو فى ذلك البرد القارس العاصف يوقد ضياءه للسارين كى يهتدى به أصحاب الحاجة والمعوزون ، فيقدم لهم من العطاء والمنح ما يخفف عنهم ، ويدفىء جسومهم ونفوسهم .وهذا

هو خلقه الذى توارثه عن أبيه وأجداده ، الذين كانوا يبارون أنواء النجوم فى العطاء والسخاء والكرم .

(هـ) وقصيدة هبيرة وإن بدأت بمقدمة غزلية إلا إنهـا كانت قصيرة واتخذها الشاعر كتمهيد ومدخل الى موضـوعه وبذلك كان الترابط واضحا بين المقدمة وموضوع الشاعر وهو انشغاله بالحرب عما سواها بل وعن حبيبته هند التى يكن لها كل الحب والإعـزاز ، وما ذاك إلا ضرب من الوفاء للمبادىء والقيم الرفيعة التى جبل عليها، والتى عهدت فيه ، فهو لا بد أن يلبى داعى الحرب وأن يسـارع بالانضواء تحت لواء الزياد عن قومه ومحارمه ، ويخف إلى حمـل سلاحه وأخذ الأهبة والاستعداد الكاملين ، وينضم إلى الصفوف التى تجمعت من كل صوب وأخذت وجهتها نحو المدينة للأخذ بالثأر ممن ألحقوا بهم الهزيمة وأثخنوهم بالقتل والأسر (الأبيات من ١ — ١١) ثم ينتقل الشاعر إلى فكرة أخرى مرتبطة أشد الارتباط بما سبقها،وهى الحديث عن فروسيتهم وشجاعتهم التى خافتها معـد فتقاعست عن المواجهة ، مما دعاهم إلى الوصول إليهم فى ديارهم وإعمال سيوفهم فى رقابهم فكانوا حصادا سهلا وطعاما سائغا لأسلحتهم البتارة،وهم ليسوا أرباب حرب ونزال فقط ، بل هم أيضا أصحاب كـرم وبذل وسخاء غير محدود ، فهم يبذلون المال بلا حدود ، ويوقدون النار فى الليالى الباردة العاصفة كى يهتدى بها السائرون ، فيلوذون بهـم ، وينزلون فى كنفهم ورعايتهم ، فهذا هو خلق الشاعر وطبعـه الذى توارثه عن آبائه الأكرمين أصحاب المكانة الرفيعة فى قومهم (الأبيات من ١٢ — ٢٣) .

(و) القصيدة بهذا التسلسل الفكرى مترابطة أشد الترابط فى أفكارها ومعانيها يجمعها خيط فكرى واحد ويوحد بينها عاطفة الشاعر التى تتجه إلى الاعتزاز بالنفس والفخر بمكارم الأخـلاق والقيم الكريمة ، من الإباء والنجدة والوفاء والفروسية والكرم ، كما حرصت القصيدة على الألفاظ الجزلة القوية المأخوذة من البيئة العربية الأصيلة

وإن إحتاج بعض منها إلى العودة إلى قواميس اللغة فإن هـذا أمر طبيعى لأن اللغة بنت عصرها • وعصرنا الآن يختلف عن عصر صدر الإسلام فى استعمال بعض الألفاظ المرتبطة بالبيئة ،كفدفدة (الفلاة)، والعون (جماعات حمر الوحش) وأعوج — (إسم فرس) ، والمارن (الرمح اللين عند الهز) فهذه الكلمات بنت البيئة العربية الأولى مما يتطلب منا البحث عن معانيها والوقوف على مدلولاتها وخاصـــة إذا كانت لأسماء حيوانات كأعوج ، أو أسماء أماكن كالنخيل ، وهى قليلة فى النص ولا تقلل من عذوبة ألفاظه وقوة جرسها وسهولة مخارجه مما أضفى على النص كثيرا من الجودة والبراعة الفنية •

(ز) ويختلف الشاعر هنا عن معارضه حســان بن ثابت حيث وشح قصيدته بالعديد من الأخيلة الجميلة التى أضفت على المعــانى الجلال والروعة • فالهم يطرق نفسه ، والعوادى تعــدو ، والحرب تشغل ، والهموم محمولة ، والسيف كالغدير فى صفــــائه ، وهم بمباغتتهم لأعدائهم كأنهم سحاب بارد ، وهام القتلى فى تناثرها هنا وهناك ، كجزء من قشرة بيضة من بيض النعام ، أو كحنظل فرقتـــه الريح وألقت به فى أنحاء مختلفة،كما كنى عن توقف الحركة وانقطاعها لشدة برودة الليلة بعدم نباح الكلب ، ولزوم الأفاعى لأوكارها ،وناره التى يضيئها للسارين نار ذاكية كالبرق ، وآباؤه كالأنواء فى الفيض والكـــــرم •

وهذه الأخيلة جميعها مستمدة من بيئة الشاعر ، ومرتبطة بهــا ارتباطا وثيقا مما يطبع قوله بعامة بطابع الصدق والواقعية ، مما يدل على تمكن الشاعر من لغته ، واتساع محصوله اللغوى ، واستفادته مما حوله ، والترجمة الصادقة عما يحس به ويرتبط بمشاعره •

٤ ــ وعدلنا ميل بدر فاعتدل

وقال عبد الله بن الزبعرى فى يوم أحد (وهو يومئذ مشرك):

يا غـــراب البين أسمعت فقـــل
إنمـــا تنطق شيئا قــد فعـــل [١]
إن الخيـــر وللشـــر مـــدى
وكـــلا ذلـــك وجـــه وقبـــل [٢]
والعطيـــات خســـاس بينهـــم
وســـواء قبـــر مثـــر ومقـــل [٣]
كـــل عيش ونعيـــم زائـــل
وبنـــات الدهـــر يلعبن بكـــل [٤]
أبلغـــن حســـان عنـــى آيـــة
فقـــريض الشعر يشفى ذا الغلل [٥]
كـــم ترى بالجـــر من جمجمـــة
وأكـــف قـــد أترت ورجـــل [٦]
وسرابيـــل حســـان سـريت
عن كمـــاة أهلكـــوا فى المنتزل [٧]
كـــم قتلنـــا من كـــريم سيـــد
ماجـــد الجـــدين مقـــدام بطـــل

---

(١) البين : الفرقة ، والفساد ، والعداوة . فعل : أى قد فرغ منه، وكانوا فى الجاهلية يقرون بالقدر .

(٢) المدى : الغاية ، القبل : المواجهة والمقابلة ، يريد أن كل ذلك يلاقيـــه الإنسان فى مستقبل أيامه .

(٣) خساس : حقـــيرة .

(٤) بنـــات الدهر : حـــوادثه .

(٥) الغلـــل : جمع غلة وهى فى الأصل : حرارة العطش .

(٦) الجر : أصل الجبل . أترت ــ بضم فكسر فراء مفتوحة مشددة ــ تطعت . الرجل : الأرجل .

(٧) سرابيل : دروع . سريت : جردت . الكماة : الشجعان . المنتزل : موضـــع الحرب والنزال .

صـــادق النجـــدة قـــرم بـــارع
غير ملتاث لدى وقـــع الأســـل (١)

ـــل المهـــراس مـــن ساكنـــه
بين أقحـــاف وهـــام كالحجـــل (٢)

ليت أشيـــاخى ببـــدر شهـــدوا
جـــزع الخـــزرج من وقع الأســـل

حين حكت بقبـــاء بركهـــا
واستحر القتـــل فى عبد الأشـــل (٣)

ثم خفـــوا عنـــد ذاكم رقصـــا
رقص الحفـــان يعـــلو فى الجبل (٤)

فقتلنـــا الضـــعف مـــن أشرافهـــم
وعدلنـــا ميـــل بدر فاعتـــدل (٥)

لا ألـــوم النفس إلا أننـــا
لو كـــررنا لفعلنـــا المفتعـــل

بسيـــوف الهنـــد تعلو هامهـــم
علـــلا تعلوهمو بعـــد نهـــل (٦)

---

(١) النجدة : القوة والشـــجاعة . القرم : السـيد الـكريم . البارع : المبرز على غيره . ملتاث : ضعيف ، وغير ملتاث : غير مضطرب. الأسل . الرماح .

(٢) المهراس : حجر ينقر ويجعل إلى جانب البئر ، ويصب فيـه الماء لينتفع به النـاس . الأقحاف : جمع قحف وهو العظم الذى فوق الدماغ . هام : رءوس . الحجل : الواحدة حجلة : طائر فى حجم الحمام أحمر المنقار والرجلين ، وهو يعيش فى الصرود العالية .

(٣) البرك ــ بفتح الباء وسكون الراء ــ الصدر . بنو عبد الأشل: هم بنو عبد الأشهل فحذف الهاء .

(٤) الرقص : المشى السريع . الحفان : صغار النعام .

(٥) روى ديوان حسان بن ثابت هذا البيت والذى قبـله فقط ، ولكنه روى هذا البيت هكذا :

قد قتلنا القوم من أشياخهم وعدلنـاه ببـدر فاعتـدل

(٦) العلل : الشرب الثانى . النهل : الشرب الأول ، يريد الضرب بعـد الضرب . وراجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٣٦ ، والسيرة النبوية ٣/١٠٢ ، والبداية والنهاية ٤/٥٥ ، والروض الأنف ٦/١٠٥ ، وعيون الأثر ٢/٣٣ ولم يذكر بعض هـذه الأبيات . وتاريخ النقائض فى الشعر العربى ص ١٤٩ .

فأجابه حسان بن ثابت فقال (١) :

ذهبت يا بن الزبعرى وقعة
كان منا الفضل فيها لو عدل

ولقد نلتم ونلنا منكمو
وكذاك الحرب أحيانا دول

إذ شددنا شدة صادقة
فأجأناكم إلى سفح الجبل (٢)

إذ تولون على أعقابكم
هربا فى الشعب أشباه النمل (٣)

نضع الخطى فى أكتافكم
حيث نهوى عللا بعد نهل (٤)

نحن لا أنتم بنى ولد استها
نحن فى البأس إذ الباس نزل (٥)

يخرج الأكدر من أستاهكم
كسلاح النيب يأكلن العصل (٦)

---

(١) مصدر هذا النص ديوان حسان بن ثابت ص ٩٣ وما بعدها وفيه اختلاف عظيم فى ترتيب الأبيات وبعض الألفاظ مع ما ورد فى السيرة النبوية لابن هشام ، والمراجع الأخرى التى سأشير إليها فى نهاية النص .

(٢) أجأناكم : ألجأناكم .

(٣) أشباه النمل : جاءت فى السيرة النبوية لابن هشام : « أشباه الرسل » ـ بفتح السين ، وهى الابل المرسلة إثرها فى إثر بعض .

(٤) فى سيرة ابن هشام : نضع الأسياف بدلا من « الخطى » . والخطى : الرماح ، نسبة إلى الخط وهو موضع .

(٥) ورد هذا البيت فى آخر القصيدة فى السيرة النبوية والمصادر الأخرى ، وجاء على النحو التالى :
نحن لا أمثالكم ولداستها   نحضر الناس إذ البأس نزل

(٦) رواه ابن هشام : « نخرج الأضياح » ، والأضياح : جمع ضيح ، وهو اللبن المخلوط بالماء . سلاح : ـ بضم السين ـ روث البهائم والطيور . النيب : جمع ناب وهى الناقة المسنة . العصل : جمع عصلة ، وهى شجرة تأكل منها الإبل فتسلجها وتخرج منها بلون أحمر . وترتيب هذا البيت فى السيرة الرابع .

وشـــــدخنـــا فى مقـــــام واحـــد

منكمـــــو سبعين غير المنتحـــل (٧)

وأســــــرنا منكمـــــو أمثالهــــم

فانصرفتم مثل إفـــلات الحجـــل (١)

بحنـــاطيــــــل كحنــــــان المــــــلا

من يلاقوه من النــــاس يهــــل (٢)

ضـــــاق عنـــا الشعب إذ نجـــــزعه

وملأنا الفــرط منهــم والرجـــل (٣)

برجـــــال لستمـــــو أمثـــالهــــم

أيــدوا جـــــبريل نصـــرا فنـــــزل (٤)

وعــــــلونا يـــوم بـــــدر بالتقـــــى

طاعــــــة الله وتصديق الرســــل (٥)

وتركنــــــا فى قـــريش عـــــــورة

يـــوم بـــدر وأحاديث مثـــــل (٦)

من قريش فى جمــــــوع جمعـــوا

مثـــل ما جمع فى الخصب الرســـل (٧)

---

(١) لم يرد هذا البيت فى السيرة . شدخنا : صرعنا ، والمشدوخ المصروع . ويروى : وقتلنا ، غير المنتحل : أى لا تنتحل قول البـــاطل ولكن :قـــول الحق .

(٢) الحجل : الواحدة حجلة . طائر فى حجم الحمام أحمر المنقـــار والرجلين ، وهو يعيش فى الصرود العالية ، ويستطاب لحمه . ومعنى البيت : كان انهزامهم كإفلات الحجل من الشرك ، لا يلوى على شىء . ولم يرد هذا البيت فى سيرة ابن هشام .

(٢) الحناطيـــل : الواحد حنظـــل : جماعات الجراد ،اســـتعاره للفرسان بجامع الكثرة . الحنان ــ بتشديد النو نـ ــ حى من الجن أو سفلتهم .الملا : ما اتسع من الأرض .يهل : مضارع هيل ، ريع وخاف .

(٣) الشعب : الطريق النافذة بين جبلين . نجزعه : نقطعه . الفرط ــ بضم الفاء ــ نشوز الأرض وآكامه . الرجل ــ بكسر الراء المشددة : مجارى الماء ، واحدها رجلة ، يريد ملأنا ذلك من قتلاكم .

(٤) أيدوا جبريل : أى أيدوا بجبريل ، فنصب على نزع الخافض .

(٥) طاعة الله ــ بالنصب ــ نصب بفعل مضمر تقديره : أعنى .

(٧) العورة : العيب . المثل : أراد به العبرة والعظة .

(٧) الرسل ــ بفتح السين ــ رواها ابن هشام : « الهمل » ، وهما بمعنى واحد ، وهى الإبل المهملة التى ترسل إثرها فى إثر بعض لا رعاءمعها

وقتلنــــا منكمــــو أهــل اللــوى

إذ لقينــاكم كأنا أســـــد طـــــل (1)

وقتلنـــا كـــل رأس منهمـــــو

وطعنـــا كـل جحجاح رفـــل (2)

وأبـدنا مـن كـــريم سيــــد

ماجــــد الجـدين مقـدام بطـل

وشـريف لشـريف فاضـــــل

لا نباليـــه كـذا وقع الأســل (3)

حـــين أعلنتـــم بصــــوت كاذب

وأبو سفيـــان كى يعلو هبـــل

لـم يفـوقـونـا بشىء ساعـة

غير أن ولوا بجهــل وفشــل (4)

الرؤيا الفنيـــة :

١ – هذه هى اللوحة الفنية الثالثة فى معركة أحـد الشهيرة . وشاعراها فارسان من فرسان القول المعدودين ، وكل منهما على رأس فريق له شهرته الأدبية والتاريخية .فابن الزبعرى أحد ثلاثة جدوا فى مهاجمة الإسلام والمسلمين ، ووجهوا طاقاتهم الفنية والإبداعية فى الطعن عليه والنيل منه ، وحسان بن ثابت فى مقدمة ثلاثة نافحوا ودافعوا عن الإسلام ، وشهروا كل ما يملكون من أدوات الفن الشعرى فى وجوه أعدائه وخصومه . وما زال قول حسان بن ثابت منقوشـــا على جبين الزمن عندما أجاب على قول رسول الله (ص) للأنصار :

---

(١) لم يرد هـــذا البيت فى سيرة ابن هشام .

(٢) الجحجاح : السيد . الرفل : الذى يجـــر ثوبه فى مشـــيه فى تبختر وخيـــلاء .

(٣) الأسل : الرماح والنبال .

(٤) أوردت السيرة النبوية لابن هشام أربعة عشر بيتـــا من هذه الأبيات مع اختلاف فى الترتيب وبعض الكلمات وقد أشرت إلى بعضهـــا فى مواضعها . راجع السيرة النبوية لابن هشـــام ١٣٧/٢ ، والبـــداية والنهاية ٥٦/٤ ، والروض الأنف ١٠٥/٦ ، والسيرة النبوية ١٠٣/٣ ، وديوان حسان ص ٩٣ وتاريخ النقائض فى الشعر العربى ص ١٥٠ .

« ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله (ص) بسلاحهم أن ينصروه بالسنتهم ؟) : « أنا لها » وأخذ بطرف لسانه وقال : « والله مايسرني به مقول بين بصرى وصنعاء » فلما قال له الرسول (ص) : « كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ » قال : « إنى أسلك كما تسل الشعرة من العجين » (1) .

ونرى ضراوة تلك العداوة فى بداية قصيدة ابن الزبعرى التى ينقض بها على خصمه حسان بن ثابت يطعنه ويهاجمه بسبابه وتجريحه : « يا غراب البين » ثم يأخذ فى التهكم به بعد أن حقق أتباعه الكفرة تفوقا على المسلمين فى تلك الموقعة ، مؤكدا لحسان — الذى تغنى بنصر الله للمسلمين فى بدر ، والتفوق المدمر على قريش وأتباعهم من الضالين الفاسقين — أن للخير وللشر مدى ، وأن الدهر قلب ، والمنتصر اليوم منهزم غدا ، والناس جميعا نهايتهم الموت ، والنعيم زائل ، والأحداث تتعاور الناس وتتقاذفهم .

ثم يقرر حقيقة أخرى تلتقى عليها القلوب وتقربها . فقريض الشعر يشفى قسوة الآلام وشدتها على النفس .

ثم ينتقل إلى تسجيل أحداث أحد وما كان من تفوق للمشركين على المسلمين ، ودا حققوا فيه من نصر شفى نفوسهم ، وضمد جراحهم ، وأبرأ كلومهم التى أصيبوا بها فى بدر فكم من جمجمة وأكف وأرجل قطعت على جبل أحد . وكم من دروع جرد منها فرسانها الكماة الشجعان ، وكم قتلوا من سيد ماجد مقدام بطل . ثم ينتقل إلى تسجيل فرحته الغامرة التى كان يتمنى لو شهدها أشياخه ممن قتلوا فى بدر حيث اقتصوا لهم ، وانتصفوا لقتلاهم ، إنهم قتلوا منهم فى أحد ضعف ما قتل المسلمون منهم فى بدر ، وبذلك أقاموا ما اعوج من الأمر ، وعدلوا ما التوى منهم فى بدر . ثم ينهى قصيدته

---

(1) راجع الأغانى ١٣٧/٤ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان — دار الهلال ١٥١/١ .

بالتهديد والوعيد بأنهم لو اشتركوا فى حرب أخـرى مع المسلمين ، لفعلوا المفتعل ، وأعملوا سيوفهم فى قتلهم مرات ومرات .

٢ — أما حسان بن ثابت فإنه لا يستسلم للهزيمـة ، ولا يلقى بسلاحه ، بل يرفض ما قال ابن الزبعرى من هزيمة المسلمين ، فإذا كان الكفار قد نالوا المسلمين فى أحد ، فإن المسلمين قد تفوقوا عليهم فى بدر وأنزلوا بهم الهزيمة النكراء ، فالحرب دول ، والأحـداث قلب ، ثم أخذ حسان بن ثابت يعيد على أسماع ابن الزبعرى الأحداث المروعة التى لحقت بقريش وأتباعها وما حققـه المسلمون عليهم من نصر مؤزر وهزيمة نكراء فقد ساقوهم إلى سفح الجبـل وهرب المرتاعون كالإبل المرسلة إثرها فى إثر بعض ، ورماحهم تتعقبهـم وسـيوفهم تهوى عليهم وانزلوا بهم الرعب والفزع الذى اجتاح نفوسهم ، وحطم معنوياتهم فقتلوا منهم سبعين ، وأسروا منهم مثلهم ثم انصرفوا فى هزيمة طاحنة مرتاعين وفـروا لا يلوون على شىء كإفلات الحجل من شراكها فى جماعات متعاقبة كجمـاعات الجراد المنتشرة ، وجموع الجن التى استولى عليها الفزع وطاردها الخوف والهلع .

ثم ينتقل إلى الحديث عن جماعة المسلمين الذين امتلأ بهم الشعب وأيدوا بنصر الله وملائكته ونزل جبريل مع الملائكة الأطهار يحاربون فى صفوف المسلمين فحققوا النصر العظيم بتقوى الله وطاعتـه وتصديق رسوله الكريم فيما جاء به وقد تركوا قريشا مع ما جمعت من الجموع والأعوان تنعى حظها ، وتندب مصيرها ، وقد أصبحت مثلا وعبرة لكل من تسول له نفسه الخـروج على دين الله وأخيرا يسجل حسان بن ثابت مصرع أهل اللواء ورؤسائهم وزعمائهم ممن تكبروا واختالوا بأنفسهم . مشيرا إلى ما كان من أبى سفيان عنـد انصرافه من أحد حينما أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقال: أنعمت فعال ، وإن الحرب سجال ، يوم بيوم اعل هبـل ، أى أظهر

دينك . فقال رسول الله (ص) : قم يا عمر فأجبه ، فقل : الله أعلى وأجل ، لا سواء ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار (1) .

٣ — وقصيدة ابن الزبعرى ، التى بلغت ستة عشر بيتا ، فيها وحدة الموضوع ، ووحدة الأفكار وترابطها وتسلسلها فى تعانق وتلاحم ، وتمتاز بقوة التعبير ، وجمال الصياغة ، وصدق العاطفة ، وحنكة الرجل وخبرته ، فهو صاحب حكمة وتجربة أكدت له أن للخير وللشر مدى ، وكلا ذلك وجه وقبل ، وأن قبر الغنى والفقير سواء ، وكل عيش ونعيم زائل ، وحوادث الدهر ونوائبه تلعب بالناس وتتعاورهم وتريض الشعر يشفى الغلل . وهذه الحكم الخالدات مع اتفاقها مع الروح الإسلامية الحقة ، قد صدرت من إنسان معاند للإســلام ، مناهض لأتباعه ، لكنها صادرة عن نفس خبرت الحياة ، ودرستها أحداث الزمن بأنيابها ، وصقلتها التجارب ، فجــاءت لتقرر حقائق إنسانية لا خلاف فيها بين مسلم ومشرك ، ولا جدال حولها من ذوى البصائر والعقول ، ولتؤكد أن أفكار الإنسان — أى إنســان — البعيدة عن التعصب والهوى يقرها الإسلام وينادى بها ، وقديما أورد زهير بن أبى سلمى فى معلقته كثيرا من الحكم والنصائح التى تلاقت مع النفوس الكريمة ، وتعانقت مع حلم الإنسان وورعه حتى قال عنها أبو منصور الثعالبى (م ٤٣٠ هـ) : « وأبياته التى فى آخر قصيدته التى أولها : « أمن أم أوفى دمنة لم تكلم » تشبه كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهى غرة حكم العرب ونهاية فى الحسن والجودة تجرى مجرى الأمثال الرائعة الرائقة » (2) وهى :

ومن يك ذا فضــل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنــه ويذمــم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقــه
ومن لا يكــرم نفســه لا يكــرم

(1) راجع السيرة النبوية ٩٣/٢ ، ونهاية الأرب ٦٩/١٧ .
(2) من كتاب خاص الخاص لأبى منصور الثعالبى ص ٧٥ ط مصر ١٣٢٦ هـ .

ومهمـــا تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ومن لا يصـــافح فى أمــور كثيرة
يضرس بأنيـــاب ويوطأ بمنسم [1]

كما أن أثر البيئة واضح فى قصيدة ابن الزبعرى • فعـــدوه غراب الفرقة والفساد ، وأسـلحته سرابيل ، وأســـل : — دروع ورماح — • وتطاير الرقاب والهام فى الحرب كالحجل وهو طائر فى حجم الحمام أحمر المنقار والرجلين ، ريع وأفزع فأسرع بالطيران فى سرعة خاطفة وتواثب مضطرب • وقد تراقصت جثث القتلى من بنى عبد الأشل كما تتراقص صغار النعام وهى تقفز فى حركـات عشوائية متلاحقة •

أما قصيدة حسان فقد امتدت إلى واحد وعشرين بيتا ، حرص فيها الشاعر على تخير الألفاظ ، والبناء المحكم للأساليب ، وتسجيل الحقائق التى سجلتها معركة بدر دون تزيد أو مغالاة مؤكدا أن الحياة بأفراحها وأحزانها قد أكدت أن الحرب سجـــال والأيام دول • وقد نحس فى أبيات حسان بعدم الترابط بين أفكارها إذ يتحـــــدث عن أحداث بدر وما كان فيها من قتل وأسر ، ثم ما كـــان من نصر الله العظيم للمسلمين ثم نراه مرة أخرى يعود إلى الحـــديث عن القتلى وما كان فيهم من سادة ، أماجد وأبطال شجعان ، ولعل ذلك راجع إلى اختلاف رواية الشعر ، حيث روى جامع ديوانه هـــذه الأبيات على صورة أخرى ، تخالف ما رواه ابن هشام فى سيرته ، فالأبيات أشد ترابطا وتماسكا بين أفكارها فى رواية ابن هشام مما يجعلنا لا نرجع هذا الخلل الفنى إلى النظم بقدر ما نعزيه إلى اختــلاف الرواية فى الشعر •

وحسان فى قصيدته هذه يستمد ألفاظه من قاموسه اللغــوى

---

(1) راجع أيضا كتاب : تاريخ الآداب العربية لكارلو نالينو . دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٧٠ م ص ٧٧ .

الذى يحرص على الفخامة والجزالة ، ولذلك مال إلى استعمـــال الكلمات المعجمية التى تحتاج فى فهمها إلى العودة إلى معاجم اللغة لأنه أصبحت بعيدة عن استعمالنا الآن مثل : أجأنا ، النمل — بفتح الميم — ، والخطى — والأكدر ، سلاح — بضم السين — ، والعصل، والحجل ، وحناظيل ، وحنان — بكسر الحاء وتشديد النون —، والفرط — بضم الفاء — والرسل — بفتح السين — وهذا يوضح أثر البيئة فى شعر حسان بن ثابت وتمكنه من لغة القوم وما فيها من أســـماء للأماكن والحيوانات والطيور وغيرها • كما أن تصويره للقوم وهم يساقون إلى سفح الجبل ومسارعة بعضهم إلى الهروب فى الشعب كجماعات الإبل المرسلة إثرها حى إثر بعض فى تزاحم وتواثب وتشبيه خروج الأكدر من أعجازهم بروث الإبل التى تأكل العصل فتسلخها وتخرج منها بلون أحمر • وتصوير انهزامهم بإفلات الحجل من الشراك لا تلوى على شىء ، أو كجماعات الجراد التى انتشرت فى الأرض ، أو بجماعة الجن التى خرجت مرتاعة • وتشبيه جموع المشركين فى بدر بالإبل المهملة التى لا نظام فيها ، وتشبيه جنـــود المسلمين فى شجاعتهم ولقائهم أعدائهم بأسد الطل • هذه الصور الجزئيـــة التى استعان بها الشاعر على توضيح أفكاره ورسم صور للمواقف التى تحدث عنها مستمدة من بيئة الشاعر البدوية التى تربى فيها وتأثر بها تأثرا عظيما حتى كانت تحت ناظريه فى جميع أقواله وما يتجه إليـــه من تصوير فنى •

٥ ــ كلهم مات حر البــلاء

قال كعب بن مالك [١] يبكى حمزة بن عبد المطلب وقتلى أحد من المسلمين :

نشجت وهـــل لــك من منشــج
وكنــت متـــى تذكـــر تلجـــج [٢]
تذكـــر قـــوم أتـــانى لهـــم
أحـــاديث فى الزمـــن الأعـــوج
فقلبـــك من ذكرهـــم خـافـق
من الشـــوق والحـــزن المنضج
وقتـــلاهمو فى جنـــان النعيـم
كـــرام المداخـــل والمخـــرج
بمـا صبـروا تحت ظـل اللـواء
لواء الرســـول بذى الأضـــوج [٣]

---

(١) كعب بن مالك : هو كعب بن مالك بن أبى كعب . أبوه مالك بن أبى كعب شاعر ، وقـد اشتهر بيت كعب بالشعر كما اشتهر بالعـلم والحديث . أسلم كعب مبكرا فكان من أوائل الأنصار فى المدينة ، فما أن وصل نور الإسلام إلى يثرب حتى أضاء جوانب نفسه وانشرح صـدره للإسلام ، وكان كعب مع وفد مكة فى العقبة الثانية وبايعوا هنـاك على الإسلام . حارب كعب أعـداء الإسلام بلسانه ، ودافع عنه بشـعره وسيفه ، اشترك مع الرسول فى جميع المشاهد الا غزوتى بدر ، وتبوك ، وكان شاعرا مجودا مطبـوعا خصوصا فى وصف الحـرب . له ديوان مطبوع . روى الواقدى أنه مات سنة ٥٠ هـ ، وهو قول أغلب المؤرخين ، وكان عمره آنذاك سبعة وسبعين عاما . راجع : ديوان كعب بن مالك الأنصارى دراسة وتحقيق سامى العانى ــ مكتبة النهضة ببغداد ١٩٦٦م، وحسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة تأليف : مفتى هرسك مطبعة دار السعادة ١٣٢٤ هـ ص ١٣١ .

(٢) نشجت : بكيت . تلجج : من اللجج ، وهو الإقامة على الشىء والتمـادى فيـه .

(٣) الأضوج : ــ بضم الواو ــ جمع ضوج ، وهو جانب الوادى ، والأضوج : ــ بفتح الواو ــ اسم مكان قرب أحد بالمدينة .

غداة أجابت بأسيافها
جميعا بنو الأوس والخزرج

وأشياع أحمد إذ شايعوا
على الحق ذى النور والمنهج (١)

فما برحوا يضربون الكماة
ويمضون فى القسطل المرهج (٢)

كذلك حتى دعاهم مليك
إلى جنة دوحة المولج (٣)

فكلهم مات حر البلاء
على ملة الله لم يحرج (٤)

كحمزة لما وفى صادقا
بذى هبة صارم سلجج (٥)

فلاقاه عبد بنى نوفل
يبربر كالجمل الأدعج (٦)

فأوجره حربة كالشهاب
تلهب فى اللهب الموهج (٧)

ونعمان أوفى بميثاقه
وحنظلة الخير لم يجنج (٨)

---

(١) شايعوا : تابعوا . المنهج : الطريق الواضح .

(٢) الكماة : الشجعان . القسطل : الغبار . المرهج : الذى علا وارتفع فى الجو .

(٣) المولج : المدخل .

(٤) حر البلاء : خالص الاختبار . لم يحرج : لم يأثم .

(٥) بدى هبة : يعنى سيفا . وهبة السيف : وقوعه فى العظم . سلجج : مرهف حاد .

(٦) عبد بنى نوفل: هو وحشى قاتل حمزة. يبربر : يصيح بما لايفهم. الجمل الأدعج : الأسود .

(٧) أو جره : طعنه فى صدره . الشهاب : القطعة من النار . الموهج : الموقد .

(٨) لم يحنج : لم يصرف عن وجهه الذى أراده من الحق ونعمان: هو نعمان بن عمرو ، أو ابن مالك بن ثعلبة ، وكلاهما من الأنصار وقد استشهدا فى أحد . حنظلة الخير : هو حنظلة بن أبى عامر (الغسيل) راجع قصته ص ١٠٤ من هذا الكتاب .

عن الحـــق حتى غـــدت روحــه
إلى منـــزل فاخـــر الـــزبرج (١)

أولئـــك لا من ثـــوى منكمـــو
من النـــار في الدرك المرتـــج (٢)

فولا لكعب يثنى البكا ...

فأجابه ضرار بن الخطاب الفهرى فقال :

أيجـــزع كعـــب لأشيـــاعه
ويبـــكى من الزمن الأعـــوج

عجيـــج المـــذكى رأى إلفـــه
تروح فـــى صـــادر محنـــج (٣)

فـــراح الروايـــا وغـــادرنه
يعجعـــج قســـرا ولـــم يحدج (٤)

فقـــولا لكعـــب يثنى البـــكا
وللنيء مـــن لحمـــه ينضـــج

لمصـــرع إخـــوانه فى مكـــر
من الخيـــل ذى قســـطل مرهج (٥)

---

(١) الزبرج : الوشى ، أى فاخر الزينة .

(٢) الدرك : الأسفل . المرتج : المغلق . وراجع الأبيـــات فى : السيرة النبوية لابن هشام ١٣٨/٢ ، البداية والنهاية ٥١/٤ ، والروض الأنف ١٠٦/٦ ، والسيرة النبوية ١٠٤/٣ ، وســيرة النبى ٦٤٧/٣ ، وديوان كعب بن مالك الأنصارى ص ١٨٨٧ ، وحسن الصحـــابة فى شرح أشعار الصحابة ص ٢٠٢ .

(٣) العجيج : الصياح . المذكى . أكثر ما يقال ذلك فى الخيـــل ، والمراد بها هنا : المسن من الإبل . الصادر : الجماعة الصادرة عن الماء . محنج : أى مصروف عن وجهه الذى أراده .

(٤) الروايا : الإبل التى تحمل المـــاء . يعجعج : يصوت . قسرا : قهرا . لم يحـــدج : لم يجعل عليه الحدج ، وهو مركب من مراكب النساء .

(٥) القسطل : الغبار . المرهج : المرتفع .

فياليت عمرا وأشياعه
وعتبة فى جمعنا السورج (١)

فيشفوا النفوس بأوتارها
بقتلى أصيبت من الخزرج (٢)

وقتلى من الأوس فى معرك
أصيبوا جميعا بذى الأضوج (٣)

ومقتل حمزة تحت اللوا
ء بمطرد ، مارن ، مخلج (٤)

وحيث انثنى مصعب ثاويا
بضربة ذى هبة سلجج (٥)

بأحد وأسيافنا فيهمو
تلهب كاللهب الموهج

غداة لقيناكمو فى الحديد
كأسد البراح فلم تعنج (٦)

بكل مجلحة كالعقاب
وأجرد ذى ميعة مسرج (٧)

فدسناهمو ثم حتى انثنوا
سوى زاهق النفس أو محرج (٨)

قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لضرار .

---

(١) السورج : المتقد .
(٢) الأوتار : جمع وتر ، وهو الثأر .
(٣) معرك : مكان المعركة .
(٤) المطرد : الذى يهتز ، ويعنى به رمحا . المارن : اللين . المخلج : الذى يطعن بسرعة .
(٥) مصعب : هو مصعب بن عمير قتل فى غزوة أحد ، بعد أن قاتل دون رسول ا‎* ، وكان الذى قتله ابن قميئة الليثى ، وهو يظن أنه رسول الله (ص) ولذلك رجع إلى قريش يقول لهم : قتلت محمدا .
(٦) البراح : المتسع من الأرض . لم تعنج : لم تكف ولم تصرف .
(٧) مجلحة : الماضية المتقدمة ، ويعنى بها فرسا . الأجرد : الفرس العتيق . الميعة : النشاط .
(٧) المحرج : المضيق عليه . وراجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ١٣٩/٢ ، وما أحلنا عليه من مراجع فى النص السابق .

الدراسة والموازنة :

١ — الموقف الخامس من مواقف المباراة الفكرية فى أحد بين كعب بن مالك وضرار بن الخطاب . أما كعب فإنه يبكى بكاء حارا ينعى شهيد الإسلام وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب الفارس الجسور، الذى أثخن وجهاء قريش بالقتل فى بدر ، وروع صفوفهم ، مما دفع بأعدائه إلى التخطيط لقتله ، والإعداد للقضاء عليه ، فاغتيل غدرا وخيانة بيد آثمة مأجورة فى أحد .

ولذلك نجد لوعة المسلمين عليه ، وحزنهم الأليم لفراقه ، حتى رأينا الرسول (ص) يأسى عليه ويحزن حزنا عظيما مما دفعه إلى أن يقول : « ... لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم (١) » ولما رأى المسلمون حزنه (ص) وغيظه على من فعل بعمه ما فعل ، قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب (٢) ولما وقف عليه (ص) قال : لن أصاب بمثلك أبدا ، ما وقفت موقفا قط أغيظ إلى من هذا ! ثم قال : جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وأسد رسوله (٣) .

وكعب فى قصيدته هذه إنما يترجم عن حزن الأمة ، ولوعتها على أسد الله ، وأسد رسوله (ص) ويبكى معهم السيف البتار الذى ثلم، ولذلك نراه يبدأ قصيدته بسؤال تحسرى ينم عن لوعته وأساه فيخاطب نفسه متسائلا : هل لك من سبب يحملك على البكاء ، وتتمادى فى إهراق الدمع ؟ ويسارع بالإجابة قائلا : إن بكائى دفع إليه تذكر قوم

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ٩٥/٢ ، ٩٦ .

(٢،٣) السابق والصفحة . وقد نزل بعد ذلك نهى الله عن المثلة والتمسك بالصبر فى قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به .... » الآيات ١٢٦ — ١٢٨ من سورة النحل . فعفا رسول الله (ص) وصبر ونهى عن المثلة . راجع السابق والصفحة .

فى هذا الزمن الذى أتى بما يسوءه ويؤلمه ، فالقلب من ذكرهم يخفق بالشوق إليهم ويمتلىء بالحزن الأليم عليهم ، وإن أنعـم الله على قتلاهم بالجنة ونعيمها المقيم جزاء ما قدمت أيديهـم فى سبيل رفع راية الإسلام ، والانضواء تحت لواء الرسول (ص) مجاهدين منافحين عن دين الله . ثم أخذ يتحدث عن امتثالهم لأوامر الرسـول (ص) والدفاع المخلص فى سبيل الدعوة الإسلامية حتى أحرزوا الشهادة فكلهم مات حر البلاء على ملة الله الحنيفية مبرأ من الذنوب والآثام .

وأعطى المثل الرائد فى هذا الكفاح والاستشهاد بحمزة رضوان الله تعالى عليه الذى كان وفيا صادقا مع عقيدته ودفاعه حتى غدر به عبد بنى نوفل — وحشى — وطعنه بحربته القاتلة . ثم أعطى مثالا آخرا لهذا العطاء السمح والتضحية الكريمة من الصحابة الأجـلاء كالنعمان بن عمرو ، أو ابن مالك وهما من الأنصـار الذين نصروا الرسول (ص) وأيدوه بالنفس وما ملكت أيمانهم ، وحنظلة بن أبى عامر —الغسيل — الذى خرج ليلة عرسه فأبلى بلاء حسنا فى أحـد ثم استشهد فغسلته الملائكة من الحدث الأكبر الذى لم يتمكن من الاغتسال منه عندما دعا الداعى إلى المعركة فهؤلاء الأبطال فازوا بنعيـم الله المقيم بعكس قتلى قريش الذين مصيرهم الدرك الأسفل من النـار ، وبئس المصير . وأبيات حسان بن ثابت التالية تتـلاقى مع بعض معانى وأفكار هذه القصيدة لأن الشاعرين يعبران عن فكر إسـلامى مشترك ومن الحقائق الثابتة فيه أن الجنة هى جزاء المجاهدين المؤمنين ، والنار مثوى الكافرين الضالين . يقول حسان فى قصيدة يهجو بها عبد الله بن الزبعرى ويتحدث عن مواقف الدفاع والتضحيـة يوم أحـد :

فإن تذكـروا قتلى وحمـزة منهمـو
قتيـل ثوى لله وهو مطيـع

فإن جنـان الخلد منـزلة بهـا
وأمر الذى يقضى الأمـور سريع

وقتـــلاكمو فى النار أفضل رزقهم
حميم معـــا فى جوفهـــا وضريع (١)

٢ ــ أما ضرار فإنه يتشفى فى القتلى من المسلمين ، ويسخــر من كعب لجزعه مما حدث فى أحد مؤكدا شراسة جنــد المشركين ، وضراوة قتالهم حتى أثخنوا المسلمين بالقتل وانتقمــوا لقتلى بدر • فيبدأ قصيدته بسؤال توبيخى لكعب عما هو فيه من جزع وبكاء ، ثم يجعل بكاءه هديرا وصياحا وصراخا يدفع به الفزع والرعب ، وكأنه عجيج الإبل التى احتواها الفزع وشملها الرعب بعد أن وجدت نفسها وحيدة مفردة تركها ركبها وانصرف إلى وجهة أخرى •

ثم يتجه إلى مخاطبة رفيقيه على عادة الشاعر الجاهلى القديم طالبا منهما أن يطلبا من كعب أن يثنى البكـــاء وأن يستمر فيه لأن مصيبته فادحة ، والنازلة مروعة • ثم يتمنى أن لو كان عمرو بن هشام ــ أبو جهل ــ وأتباعه ، وعتبة بن ربيعة ممن قتلوا فى بدر،موجودين فى ذلك الجمع الذى زحف على المسلمين فى أحــد وانتقم لهم حتى يشفوا نفوسهم برؤية هؤلاء القتلى الذين تهاووا من الأوس والخزرج وسقطوا صرعى فى ميدان المعركة • ثم قتل حمزة بن عبد المطلب تحت اللواء ، وكذا مصعب بن عمير • ثم أنهى قصيدته بتسجيــل شجاعة قومه وشدة بأسهم فى معركة أحد حتى كان لهم التفوق والغلبة •

٣ ــ والقصيدتان ــ كما جرت عليه النقائض ــ متفقتــان فى الوزن ــ والقافية والروى • وعليهما طابع العصر من اللجـــوء إلى الأسلوب السهل الذى يحرص على رقة اللفظ ، والبعد عن الألفـــاظ الحوشية ، وإن وجدنا لدى الشاعرين كثيرا من الألفـــــاظ المشتركة المستوحاةمن البيئة البدوية•والشاعر ان قد استعملا الألفاظ والتعابير الآتية : الزمن الأعوج ، والقسطل الرهج، صارم سلجج ، وذو هبة سلجج ، واللهب الموهج ، إلى جانب استعمال كعب : دوحة المولج ،

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٩ .

يبربر كالجمل الأدعج ، فأوجره حربة كالشهاب • كما استعمل ضرار : عجيج المذكى ، فراح الروايا وغادرنه يعجعج ، كأسد البراح ، بكل مجلحة كالعقاب وأجرد ذى ميعة مسرج ، وهذا يعكس أثر البيئة الواضح فى لغة الشاعرين كما نجد صور الشاعرين أيضا مستوحاة من البيئة ، فعبد بنى نوفل — وحشى — عند كعب بن مالك يبربر كالجمل الأدعج فى هجمته الشرسة على حمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه ، ومنزل حنظلة فى الجنة فاخر الزبرج • أما كعب فإن بكاءه عجيج الإبل المرتاعة لدى ضرار ، وأسياف المشركين فى أحد تلمع كاللهب الموهج ، وهم فى المعركة كأسد البراح ، وكالعقاب ، وكالجواد القوى المسرج • وهذه الصور الجزئية قد أضفت على معانى الشاعرين كثيرا من الجدة وساهمت فى إيضاح أفكارهما ونقلها إلى المتلقى فى صورة قوية تنبض بالحيوية ، وتتدفق بالأحاسيس والمشاعر الصادقة التى تترجم عن نفس انفعلت انفعالا قويا بما يلفها من أحداث ، وماهى فيه من صراع محتدم •

كما نرى التأثر الواضح بالتعاليم الإسلامية فى أبيات كعب بن مالك ، فقتلى المسلمين فى جنان النعيم ، بما صبروا فى الجهاد ، والامتثال لأوامر الرسول ، وأحمد يدعو إلى الحق ، ومن مات منهم مات حر البلاء على ملة الله الحنيفية ، وقتلى الكافرين فى الدرك الأسفل من النار •

أما ضرار فإنه فرح سعيد بما حل بالمسلمين فهو يدعو كعبا إلى الاستمرار فى البكاء لأن الخطب جسيم ، وهو يتمنى أن لو كان قتلى بدر قد حضروا مشهد أحد كى يشفوا نفوسهم بالثأر لهم من قتلوهم ، وهو سعيد مغتبط بقتل حمزة ومصعب بن عمير مع من قتلوا من الأوس والخزرج الذين وقفوا مع الرسول (ص) وناصروه • وهو يتيه فخرا وعجبا بقوتهم الكاسرة التى حققت التفوق على المسلمين وانتصفت لقتلى بدر •

وقد تقاربت النقيضتان فى عدد أبياتهما ، كما أن البناء الفنى لهما قد تقارب من حيث تسلسل الأفكار وترابطها ، والاعتمـــاد على الصور الجزئية المستوحاة من البيئة كما اهتم الشاعران بالفكرة دون اللجوء إلى البهرج اللفظى ولذلك عكست كل من القصيـــــدتين حالة الشاعرين النفسية ، وأكدت الصدق الفنى فى التعبير والتصوير ٠ وقد تميزت قصيدة كعب عن قصيدة ضرار بما سرى فيها من الروح الإسلامية والتأثر الواضح بالمضمون الإسلامى الجديد ٠

٦ ـ هل أتى أم مالك أحاديث قومى ؟ !

قال ابن الزبعرى في يوم أحد ، يبكى القتلى :

ألا ذرفت من مقلتيك دموع
وقد بان من حبل الشباب قطوع (١)

وشط بمن تهوى المزار وفرقت
نوى الحى دار بالحبيب فجوع (٢)

وليس لما ولى على ذى حرارة
وإن طال تذراف الدموع رجوع

فذر ذا ولكن هل أتى أم مالك
أحاديث قومى والحديث يشيع (٣)

ومجنبنا جردا إلى أهل يثرب
عناجيج منها متلد ونزيع (٤)

عشية سرنا فى لهام يقودنا
ضرور الأعادى للصديق نفوع (٥)

نشد علينا كل زغف كأنها
غدير بضوح الواديين نقيع (٦)

فلما رأونا خالطتهم مهابة
وعاينهم أمر هناك فظيع

---

(١) ذرفت : سالت ، تقول ذرفت عينه : إذا سال دمعها . بان : ظهر .

(٢) شط : بعد . المزار : الزيارة . النوى : الفراق والبعد . فجوع : صيغة مبالغة من الفجيعة .

(٣) ذر : دع واترك . الحديث يشيع . يفشو وينتشر .

(٤) مجنبنا : مصدر ميمى من قولهم : جنبت الفرس ، إذا قدتها ولم تركبها ، أى قودنا . الجرد : جمع أجرد ، وهو العتيق من الخيل . العناجيج : الطوال الحسان . المتلد . الذى ولد عندك . النزيع : الغريب .

(٥) اللهام : الجيش الكثير العدد . ضرور : صيغة مبالغة من الضر . نفوع : صيغة مبالغة من النفع .

(٦) الزغف : الدرع اللينة . الضوج : جانب الوادى . نقيع : مملوء بالماء .

وودوا لو ان الأرض ينشق ظهـرها

بهـم وصبـور القـوم ثم جـزوع

وقـد عـريت بيض كـأن وميضهـا

حـريق ترقى فى الأباء سـريع (١)

بأيماننـا نعـلو بهـا كـل هامـة

ومنهـا سمـام للعـدو ذريع (٢)

فغـادرن قتلى الأوس عاصبة بهـم

ضبـاع وطيـر يعتفين وقـوع (٣)

وجمـع بنى النجـار فى كل قلعـة

بأبدانهم مـن وقعهـن نجيـع (٤)

ولولا علو الشعب غادرن أحمـدا

ولكن عـلا والسمهـرى شروع (٥)

كمـا غادرت فى الكـر حمزة ثاويا

وفى صدره ماضى الشباة وقيـع (٦)

ونعمـان قد غـادرن تحت لـوائه

على لحمـه طير يجفن وقوع (٧)

بأحـد وأرماح الكمـاة يردنهـم

كمـا غال أشطـان الدلاء نزوع (٨)

---

(١) الوميض : الضوء . الاباء : الأجمة الملتفة الأغصان .

(٢) الذريع سريع القتل لا يبقى على شاربه .

(٣) عاصبة بهم : لاصقة بهم مجتمعة عليهم . ضباع : ضرب من السباع . يعتفين : يطلبن رزقهن .

(٤) القلعة : الماء فى اعلى الوادى . النجيع : الدم .

(٥) الشعب : الطريق فى الجبل . السمهرى : الرماح . شروع : مائلة للطعن .

(٦) شباة كل شىء : حده . وقيع : محـدد .

(٧) يجفن : اى يدخلن جوفه ، أو يطلبن ما فى جوفه ، وفى سائر الأصول « يحفن » اى يقعن على لحمه فلا يغادرنه .

(٨) الكماة : الشجعان . غال : أهلك . الأشطان : الحبال . النزوع ، بضم النـون — جذب الدلو وإخراجها من البئر ، والنزوع (بفتحها) المستقى . وراجع الأبيـات فى السيرة النبـوية لابن هشام ١٤١/٢ ، والروض الأنف ١٠٨/٦ ، السيرة النبوية ١٠٥/٣ . وسيره النبى ٦٤٩/٣ ، والاكتفاء ١٢٥/٢ .

فأجابه حسان بن ثابت ، فقال :

أشاقك من أم الوليد ربوع
بلاقع ما من أهلن جميع (١)
عفاهن صيفى الرياح وواكف
من الدلو رجاف السحاب هموع (٢)
فلم يبق إلا موقد النار حوله
رواكد أمثال الحمام كنوع (٣)
فدع ذكر دار بددت بين أهلها
نوى لمتيتات الحبال قطوع (٤)
وقل إن يكن يوم بأحد يعده
سفيه فإن الحق سوف يشيع
فقد صابرت فيه بنو الأوس كلهم
وكان لهم ذكر هناك رفيع
وحامى بنو النجار فيه وصابروا
وما كان منهم فى اللقاء جزوع (٥)
أمام رسول الله لا يخذلونه
لهم ناصر من ربهم وشفيع

---

(١) الربوع : جمع ربع وهو المنزل . بلاقع : جمع بلقع وهو القفر الخالى . جميع : مجتمعون مؤتلفون .

(٢) عفاهن : غيرهن ودرسهن . الواكف : المطر السائل ، ومن الدلو : برج من أبراج السماء . رجاف : يرتجف ، أى متحرك مصوت ، يعنى محت الرياح والأمطار آثار أحبابه . هموع : سائل .

(٣) الرواكد : جمع راكدة وهى الثابتة ، وأراد بها الأثافى ، وهى الحجاره التى كانوا ينصبونها لوضع القدور عليها . كنوع : أى لاصقة بالأرض وقد رواها ديوان حسان : « وقوع » .

(٤) روى ديوان حسان « بدلت » مكان « بددت » ، والشطر الثانى هكذا : « نوى ، فرقت بين الجميع قطوع » ، النوى : البعد . المتيتات : الغليظات الشديدات . قطوع :شديدة القطع . وأراد هنا بالحبال الوصال والاجتماع بين الأهل والمحبين .

(٥)روى الديوان « وضاربوا » بدلا من « وصابروا » .

وفوا إذ كفرتم ياسخين بربكم

ولا يستوى عبد وفى ومضيع (١)

بأيديهمو بيض إذا حمش الوغى

فلا بد أن يردى لهن صريع (٢)

كما غادرت فى النقع عتبة ثاويا

وسعدا صريعا والوشيج شروع (٣)

وقد غادرت تحت العجاجة مسندا

أبيا وقد بل القميص نجيع (٤)

بكف رسول الله حيث تنصبت

على القوم مما قد يثرن نقوع (٥)

أولئك قوم سادة من فروعكم

وفى كل قوم سادة وفروع (٦)

بهن نعز الله حتى يعزنا

وإن كان أمر ياسخين فظيع (٧)

---

(١) روى الديوان « عبد عصى ومطيع » بدلا من « عبد وفى ومضيع » « سخين » : ترخيم سخينة ، وكانت قريش تسب بها . وكانت تأكل لحم الخنزير وهى عصيدة تعصد بشيء من دقيق وقديد ، ويصب عليها لبن وزبد . ولم يكن أحد يأكلها الا قريش ومجاشع بن دارم ، وإنما تؤكل فى الجدب وشدة الدهر .

(٢) روى الديوان : بأيمانهم بدلا من « بأيديهم » ، وحمس بدلا من « حمش » . حمش : اشتد . الوغى : الحرب . يردى : يهلك .

(٣) روى الديوان الشطر الأول هكذا : « كما غادرت بالنقع عثمان ثاويا » والمراد بعتبة أو عثمان شخص واحد هو عثمان بن أبى طلحة . وسعد هو سعد بن أبى طلحة أخو عثمان . قتل حمزة بن عبد المطلب عثمان ، وقتل سعد بن أبى وقاص سعدا . النقع : الغبار . الوشيج : الرماح . شروع : مائلة للطعن .

(٤) العجاجة : الغبار . أبى : هو أبى بن خلف اصابه النبى (ص) بحربة كانت فى يده فكانت سبب هلاكه . نجيع : الدم .

(٥) روى الديوان : « حتى تلقفت » بدلا من قوله « حيث تنصبت » . نقوع : جمع نقع وهو الغبار .

(٦) لم يذكر الديوان هذا البيت .

(٧) روى الديوان الشطر الأول هكذا : بهن يعز الله حين يعزنا .

فلا تذكروا قتلى وحمـــزة فيهمـو
قتيـل ثـوى لله وهـو مطيـع (١)

فإن جنـــان الخلـــد منـــزلة له
وأمر الذى يقضى الأمـــور سريع

وقتلاكمـو فى النـار أفضل رزقهم
حميـم معـا فى جوفهـا وضريـع (٢)

قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان وابن الزبعرى .

التحليـــل والدراســـة :

هذا هو اللقاء السادس فى المباريات الفنية فى أحد وهو هنـا بين ابن الزبعرى وشاعر الرسول حسان بن ثابت ويبدأ ابن الزبعرى قصيدته بمقدمة شاجية يتحدث فيها عن بكائه ودموعه التى يذرفهـا ثخينة بعد أن نأى الأهل والأحبة عنه ، وشط المزار ، وفرقت أحداث الزمان بينه وبينهم مذكرا نفسه بأن البكاء لا يجدى ولا يعيد مافات ولذلك يطلب منها أن تترك الدموع والحديث فيمـا مضى من أمر ، ولنتحدث عما كان فى الأمس القريب والأحاديث التى يرددها الناس هذه الأيام متسائلا فى سخرية لاذعة : هل بلغ أم مالك الأحاديث التى يتناقلها الناس فى هذه الأيام وتتردد فيما بينهم ؟ ! ثم أخـذ يعرض لهذه الأحاديث وهى توجه قريش بجيشها الجرار وما تسلحت به من قوة وأسلحة إلى أهل يثرب الذين هالهم ما رأوا وتملكهم الفزع ، من هول ما شاهدوا وودوا لو أن الأرض ينشق ظهرها بهم ولا يشتركون معهم فى لقاء ، ثم أخذ يتحدث عن أسلحتهم ومضائها وما فعلوه بها

(١) روى الديوان : فان تذكروا بدلا من « فلا تذكروا » .

(٢) ضريع : نبات أخضر يقذف به البحر . راجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ١٤٢/٢ ، ديوان حسان ثابت ص ٩٧ ، وسيرة النبى ٦٥٠/٣ ، والروض الأنف ١٠٩/٦ ، والاكتفاء ١٢٦/٢ ، والسيرة النبوية ١٠٦/٣ .

فى خصومهم من ضرب للهام ، وإصابة سريعة لهم ، ثم غادروهم وقد خلفوا قتلى الأوس تجتمع الطير والسباع من حولهم تنهش جسومهم وتتواثب عليها تشبع جوعها ، كما تركوا قتلى بنى النجار وصرعاهم بأعلى الوادى قد تضرجت فى دمائها ، ثم يذكر أنهم كانوا على وشك النيل من رسول الله (ص) ووصولهم إليه لولا علو الطريق فى الجبل وحيلولته بينهم وبينه وصعود الرسول إلى أعلى الجبل ويذكر بمن كان فى مقدمة القتلى من الصحابة الأجلاء كحمزة ونعمان وقدتركوهم بأحد صرعى وطعاما للطير بعد أن تناوشتهم رماح أبطالهم وصرعتهم، كما تقطع القوة حبل السقاء أثناء جذب الدلو من البئر وإخراجه منه•

أما حسان فإنه يسأل ابن الزبعرى سؤالا توبيخيا مقرعا له على شجوه على آله وذويه الذين عفا عليهم الزمن ، موضحا أن الرياح والأمطار قد محت آثارهم ، ودمرت ما كان من أمرهم ، ولم يعد لهم وجود ، أو يبق من أثر ، سوى موقد النار بأحجاره التى أخنى عليها الزمن • ولهذا فلا يصح لعاقل أن يتباكى على ما كان ، ويعكف على ذكر ديار فرقت الأحداث العظيمة بين أهلها وشتت جمعها • ولتترك أيها الشاعر ذلك جانبا واجعل حديثك عما نحن فيه من أحداث وعليك أن تقـــر بالواقع وتعترف بالحقائق لا أن تشتط فى غلوائك وتذهب إلى القول بأن يوم أحد كان لكهم انتصفتم فيه لقتلاكم فى بدر ، فالثابت الذى لا يمارى فيه عاقل أن بنى الأوس والنجار قد التفوا حول الرسول ينافحون ويدافعون عنه ويبذلون أقصى طاقاتهم فى بطولة وشجاعة لا يعرف الخور أو الضعف سبيلا إلى قلوبهم وكان ذلك وفاء لعهودهم ومواثيقهم التى عاهدوا الله عليها ، فى الوقت الذى كفرتم أنتم بربكم وصرتم فى عنادكم وكفركم •

ثم أخذ يدلل على شجاعة بنى الأوس والخزرج ، وما قدموه فى المعركة من فدائية وانقضاض على الأعداء حتى أثخنوهم بالقتل وهوى من عظمائهم فى المعركة من هوى ، وما كان من إصـــابة أبى بن كعب بسهم رسول الله (ص) الذى كان سببا فى هلاكه ، ثم يذكر لهم أن

هؤلاء الأبطال ليسوا بعيدين عنكم بل هم منكم ، وأبناء فروعكم قد مكنهم الله منكم وأعز الله بهم الإسلام وتصدوا للدفاع عنه وواجهوا الأخطار فى شجاعة وبسالة •

ثم ينهى حسان قصيدته ببيان الفرق الشاسع فى مصير قتلى المعركة وما ينتظرهم ، فجنان الخلد منزلة لحمزة ومن ثوى مثله لله فى طاعة وانقياد لأوامره ، أما قتلى قريش ففى النار أفضل رزقهم حميم وضريع •

الموازنة بين النقيضتين :

١ ـ اشتركت النقيضتان فى بحر الطويل • كما جاءتا على قافية واحدة ، والتزمت كل منهما العين المضمومة رويا لها ، ، كما حرص حسان بن ثابت على بناء قصيدته على نسق قصيدة ابن الزبعرى من حيث الشكل الفنى ، وعرض الأفكار ، وما تحتويه من معانى وآراء • فإذا بدأ ابن الزبعرى قصيدته بمقدمة باكية حزينة ، فإن حسان بن ثابت يبدأ قصيدته بسؤال توبيخى ساخر من هـذا البكاء ، مقرعا لصاحبه الذى انهمر دمعه على آثار بالية ، واجترار ذكريات خالية • وإذا طلب ابن الزبعرى من نفسه كفكفة الدمع والإضراب عن الحديث فيما مضى ، وتوجيه الحديث إلى ما كان من أمر أحد ، وما كان لهم فيها من بطولات ثأرت لهم وانتصفت لقتلاهم ، فإننا نرى حسان بن ثابت يزجر ابن الزبعرى وينهاه عن الحديث عن الديار البالية،وترديد القول فى الأمجاد التى طويت وأن يتوجه بالحديث فى صدق وتقرير للحقائق عما كان فى يوم أحد ، حيث حقق بنو الأوس والخزرج بطولات عظيمة • وإذا ما أخذ ابن الزبعرى يتحدث عن جيشهم الجرار ، وما تسلحوا به من عدة وأثر ذلك على نفوس المسلمين ثم ما كان من أمر هذا التجمع العدائى الذى تفوق فى العدد والعدة من قتل لجماعة المسلمين ومطاردة لهم فى الجبال والشعاب ولم يبرحوا أرض المعركة إلا بعد أن أثخنوهم بالقتل والتصريع ، فإن حسان بن ثابت يدفع ذلك

القول ، ويؤكد على بسالة الأوس وبنى النجار ، وما قدموه من عطاء رحب وتضحيات غالية ، ودفاع مستميت عن الرسول (ص) والدعوة النبوية الشريفة ، وإن قتل المشركون بعضا منهم فإنهم أيضا قد قتلوا من سادة قريش وقادتهم وغادروا أبى بن خلف وغبـــار المعركة منعقد فوقه مخضب فى دمائه ، وهذا يوضح أن المعركة كانت متوازنة فهجمة هنا وهجمة هناك ، وقتل هنا وقتل هناك • ثم يزيد حسان بن ثابت فى أفكاره ما سجله من الموازنة بين نهايات القتلى ، وبيان الجزاء الذى ينتظرهم • فجنان الخلد منزلة لقتلى المسلمين ، ونار الله وحميمهـــا مثوى الكافرين الضالين •

٢ — وقصيدة ابن الزبعرى ، وإن بدأت بمقدمة تقليدية ، هى البكاء على ما اندثر من آثار القوم وما كان من تشتيت أمرهم وضياع عزهم ومجدهم فإنها مقدمة مرتبطة بالموضوع وأفكار القصيـــــدة ، واستطاع الشاعر بما يملك من أدوات الفن أن ينتقل منها إلى موضوع قصيدته فى ترابط وتلاحم بين المقدمة وأفكار القصيدة •

وقد تميزت القصيدتان بالبناء الفنى المحكم ، وتعانق الأفكار ، وتسلسلها ، والبعد عن الاستطراد أو الحشو ، وفى موضوعية كاملة — بعد المقدمة فى القصيدتين — تحدث كل من الشاعرين — حسب اعتقاده وما يدين به — عن معركة أحد ، وما كان من أمرها وما تحقق لكل منهما وما أثبته جنود الفريقين من بسالة وفدائية •

٣ — وقد رأينا اشتراك الشاعرين فى معجمهما الشعرى ، فكثير من الألفاظ والتعابير التى استعملها ابن الزبعـــرى جاءت على لسان حسان بن ثابت • فإذا ما كنى ابن الزبعرى عن القوم بأم مالك فإن حسان بن ثابت يكنى عن قوم ابن الزبعرى ، بأم الوليد ، وإذا قال ابن الزبعرى : ذر ذا ، قال حسان:دع ذكر دار•وإذا قال ابن الزبعرى « والحديث يشيع » قال حسان : « فإن الحق سوف يشيع » وإذا قال ابن الزبعرى : « بأيماننا بيض » قال حسان « بأيديهمو بيض »

وابن الزبعرى يقول : عاينهم أمر فظيع ، وحسان يقول : « وإن كان أمر — ياسخين — فظيع » ووميض السيوف حريق سريع الانتشار عند ابن الزبعرى ، وأمر الله الذى يقضى الأمور سريع عند حسان ابن ثابت .

٤ — وفى القصيدتين معاناة لتجربة حقيقية عاشها كل من الشاعرين بإحساسه ووجدانه ، ولذلك نجد الصدق الفنى والصدق الشعورى فى القصيدتين . إالى جانب ما يشيع فيهما من اعتزاز كل شاعر بما يدين به من فكر ومعتقدات ، وإن كنا رأينا حسان بن ثابت لم يستطع أن يتخلص تماما من العنصرية القديمة التى تلمز القوم وتنال من معايبهم كقوله فى الكناية عن قريش — ياسخين — تحقيرا لها وذراية بأفعالها . وفيما عدا ذلك نرى الروح الإسلامية تنتشر وتشيع أبيات حسان بن ثابت . فقد صابرت بنو الأوس والنجار فى يوم أحد دفاعا عن الرسول ، وفاء بعهدهم ، ورسول الله (ص) يشارك فى المعركة ويصيب أبى بن خلف — عدو الله — بحربته ، وقد أعز الله الإسلام بالأوس وبنى النجار فهم جنوده الأوفياء ، وجنة الخلد مثوى المتقين المجاهدين ، أما نار الله وحميمها وضريعها فنهاية الكافرين المعاندين .

٧ ــ تمنت بنو النجار ــ جهلا ــ لقاءنا

وقال عمرو بن العاص فى يوم أحد (قبل أن يسلم) :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا
مع الصبح من رضوى الحبيك المنطق(١)
تمنت بنو النجار ــ جهلا ــ لقاءنا
لدى جنب سلع والأمانى تصدق (٢)
فما راعهم بالشر إلا فجاءة
كراديس خيل فى الأزقة تمرق (٣)
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا
ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قبابا أومنت قبل ما ترى
إذ رامها قوم أبيحوا وأحنقوا (٤)
كأن رءوس الخزرجيين غدوة
وأيمانهم بالمشرفية بروق (٥)

فأجابه كعب بن مالك فقال :

ألا أبلغا فهرا على نأى دارها
وعندهمو من علمنا اليوم مصدق (٦)

---

(١) الفيفا : القفر الذى لا ينبت شيئا . رضوى : جبل . الحبيك : الذى فيه طرائق . المنطق : المحزم الشديد .

(٢)سلع : اسم جبل فى ظاهر المدينة . وقال الأزهرى : سلع موضع قريب من المدينة .

(٣) كراديس : جماعات الخيل . تمرق : تخرج كما يمرق السهم من الرمية .

(٤) احنقوا : فعل بهم ما يغيظم ويغضبهم ، يريد أنهم أعزة لا يقدر أحد عليهم .

(٥) بروق : نبات له أصول يشبه البصل ، يريد أنهم ضعاف .

وراجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ١٤٣/٢ ، وتاريخ النقائض ص ١٥٠ ، والروض الأنف ١١١/٦ ، والسيرة النبوية ١٠٧/٣، وسيرة النبى ٦٥١/٣ .

(٦) فهر : أصل قريش .

بأنا غـــداة السفح من بطن يثرب
صبرنا ورايات المنيـــة تخفـــق (١)
صبرنا لهم والصبر منـــا سجيـــة
إذا طـــارت الأبرام نسمو ونرتق (٢)
على عادة تلكم جرينـــا بصبرنـــا
وقدما لدى الغايات نجـــرى فنسبق
لنـــا حومة لا تستطـــاع يقـــودها
نبى أتى بالحـــق عف مصـــدق (٣)
ألا هل أتى أفنـــاء فهـــر بن مـــالك
مقطـــع أطـــراف وهـــام مفلق (٤)

الدراســة والتحليــل :

المباراة الفكرية السابعة فى أحد بين عمرو بن العاص — قبل إسلامه — وكعب بن مالك شاعر الرسول (ص) ومن الرعيل الأول من الأنصار • وعمرو فى أبياته الستة يفخر بانتصار قومه فى ذلك اللقاء موضحا قوتهم التى خرجوا فيها من الصحراء فى الصبـــاح الباكر

---

(١) السفح : جانب الجبل . تخفق : تضطرب وتتحول من مكان إلى مـــكان .

(٢) الأبزام : اللئام ، الواحد : برم وهو فى الأصل الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر لبخله ولؤمه ودناءته ثم استعمل فى اللئيم الدنىء . تسمو : ترتفع وتعلو ونرتق : نسد ونصلح .

(٣) الحومة : الجماعة . لا تستطاع : أى لا يتمكن منها أحـــد لشجاعتها وتماسكها . عف : عفيف .

(٤) أفناء القبائل : ما اختلط منهـــا . وراجع الأبيات فى الســـيرة النبوية لابن هشام ٢/١٤٤ ، تاريخ النقائض ص ١٥١ ، والروض الأنف ٦/٢١٢ ، والسيرة النبوية ٣/١٠٧ ، وسيرة النبى ٣/٦٥١ .

(٥) أسلم عمرو بن العاص بعد حوار بينه وبين النجاشى — فى الحبشـــة — وقد ذهب إليه مع جماعة من قومه ليقيموا هناك حتى يتضح أمر محمـــد (ص) ، إلا أنه بعد هذا الحوار عاد قاصدا المدينـــة وفى الطريق التقى بخالد بن الوليد واتفقـــا على الاســـلام ثم قدما على رسول الله (ص) فأعلن كل منهما إسلامه وبايع الرسول (ص) . وكان ذلك قبيل فتح مكة . راجع السيرة النبوية ٢/٢٧٦ وما بعدها .

ساخرا من بنى النجار الذين تمنوا لقاءهم إذا بهم أمام جيش جرار تنطلق جماعات خيله فى كل مكان وتمرق كما يمرق السهم من الرمية وكانت رءوس بنى الخزرج وأيمانهم حصادا هشا لسيوفهم الماضية وكأنها نبات ضعيف يقتلع من أصوله •

أما كعب فإنه يصور صبر الأنصار — وهو أحدهم — فى أحـــد فى الوقت الذى يصاب اللئام بالفزع والرعب ، ويذكر عادتهم فى السبق إلى المكارم والمحامد التى هى عادتهم وطباعهم ، ثم يؤكد على اعتزازهم برسول الله (ص) وشمائله الفاضلة •

وبالمقارنة بين أبيات عمرو ، وأبيات كعب التى تساوت عددا ، وجاءت على بحر الطويل نجد أن كلا من الشاعرين قد اتجه إلى الفخر بأبناء قومه والإشادة بما هم عليه من خصال • فعمرو يؤكد على قوتهم وشجاعتهم ، وما كان من غلبة لهم على بنى النجار وبنى الخزرج • وكعب بن مالك ، يبرز طبيعة الأنصار التى جبلوا عليها وهى طبيعـــة الصبر وخاصة فى الشدائد واشتداد الخطوب ، وقيادة الرسول لهم فى شجاعة وترابط بين الجنود وقائدهم • كما لجأ كل منهما إلى لمز الآخر والتعريض به • فعمرو يصف بنى النجار بسفاهة الفكر لأنهـــا لا تقدر الأمور حق قدرها • وكعب يكنى عن دناءة خصومه ولؤمهـــم بأنهم « الأبرام » وهم الذين عرفوا بين قومهم بعدم المشاركة فى لعب الميسر لبخلهم ولؤمهم ودناءتهم • ومع ذلك فإن فخر عمرو بن العاص يعد أقوى من فخر كعب لأنه يعتمد على نتيجة المعركة وما كان لهم من غلبة وانتصار وظفر فى هذا اليوم الذى هو موضوع المبارزة الأدبيـــة •

٨ ــ أودى الجواد وأودى المطعم الكاسى !

وقالت نعم ، امرأة شماس بن عثمان ، تبكى شماسا [١] ، وكان قد أصيب يوم أحد :

يــا عين جــودى بفيض غير إبســـاس
على كـريم من الفتيـان أباس [٢]
صعب البديهــة ميمــون نقيبتـــه
حمـــال ألوية ركاب أفــراس [٣]
أقول لما أتى النــاعى له جــــزعا
أودى الجواد وأودى المطعم الكاسى [٤]
وقلت لمـا خلت منـــه مجالســـه
لا يبعــد الله عنا قرب شماس [٥]

---

(١) هــو شماس بن عثمـــان بن الشريد بن هرمى بن عامر بن مخزم . وشماس لقب له واسمه عثمان بن عثمان . أسلم أول الإسلام ، وهاجر إلى الحبشة ، وعاد من الحبشة ، وهاجر إلى المدينة وشـــهد بدرا ، وقتل يوم أحد وهو ابن أربع وثلاثين سنة ، وكان رســــول الله (ص) يقول : ما وجدت لشماس شبيها إلا الحية ، يعنى مما يقـــاتل عن رسول الله يوم أحد ، وكان رسول الله (ص) لا يرمى ببصره يمينـــا ولا شمالا إلا رأى شماسا فى ذلك الوجه يقاتل عن رسول الله ويحميــه بنفسه حتى قتل ، راجع أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٥٢٨/٢ ، ٥٧٨/٥ ، وعيون الأثر ٣٥/٢ .

(٢) الإبساس : أن تمسح ضرع الناقة لتدر . وقد استعار هـــذا المعنى للدمع الفائض بغير تكلف . أباس : الشديد الذى يغلب غيره ، وقد رواه أسد الغابة « لباس » وهى صيغة مبالغة للذى يلبس أداة الحرب .

(٣) البديهة: أول الرأى والأمر . ميمون النقيبة : مسعود الفعال . الألوية : جمع لواء ، وهو الراية فى الحرب .

(٤) أودى : هلك . المطعم الكاسى : الجـــواد الذى يطعم النـــاس ويكســــوهم .

(٥) راجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ١٦٨/٢ ، أسد الغـــابة فى معرفة الصحابة ٢٨٢/٧ ، وعيون الأثر ٣٥/٢ ، البـــداية والنهاية ٦٠/٤ ، وسيرة النبى ٦٦٦/٣ ، شاعرات العرب فى الجاهليـــة والإسلام ــ جمع بشير يموت ــ المطبعة الوطنية ببيروت ١٩٣٤ ص ١٢٦

فأجابها أخوها ، وهو أبو الحكم بن سعد بن يربوع ، يعزيها فقال :

اقنى حياءك فى ستر وفى كرم
فإنما كان شماس من الناس [1]
لا تقتلى النفس إذ حانت منيته
فى طاعة الله يوم الروع والباس [2]
قد كان حمزة ليث الله فاصطبرى
فذاق يومئذ من كأس شماس [3]

التحليل والموازنة :

والموقف هنا يختلف تماما عما درجت عليه النقائض ، إذ تعودنا فيما مضى من نقائض أن يكون اللقاء بين شاعر مسلم وآخر كافر. ولكننا فى هذه النقيضة نجد الشاعرين مسلمين ، فتنعى الزوجة زوجها الذى استشهد مع من استشهد من المسلمين فى أحد ، وتذرف عليه الدمع الثخين ، فيبادر أخوها بمواساتها وتعزيتها فى فقيدها طالبا منها الصبر والتأسى بشهيد الإسلام حمزة بن عبد المطلب واحتسابه عند الله .

وفى أبيات نعم نحس باللوعة على الزوج الذى كان فى مقتبل عمره حيث استشهد وهو ابن أربع وثلاثين ، ويلقانا فى أبياتها إعزاز الزوجة وتقديرها لصفات الزوج الكريمة ، فهو فتى كريم ، شجاع قوى الشكيمة ، سريع البديهة صائب الرأى ، مسعود الفعال ، صاحب قتال وتمرس به ، وهو الجواد المطعم الكاسى .

---

(١) أقنى حياءك : الزمى حياءك . وقد جعلها كتاب شعر الدعوة الإسلامية تحت عنوان : صبرا أختاه .
(٢) يوم الروع : يوم الفزع ، وهو يوم البأس والقتال .
(٣) راجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ١٦٨/٢ ، والروض الأنف ١٣١/٦ ، وعيون الأثر ٣٥/٢ ، والبداية والنهاية ٦٠/٤ والسيرة النبوية ١٢٤/٣ وسيرةالنبى ٦٦٦/٣ ،وشعرالدعوة الإسلامية ص ٤٦٩ .

وفى تماسك الرجال ، والصبر على المصيبة يطلب الرجل من أخته أن لا تخرج عن كريم خصالها وألا تستسلم للبكاء والنواح على فقيدها ، ولتعرف أن شماسا لم يكن سوى رجل حارب فى صفوف المسلمين ، استجابة لدعوة الله ورسوله (ص) ، وأدى واجبه فى طاعة الله حتى استشهد ، وكتب فى سجل الخالدين الذين تقدمهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب وليث الله الذى ذاق كأس شماس •

والأبيات تنم عن عاطفة صادقة تحملها إلينا ألفاظ نعم وتعابيرها الشاجية الحزينة ، التى تغص بالشكوى وتنضح بالألم وتعتصر فؤاد الزوجة الملتاعة لفقد بعلها صاحب الشيم والأخلاق الرفيعة وفيها الروح الإسلامية التى تحرص على عدم الوقوع فيما يغضب الله عند وقوع المصائب ، فليس فى الأبيات لعن للزمن أو الدهر ، أو لطم للخدود وشق الجيوب ، وإنما هو بكاء فياض على رجل كريم صاحب شيم وطباع حميدة •

الفصـــل الرابع

النقائض فى عامى أربع وخمس من الهجرة

أولا ــ إجــلاء بنى النضــير :

شبت معركة أحد وانتهت ــ بما كان فيها من أحداث ومد وجزر ــ فى يوم واحد هو يوم السبت للنصف من شعبان من السنة الثالثة للهجرة . ونادى أبو سفيان وهو فى طريقه إلى مكة : إن موعدكم بدر للعام القابل ، فقال رسول الله (ص) لرجل من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد (1) .

وقبل ذلك الموعد ، حدثت وقائع وغزوات كان أهمها إجلاء بنى النضير عن المدينة المنورة سنة أربع من الهجرة . فقد كان بين بنى عامر والرسول (ص) عقد وجوار . ولذلك لما قتل عمرو بن أمية الرجلين اللذين نزلا معه بظل وهما من بنى عامر ظنا منه أنه أصاب بذلك ثأرا لقتلى بئر معونة الذين حاربهم عامر بن الطفيل وأتباعه وقتلوهــم جميعا . لما قتلهما ذهب إلى الرسول (ص) وأخبره بما حدث فقــال له الرسول (ص) لقد قتلت قتيلين لأدينهما . وخرج رسول الله (ص) إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين ــ وكــان بين النضير وبنى عامر عقد وحلف ــ فدبروا مؤامرة لقتله وهو جالس فى انتظار ما وعدوا به من مساعدة ، إلا أن الله أطلع نبيه على ما دبروا فتركهم وانصرف قافلا إلى المدينة ، فلما عاد بعده أصحابه الذين رافقوه إلى بنى النضير ، أخبرهم بما كانت تدبر له اليهود من الغدر به ، وأمر (ص) بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم .

وفى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة نزل بهم وحاصرهم ست ليال (2) ، فتحصنوا فى الحصون فى انتظار النصرة مــن حليفهــم

---

(1) راجع نهاية الأرب ٩٩/١٧ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٩٤/٢
(2) وقال الواقدى خمسة عشر ليــلة .

عبد الله بن أبى بن سلول الذى وعدهم بالوقوف بجانبهم ، إلا أنه لم يفعل ، وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، فسألوا رسول الله (ص) أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقل به الإبل ، وأخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم ويحملون على دوابهم ما يستطيعون وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام (1) .

وقد رافق الشعر تلك الأحداث وسجل جوانب كثيرة منها ، واتجه فيما يتجه إلى هجاء المسلمين لليهود ، وتعرية ما هم عليه من غدر وخيانة ، وما طبعوا عليه من طبع ماكر لئيم ، وفى الجانب الآخر نرى اليهود يدفعون عن أنفسهم ما يتهمهم به المسلمون ، ويتباكون على ما حل بهم فى حزن وألم دفين ، وقد خص موضوع النقائض فى أمر إجلاء بنى النضير ثلاثة مواقف ارتفعت حرارة الصدام بين الفريقين فى أحدها إلى أربع خصومات أو أربع قصائد لاهبة ، كل يهاجم ويرفض ما ادعاه الخصم ، ويجتهد فى أن يتفوق عليه ويؤكد خلاف ما ذهب إليه .

---

(1) راجع تفاصيل أحداث بئر معونة وإجلاء بنى النضير فى : السيرة النبوية لابن هشام ١٨٣/٢ — ١٩٥ ، وسيرة النبى ٦٧٧/٣ — ٦٨٦ ، ومعارك الإسلام فى العصر النبوى — مطبعة السعادة بالقاهرة ص ١٩٨ والروض الأنف ٢١٠/٦ وما بعدها ، وفتح البارى شرح صحيح البخارى — دار المعرفة بيروت ٣٣٠/٧ ، ٣٣١ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، وشرح سورة الحشر التى نزلت بكاملها فى شأن بنى النضير . ونهاية الأرب ١٣٧/٧ ، وأيام العرب فى الإسلام ط ٤ دار إحياء الكتب العربية ص ٥٦ .

١ ـ وأصبح أحمد فينا عزيزا

قال ابن اسحق : وقال على بن أبى طالب : يذكر إجـــلاء بنى النضير ، وقتل كعب بن الأشرف (١) :

عـــرفت ومن يعتـــدل يعـــرف
وأيقنت حقـــا ولم أصـــدف (٢)
عن الحكـم المصـــدق آياتهـــا
من الله ذى الرأفـــة الأرأف (٣)
رســـائل تدرس فى المؤمنين
بهـن اصطفى أحمـــد المصطفـى
فأصبـح أحمـــد فينـــا عـزيزا
عـزيز المقـــامة والمـــوقف
فيـــأيهـــا الموعـــوده ســـفاها
ولـــم يأت جـــورا ولـــم يعنـف
ألستـــم تخـــافون أمـــر العـــذاب
وما آمـــن الله كالأخـــوف (٤)
وأن تصرعـــوا تحت أسيافنـــا
كمصرع كعـــب أبى الأشـــرف (٥)

---

(١) قال ابن هشام : قالها رجل من المسلمين غير على بن ابى طالب فيما ذكر بعض أهل العلم بالشعر ، ولم ار واحدا منهم يعرفهـــا لعلى ، وكعب بن الأشرف . أمه من بنى النضير ، وكان من أشرس اعداء الدعوة المحمدية ، واكثرهم إيذاء للمسلمين ، قتله مجموعة من المسلمين بعد بدر . راجع معلومات وافية عنه ص ٤٨ من هذا الكتاب .

(٢) لم أصدف : لم اعرض .

(٣) روى ابن هشام هـــذا البيت هكذا :
من الكلم المحكم اللاء من لدى الله ذى الرافة الأراف

(٤) روى ابن هشام « أدنى العذاب » مكان « أمر العذاب » .

(٥) جاءت « أسيافه » مكان « أسيافنا » عند ابن هشام .

غـــداة تـــراءى لطغيـــانه

وأعـــرض كالجمـــل الأجنف (١)

فأنـــزل جبـــريل فى قتـــله

بـــوحى إلى عبـــده الملطـف (٢)

فـدس الرســـول رســـولا له

بأبيــض ذى ظبـــــة مرهف

فبـــاتت عيـــون له معـــولات

متى ينـــع كعب لهـا تـذرف (٣)

فقـــالوا لأحمـد ذرنـا قليـــلا

فـإنا مـن النـوح لـم نشـتف (٤)

فأجلاهمـــو ثم قال اظعنـــوا

فتـوحا على رغمـــه الآنـف (٥)

وأجـلى النضيـــر إلى غـــربة

وكانـــوا بـدارة ذى زخـــرف (٦)

إلى أذرعـــات ردافـاهمـــو

عـلى كـل ذى دبر أعجـف (٧)

---

(١) روى ابن هشام الشطر الأول هكذا : « غداةَ رأى الله طغيانه ». الأجنف : المائل إلى جهة .

(٢) أورد ابن هشام : « عبده ملطف » بدلا من « عبده الملطف » .

(٣) معولات : باكيات بصوت . ينعى : يذكر خبر قتـله : تـذرف : تسـيل بالدموع .

(٤)روى ابن هشام صدر البيت : « وقلن لأحمد » .

(٥) رواه ابن هشام هكذا:

فخلاهمو ثم قال اظعنوا دحورا على رغم الآنف

اظعنوا : ارحلوا . الدحور : الذل والهوان . على رغم الآنف : على المذلة ، يقال : أرغم الله أنفه إذا أذله ، ورغم رغما ـ بفتح الغين وسكونها ـ أنفه لله : ذل وخضع عن كره ، ولا توجد فى اللغة « رغمة » وبذلك تكون رواية ابن هشام أدق .

(٦) قال ابن هشام : « وكانوا بدار ذوى زخرف » . الغـربة : الاغتراب ، وبفتح الغين : البعد . الزخرف : الزينة وحسن التنعم .

(٧) جاءت « ردافاهمو » عند ابن هشام « ردافى وهم » . أذرعات : موضع بالشام ، ردافا : أى مرتدفين بعضهم بعضا وكذا معنى « ردافى » . ذو دبر أعجف : يعنى جملا ، دبر : جرح ، والأعجف : الهزيل . وهذه ـ

فإلا أمت نأتكم بالقنـــا

فأجابه سماك اليهودى فقال (١) :

إن تفخــــروا فهــو فخــر لــكم
بمقتـــــل كعـــب أبى الأشــــرف
غـــداة غـــدوتم على حتفــه
ولــم يأت غـــدرا ولم يخلــف
فعـــل الليالى وصرف الدهـــور
يديل من العــــادل المنصــف (٢)
بقتـــل النضيـــر وأحلافهـــا
وعقـــر النخيـــل ولــم تقطف (٣)
فإن لا أمت نأتكــم بالقنـــــا
وكـــل حســــام معـــا مرهف
بكــف كمـــى بـــه تحتمـــى
متى يلـــق قـــرنا لـــه يتلـــف (٤)
مع القـــوم صخـــر وأشيـــاعه
إذا عاور القـــوم لم يضعـــف (٥)

= الأبيات حسب ما ورد فى ديوان الإمام على ص ٨٧ ــ جمعوترتيب : عبد العزيز الكرم ــ دار كرم ــ لبنان ، وراجعها فى السيرة النبوية لابن هشام ٦٨٧/٢ ، والســيرة النبوية ١٤٢/٣ ، وتاريخ النقــائض فى الشــعر العــربى ص ١٥٢ .

(١) لم يذكرها ابن كثير ، ولكنه أشار اليها بقوله : « وتركنا جوابها ــ يعنى جواب قصيدة على بن أبى طالب ــ أيضا منسمال اليهودى قصدا » راجع البداية والنهاية ٧٩/٣ . وقد ورد اسم سماك « سمال » عند ابن كثير وغيره وهو تحريف .

(٣) أحلاف : أصحاب جمع حلف ، ويروى وإجلائها : يعنى وإخراجها النبى (ص) .

(٣) أحلاف : أصحاب جمع حلف ، ويروى وإجلائها : يعنى وإخراجها من بلادها . لم تقطف . لم يؤخذ ثمرها . ويروى بكسر الطاء أى لــم يبلـــغ زمن القطـــاف .

(٤) القرن : المقارن والمماثل فى القتال .

(٥) صخر : هو أبو ســفيان بن حرب .

كليث بترج حمى غيله
أخى غابة هاصر أجوف (1)

مع النقيضتين :

١ ـ هذا هو الموقف الأول فى المواجهة بين المسلمين وطائفة اليهود من بنى النضير الذين كانوا فى عهد الرسول (ص) وجوار منه لكنهم ـ على ما جبلوا عليه من غدر وخيانة ـ لم يستطيعوا الوفاء بعهدهم ، واستغلوا فرصة زيارة محمد (ص) لهم وخلا بعضهم إلى بعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ وكان الرسول (ص) جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ إلا أن السماء تبلغ الخبر إلى رسول الله وتحفظه من كيد الكائدين ، وكان هذا دليلا جديدا على حقد اليهود وكراهيتهم للرسول وأتباعه • وأمام هذه المؤامرة الدنيئة يضطر الرسول (ص) إلى إعلان الحرب على هؤلاء المارقين الناكثين للعهد والميثاق وتأديبهم على فعلتهم الشنعاء ، ويخرجهم فى ذلة وانكسار من حصونهم وإلى خارج المدينة وقد تركوا أموالهم وديارهم غنيمة للمسلمين وصدق الله العظيم حيث يقول : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار (2) » •

وإذا كانت الأبيات المنسوبة إلى الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ قد بدأت بتأكيد عقيدة المسلمين الراسخة وقناعتهم الكاملة برسالة محمد ، حتى أصبح عزيزا فى قومه محاطا بأفئدتهم ورعايتهم ، فإنها

---

(1) ترج : جبل بالحجاز ينسب إليه الأسود . الغيل : اجمة الأسد . الهاصر : الذى يكسر فريسته إذا أخذها . الأجوف : العظيم الجوف . وراجع الأبيات فيما أحلنا إليه من مراجع فى نقيضتها السابقة ما عدا : ديوان الإمام على .

(2) أول سورة الحشر .

تأخذ فى مهاجمة الكفار المارقين الذين يعادون صاحب الدعوة الذى جاءهم بالحق ودعاهم إليه بالحسنى ثم يوجــه الشاعر نظرهم إلى ما ينتظرهم من عذاب مقيم ، وما سيجرهم إليه كفرهم من حرب دامية يكون مصيرهم فيها القتل والتمزيق كما حدث لعدو الله المارق ابن أختهم كعب بن الأشرف الذى كان عبرة لكل المارقين الخارجين على حدود الله ، لم ينفعه جبروته ، أو يدفع عنه الهلاك بغيــه وعناده ، وكان قتله طعنة نجلاء لكم تذرفون عليه الدمع الثخين ، وتبكون عليه البكاء المر • ومع ذلك لم تتبينوا الطريق ، وأعماكم الضلال ، وطمس الحقد على قلوبكم حتى تفتحت عيونكم على تلك الحقيقة المفجعة وهى إخراجكم من دياركم وأموالكم ، وأرغمتم إرغاما على تخريب بيوتكم بأيديكم وخرجتم إلى حيث الضياع والتشريد الذى ينتظر كل الضالين الغــــادرين •

وهذه الأبيات التى ينفى ابن هشام أنها للإمام على بن أبى طالب ، وأن الذى قالها رجل من المسلمين غير على بن أبى طالب ، وأنه لم ير واحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها لعلى ، على الرغم من أن ابن إسحق نسبها إلى الإمام على ، وقد أثبتها جامع ديوانه فيما نسب إليه من شعر مؤكدا أنه لم يثبت فى هذا الديوان إلا ما وجده منسوبا إليه من الأشعار فى الدواوين والكتب المعتبرة الموثوق بصحتها والمطبوعة فى بلاد كثيرة ، والتى لا يختلف أهل السير فى صحة نسبتها إليه[1] على الرغم من ذلك كله فإن بساطة الأسلوب وضحالته ، وعدم الدقة فى التعبير فى بعض أساليبها ، وما تميزت به الأبيات من سرد عادى للأحداث والمواقف يقوى رأى ابن هشام ، ويدفع إلى الأخــذ به ، اذ لا يتفق هذا الأسلوب مع بلاغة الإمام على كرم الله وجهـــه ، وأسلوبه الجزل ذى التعبير الدقيق والتصوير الرائع ، مما رأيناه فى كتابه « نهج البلاغة » وما قرأناه له من خطب فى أعلى درجات البيان،

---

(١) مقدمة ديوان الإمام على ص ٥ .

ونرجح مع ابن هشام أن يكون هذا الشعر لرجـل من المسلمين غير علي بن أبي طالب .

أما أبيات سماك اليهودى فإنها تسفر عن حقد دفين وكراهيـة غير محدودة لمحمد وأتباعه وتشير إلى غدر المسلمين بكعب . فيرجو سماك فيها أن تتهيأ الفرصة له وتسنح الأيام بالاقتصاص من صاحب الدعوة الذى يدعونه بالعادل المنصف الذى قتل بنى النضير وأحلافها وأنزل بها العذاب الأليم ، وقطع نخيلها الذى لم يثمر بعد ، وما أثمر منه لم يتركه حتى تطيب ثماره ، ويقسم أنه إذا امتد عمره سينال من المسلمين ويعمد إليهم مع قريش بجنودهم وأسلحتهم ينازلونهـم وينقضون عليهم كليوث جبل ترج التى تحمى عرينها وتغتال كل من يتوجه إليها بشر .

٢ ـ وفى الأبيات المنسوبة لعلى بن أبى طالب تطالعنا الروح الإسلامية السمحة ، المنبثقة عن اقتناع برسالة الحق ، والعـدل ، المنافحة عن الرسالة المحمدية ، الداعية إلى استعمال العقل والتفكير المستقيم حتى ينجو الإنسان من عذاب الله ، ولا يعرض نفسه للهلاك والضياع . أما أبيات سمـاك اليهودى فتنبىء عن نفس جبلت على العنـاد ، وطبعت على الحقد والكراهية ، لا تفكر إلا فى الانتقـام ، ولا تسعى إلا إلى تأجيج نار العداوة وإضرامها فى قلوبقومهوذويه، وتسعى جاهدة إلى النيل من محمد وأتباعه وتجميع الجموع للقتـال والنزال « فالمعانى متقابلة متوازنة ، تتركز من الجانبين حول الغدر والعدوان والتربص [1] » وإن كانت أبيات سماك أقوى أسلوبا وأمتن صياغة ، وأشد تماسكا من الأبيات المنسوبة إلى على بن أبى طالب ، وألفاظها منتقاة مختارة وتجمعها عاطفة واحدة هى عاطفة الألم الدفين لما حدث لقومه والكراهية الحاقدة ، لمحمد ودعوته ومن والاه بينمـا

---

(١) تاريخ النقـائض ص ١٥٣ .

نجد أبيات على تميل إلى البساطة فى التعبير ، واللفظ السهـــل ، والأساليب المسطحة التى لا تحمل فى مضمونها معنى جديدا ، أو فكرا رائعا ، كما أن الربط بين الأبيات ضعيف حتى أنه يمكن استبعاد بعض الأبيات أو تقديمها دون إخلال بالفكرة أو نيل من الصياغة .

وهاتان النقيضتان تلتقيان فى كثير من المعـــانى والأفكار التى عرضت لهما النقيضتان التاليتان بل إن ما جاء هنا على لسان سمـــاك اليهودى قد تكرر فى مضمونه وجانب من ألفاظه فى قصيدته التالية مما توضحه الدراسة التالية .

٢ ــ لقد خزيت بغدرتها الحبور !

وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بنى النضير ، وقتل كعب بن الأشرف :

لقد خزيت بغدرتها الحبور
كذاك الدهر ذو صرف يدور (١)

وذلك أنهم كفروا برب
عزيز أمره أمر كبير

وقد أوتوا معا فهما وعلما
وجاءهمو من الله النذير

نذير صادق أدى كتابا
وآيات مبينة تنير

فقالوا ما أتيت بأمر صدق
وأنت بمنكر منا جدير

فقال بلى لقد أديت حقا
يصدقنى به الفهم الخبير

فمن يتبعه يهد لكل رشد
ومن يكفر به يجز الكفور

فلما أشربوا غدرا وكفرا
وحاد بهم عن الحق النفور (٢)

أرى الله النبى برأى صدق
وكان الله يحكم لا يجور

فأيده وسلطه عليهم
وكان نصيره نعم النصير

---

(١) الحبور : جمع حبر ، وهو العالم ، ويريد بهم علماء اليهود وجمع أيضا على أحبار .

(٢) وحاد بهم ، اى مال بهم ، وابن كثير يرويها مع غيره « وجدبهم »

فغــــودر منهمــو كعب صريعــــا

فذلت بعــد مصرعــه النضيــر (١)

على الــكفين ثم وقــــد علتــــه

بأيدينــــا مشهـــــرة ذكـــــور (٢)

بأمـــــر محمــــــد إذ دس ليـــــلا

إلى كعــب أخا كعــب يسيــر (٣)

فمـــاكــره فـــأنزلــه بمــــكر

ومحمــــود أخــو ثقــة جســـور

فتلك بنـــو النضيـــر بدار ســـوء

أبارهمــو بما اجترمــوا المبير (٤)

غـــداة أتاهمــــو فى الزحف رهوا

رسول الله وهو بهــم بصيــر (٥)

وغســــان الحمــــاة مــــوازروه

على الأعـــداء وهولهــم وزير (٦)

فقــال السلــم ويحكمــو فصــدوا

وحالف أمرهــم كــذب وزور (٧)

فــذاقــوا غب أمرهمـــو وبـــالا

لكــل ثــلاثة منهـــم بعيـــر (٨)

---

(١) كعب : هو كعب بن الأشرف اليهودى .

(٢) مشهرة ذكور : سيوف مسلولة من اغمادها ، قوية قاطعة .

(٣) أخو كعب : هو سلكان بن سلامة ، أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة، وقد اشترك مع محمد بن مسلمة وبعض المسلمين فى قتـــل كعب بن الأشرف .

(٤) أبارهم : أهلكهم . اجترموا : كسبوا وفعلوا .

(٥) الرهو : المشى فى سكون .

(٦) غسان : الأنصار .

(٧) السلم : الصلح . حالف : صاحب . وفى سائر الأصـــول « خالف » بالخـــاء المعجمة .

(٨) الوبال : النــكال .

وأجلـــوا عامـــدين لقينقـــاع
وغـــودر منهمـــو نخـــل ودور (١)

« أرى الأحبار تنكره جميعا »

فأجابه سماك اليهودى فقال (٢) :

أرقت وضـــافنى هــم كبيــر
بليــل غــيره ليــل قصـــير (٣)
أرى الأحبـــار تنكـــره جميعـــا
وكلهمـــو لــه علـــم خبيـر
وكـــانوا الدارسين لكــل علـــم
بـــه التـــوراة تنطـــق والزبـــور
قتلتـــم سيـــد الأحبـار كعبـــا
وقومـــا كـــان يأمـــن مـــن يجيـــر
تدلى نحـــو محمـــود أخيـــه
ومحمـــود سريرته الفجـــور
فغـــادره كـــأن دمـــا نجيعـــا
يســيل عـــلى مدارعـــه عبـــير (٤)
فقد — وأبيكمو وأبى ، جميعـــا —
أصيبت إذ أصيب بـــه النضيـــر

---

(١) عامدين : قاصدين . قينقاع : قبيـلة من اليهـود . وراجـع الأبيات فى : ديوان كعب بن مالك ص ٢٠٣ ، والسيرة النبوية لابن هشـام ١٩٩/٢ ، والبداية والنهاية ٧٧/٣ ، والروض الأنف ٢١٧/٦ ، وسيرة النبى ٦٨٨/٣ ، والسيرة النبوية ١٤٤/٣ .

(٢) قال ابن كثير : « وقد ذكر ابن اسحق جوابها — يعنى جـواب قصيـدة كعب — لسمال اليهـودى فتركناها قصـدا » راجـع البداية والنهـاية ٧٨/٣ .

(٣) ارقت : امتنع النوم عنى . ضافنى : احتوانى ونزل بى .

(٤) النجيع : الدم الطرى . المدارع : جمع مدرعة وهى ثوب يلبس ، وقال بعضهم : لا تكون المدرعة الا من الصوف .

فإن نســلم لكــم نترك رجــالا
بكعب حولهــم طــير تــدور
كأنهمــو عتــائر يوم عيــد
تذبح وهى ليــس لهــا نــكير (1)
يبيــض لا تليــق لهــن عظمــا
صــوافى الحــد أكثرهــا ذكور (2)
كمــا لا قيتمــو مــن بأس صخــر
بأحــد حيث ليــس لــكم نصير (3)

الدراســة الأدبيــة :

١ — هذه هى الوقفة الثانية مع شعر النقائض فى إجلاء بنى النضير والنقيضتان هنا يصوران بوضوح موقف الفريقين الدينى والسياسى، وتشرب روح الإسلام واليهودية ، وما بينهما من جدل (4) فكعب ابن مالك يهاجم أحبار اليهود الذين ضللوا قومهم ، وهم يعلمون عن يقين بصدق رسالة محمد ، وأنه البشير الصادق الذى جاءت به كتبهم، وأنكروا الرسالة المحمدية ورفضوا دعوته الداعية إلى الخير الهادية إلى الرشاد • فلما أضافوا إلى عصيانهم وكفرهم الغدر والخيــانة وحادوا عن الطريق المستقيم ونكثوا العهود والمواثيق أمر الله نبيــه بأن ينالوا جزاء غدرهم وخيانتهم وأنزل عليه تأييده ونصره ، ثم أعاد كعب إلى الأذهان ما حدث لكعب بن الأشرف وما آل إليه أمره ، ثم سجل ما حل ببنى النضير على أيدى المسلمين بعد أن عرض عليهــم الرسول (ص) السلم والأمان لكنهم غدروا به ونكثوا عهودهم وبذلك كان جزاؤهم الجلاء عن ديارهم وأموالهم فى ذلة وحسرة وألم يدمى قلوبهم ويطعن طموحاتهم •

---

(1) العتــائر : جمع عتيرة . وهى الذبيحــة .
(2) لا تليــق : لا تبقى .
(3) صخر : هو ابو سفيان بن حرب . وراجع الأبيات فيما أحلنــا عليه من مراجع فى سابقتها .
(4) راجــع تاريخ النقــائض ص ١٥٣ .

أما سماك شاعر اليهود فإنه يأرق ويحزن ويحتويه الهم العظيم على ما حدث لقومه ، بل ويصبح ليله ممتدا لا نهار له ، فهو يعيش فى قتام وسوداوية حالكة طمست على قلبه واعتصرت فؤاده ، وهو لا يكاد يصدق ما حدث له ولقومه وقد أنكر الأحبار والكهنة أمر محمد، ولم يعترفوا برسالته ، فكيف يكون له هذه القوة ، وكيف يتأتى له هذا النصر الذى فجعهم فى آمالهم ثم يهاجم المسلمين منددا بفعلتهم الجريئة مع سيد الأحبار كعب بن الأشرف ، وهو — كما يدعى — من أجار الملهوف ، وأمن المرتاع ، ثم يأخذ فى مهاجمة الرسول (ص) فى وقاحة وصلف حيث دبر لقتل كعب وخطط للقضاء عليه ، مؤكدا أن قتله كان فجيعة كبرى لليهود عامة ، ونذيرا بالقضاء عليهم ، وبداية لحتفهم وهلاكهم جميعا ، لكنه لا يستسلم لتلك الهزيمة ، بل يأخذ فى تهديد المسلمين ووعيدهم بأن الأيام القريبة ستجمعهم فى لقاء حاسم، ووقعة حامية تحصد فيها سيوفهم رقابهم ويتركونهم صرعى كالذبائح فى يوم النحر تتجمع الطير عليها ، ملوحا إلى ما كان من أمر أحد وما حل بالمسلمين فيها ، مشيرا إلى أن ذلك اليوم سيعود قريبا على أيدى قومه وعشيرته •

٢ — والنقيضتان على بحر الوافر ، كما اشتركتا فى حرف الروى والقافية الموحدة • وقد طالت قصيدة كعب بن مالك حتى بلغت عشرين بيتا ، بينما اقتصرت أبيات سماك على أحد عشر بيتا • ولغتهما تكاد تتفق كثيرا • حيث مالت الألفاظ إلى السهولة والوضوح، وحرص كل من الشاعرين على البعد عن الألفاظ المهجورة أو الغامضة حتى لنستطيع أن نقول إنها لغة عصرنا الحالى ، وذلك يرجع إلى أن الشاعرين لا يتجهان إلى التصوير أو إلى الإبداع فى الخيال بقدر حرصهما على تسجيل الآثار النفسية التى يشعر بها كل منهما إزاء الفريق الآخر ، وتأكيد ما يذهب إليه من آراء ، والتشنيع على عدوه بما ارتكبه من أفعال ، وما صدر منه من أعمال منافية للمكارم والقيم فى نظر كل منهما • فكعب بن مالك يؤكد على تضليل أحبار اليهود ورهبانهم لقومهم مع يقينهم الراسخ بصدق الرسالة المحمدية وثبوتها لديهم

فى علومهم ومعارفهم ، كما يؤكد أن قتل كعب بن الأشرف كان نتيجة عدائه وتمرده وجبروته • كما أن ما آل إليه أمر بنى النضير من إجلاء وتشرد كان بسبب غدرهم وخيانتهم •

أما سماك فإنه يندد بالهجمة الشرسة التى نزلت بابن الأشرف وكانت من تدبير وتخطيط الرسول محمد (ص) وبأمر منه ، وهم بقتله إنما قتلوا سيدا من سادتهم ، وحبرا من أحبارهم ، وفى الوقت ذاته خسر العرب به ركنا من أركان الأمن والجوار التى كان يلجأ إليهـــا أصحاب الحاجات والخائفون المرتاعون •

كما حرص كعب بن مالك على تأكيد صدق الرسالة ، وثبوتها ، وأن ما جاء به محمد هو الحق ودعوته تستهدف الأمن والحياة الهانئة السعيدة لبنى البشر ، وأن كل صاحب فكر لا بد وأن يقربها ويعترف بصدقها • كما أشار إلى حكم الله العادل فى بنى النضير جزاء غدرهم وكفرهم ، ونصره لنبيه الذى ينفذ حكم الله فى الأرض •

أما سماك فقد حملت ألفاظه همه وحزنه وشقاءه المقيـــم على ما أصاب قومه وما حل بهم • ولذلك نراه يلجأ إلى الإساءة إلى محمد والنيل منه ، وكان هذا السبب الرئيسى فى عزوف ابن كثير وغيره عن تسجيل هذا الشعر ، لأنهم حرصوا على ألا يذكروا شعرا ينال فيه أصحابه من الرسول أو من المسلمين • ثم ينفعل سماك ويشتد غضبه فيأخذ فى التهديد والوعيد والتذكير بما كان من أمر المسلمين فى أحد ، وكأنه يسرى عن نفسه آلامه وأحزانه، ويدعوها إلى الصبر والتأسى• وألفاظ الشاعرين تحمل تلك العواطف وتنقلها إلى المتلقى فى بساطة ووضوح وقد ساعدت الأساليب الواضحة على نقل تلك المشاعر ، وإضفاء الحيوية عليها ، مما يجعل السامع يشارك الشاعرين عواطفهما إيجابا أو رفضا حسب عقيدته وحسب أهوائه مما أضفى على هذ هالأعمال الجودة الفنية •

٢ — لو أن أهل الدار لم يتصدعوا !

وقال عباس بن مرداس (١) أخو بنى سليم يمتدح رجال بنى النضير قبل أن يسلم :

لو أن أهـل الدار لم يتصـدعوا
رأيت خـلال الدار ملهى وملعبا (٢)
فإنك عمـرى هـل أريـك ظعائنـا
سلكن على ركن الشـطاة فتيأبا (٣)
عليهن عـين مـن ظبـاء تبـالة
أوانس يصـبين الحـليم المجربا (٤)
إذا جـاء باغى الخـير قلن فجـاءة
له بوجـوه كالدنانير مرحبـا
وأهـلا فلا ممنوع خـير طلبتـه
ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنبـا

---

(١) العباس بن مرداس : هو العباس بن مرداس بن أبى عامر بن حارثة ... قال ابن سعد عنه : لقى النبى (ص) بالمشلل ، وهو متوجـه إلى فتح مكة ومعه سبعمائة من قومه ، فشهد بهم الفتـح . وذكر ابن إسحق أن سبب إسلامه رؤيا رآها فى صنمه ضمار ، ويقال إنه ممن حرم الخمر فى الجاهلية . وكان من المؤلفة قلوبهم ، ثم حسن إسلامه ، وكان شاعرا محسنا مشهورا بذلك وله اشـعار جيدة فى حنين . وقـد شهد مع الرسول (ص) حنينا أيضا ، وقد سأل عبد الملك بن مروان جلساءه : من أشجع الناس فى شعره ، فتكلموا فى ذلك ، فقال : أشجع النـاس العباس بن مرداس فى قوله :

أكر على الكتيبة لا أبالى … أحتفى كان فيها أم سواها

راجع : الإصابة فى تمييز الصحابة تحقيق طه الزينى — مطبعة الفجالة الجديدة ١٩٧٦ ، ٣٣٠/٥ ، حسن الصحابة فى شرح أشـعار الصحـابة ص ١٠٧ .

(٢) لم يتصدعوا : لم يتفرقوا .

(٣) الظعائن : النساء فى الهوادج . الشطاة : موضع . وفى سائر الأصول « الشظاة » بالظاء المعجمة . تيأب : موضع .

(٤) العين — بكسر العين — : جمع عيناء ، وهى الكبيرة العـين . تبالة : موضع باليمن . يصبين : يذهبن العقل .

فلا تحسبنى كنت مولى ابن مشكم

سلام ولا مولى حيى بن أخطبا (1)

فأجابه خوات بن جبير (2) ، أخو بنى عمرو بن عوف فقال :

تبكى على قتلى يهود وقد ترى
من الشجو لو تبكى أحب وأقربا (3)

فهلا على قتلى ببطن أرينق
بكيت ولم تعول من الشجو مسهبا (4)

إذا السلم دارت فى صديق رددتها
وفى الدين صدادا وفى الحرب ثعلبا (5)

عمدت إلى قدر لقومك تبتغى
لهم شبها كيما تعز وتغلبا

فإنك لما أن كلفت تمدحا
لمن كان عيبا مدحه وتكذبا

رحلت بأمر كنت أهلا لمثله
ولم تلف فيهم قائلا لك مرحبا

---

(1) المولى (هنا) : الحليف والصاحب . وراجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام 2/200 ، والروض الأنف 6/219 ، وسيرة النبى 3/690 ، والسيرة النبوية 3/146 .

(2) خوات : هو خوات بن جبير بن النعمان بن أمية بن امرىء القيس بن ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصارى الأوسى . كان أحد فرسان رسول الله (ص) شهد بدرا هو وأخوه عبد الله بن جبير فى قول بعضهم ، وقيل خرج مع الرسول لكنه وهو فى الطريق أصيبت ساقه بحجر فرجع وضرب له الرسول (ص) بسهمه . وقد روى عن النبى (ص) صلاة الخوف ، و « ما أسكر كثيره فقليله حرام » . توفى رضى الله عنه بالمدينة سنة أربعين ، وعمره أربع وتسعون سنة . راجع أسد الغابة 2/148 كتاب الشعب .

(3) الشجو : الحزن .

(4) أرينق : موضع صوتك بالبكاء . المسهب : المتغير الوجه .

(5) صداد : صيغة مبالغة أى يصد عن الدين والخلق . ثعلب : المراد به صفته وهى كثرة الروغان ، أى لا يصدق فى الحرب .

فهـــلا إلى قوم ملوك مدحتهـــم
تبنوا من العـز المؤثل منصـــبا (١)

إلى معشر صـــاروا ملوكا وكـرموا
ولم يلف فيهـم طالب العرف مجدبا (٢)

أولئك أحـــرى من يهـود بمـــدحة
تراهـــم وفيهم عزة المجـد ترتبا (٣)

فأجابه عباس بن مرداس السلمى فقال :

هجـــوت صريح الكاهنين وفيكمـو
لهم نعـم كانت من الدهر ترتبـــا (٤)

أولئـك أحـــرى لو بكيت عليمـــو
وقومك لو أدوا من الحق موجبـــا

من الشكر إن الشكر خير مغبـــة
وأوفق فعـلا للذى كان أصـــوبا (٥)

فكنت كمن أمسى مقطـع رأســـه
ليبلغ عـــزا كـان فيـــه مركبـا

فبـك بنى هارون واذكـر فعالهـم
وقتلهمـــو للجـوع إذ كنت مجـــدبا

أخـوات أذر الدمع بالدمع وابكهـم
وأعرض عن المكروه منهـــم ونكبا (٦)

---

(١) المـؤثل : القـديم .

(٢) لمجدب : من الجدب ، وهو القحط وقلة الخير .

(٣) ترتب (بضم التاء الثانية وفتحها) : ثابت . والتـاء الأولى فيه زائدة ، وهو من « رتب عند سيبويه » . وراجع الأبيات فيما أحلنـا عليه من مصادر فى نقيضتها السابقة .

(٤) الصريح : الخالص النسب . الكاهنان : قبيلان من يهـــود بالمدينة يزعمون أنهم من ولد هارون عليه السلام ، ويروى « الكاهنين » للجميـــع .

(٥) خير ــ بضم الراء المنونة ــ مغبة ــ على النصب ــ : أى خير فيمـا يستقبل بعـد .

(٦) أذر الدمع . يقال : أذرت العين الدمع صبته . نكب : عرج عنهم

فإنــك لــو لاقيتهــم فى ديارهـــم
لألفيت عمـــا قـد تقول منكبـــا (١)

سراع إلى العليا كرام لدى الوغى
يقال لباغى الخير أهــلا ومرحبـــا (٢)

فأجابه كعب بن مالك ، أو عبد الله بن رواحة (٣) فيما قال ابن هشام فقال :

لعمرى لقد حكت رحى الحرب بعــدما
أطــارت لؤيا قبـــل شرقا ومغربا (٤)

بقيـــة آل الـكــاهنين وعـــزها
فعــاد ذليلا بعــد ما كان أغلبـــا (٥)

فطــاح ســلام وابن سعيـــة عنوة
وقيد ذليــلا للمنايا ابن أخطبـــا (٦)

وأجلب يبغى العــز والذل يبتغى
خـــلاف يديه مــا جنى حين أجلبا (٧)

---

(١) منكب : مائل عن الحق .

(٢) راجع الأبيـــات فى : الســـيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٠٢ ، والروض الأنف ٦/٢٢٠ ، وسيرة النبى ٣/٦٩١ ، والسيرة النبوية ٣/١٤٦

(٣) نقل ذلك أيضا كتاب : حسن الصحابة ... ص ١٣٩ ، والأبيات موجودة فى ديوان عبد الله بن رواحة كما هى مذكورة هنـــا ص ٨١ دراسة وجمع وتحقيق حسن محمد باجودة ، مطبعة الســـنة المحمـــدية بالقاهرة ، وهى مذكورة أيضا فى ديوان كعب بن مالك كما هى هنا ص ١٧٦ تحت عنوان : وقال فى الرد على عباس بن مرداس حين امتدح رجال بنى النضير . وراجع الأبيات أيضا فى السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٠٢ ، والروض الأنف ٦/٢٢١ ، وسيرة النبى ٣/٦٩١ ، والسيرة النبوية ٣/١٤٦

(٤) لؤى : من آباء قريش .

(٥) أغلبا : القوى ، أى البين الغلبة .

(٦) طاح : ذهب وهلك . سلام : هو سلام بن مشكم وكان من سادة بنى النضير ، ولديه ما لهم الذى يجمعونه لنوائبهم وما يعرض لهم . العنـــوة : القهر والذلة .

(٧) أجلب : جمع وصاح معا .

كتــارك سهــل الأرض والحزن همه

وقد كان ذا فى الناس أكدى وأصعبا (١)

وشأس وعــزال وقد صليــا بهـــا

ومـــا غيبـــا عن ذاك فيمن تغيبـــــا (٢)

وعــوف بن سلمى وابن عوف كلاهما

وكعب رئيس القوم حان وخيبـــا (٣)

فبعــدا وســـــحقا للنضير ومثلهـــا

إن اعقــب فتح أو إن الله أعقبـــا (٤)

الدراسة والموازنة :

١ — هنا وقفة ثالثة مع شعر النقائض فى غزوة بنى النضير ، والتى كانت علامة من علامات الغدر والخيانة اليهودية ، واشارة الى رسول الله (ص) باتخاذ الحذر فى معاملة هؤلاء المأفونين الحاقدين ونحن فى هذه الوقفة أمام أربع مواقف متصارعة أولهـا لنصير من نصراء بنى النضير ، ومؤيد لهم فى أفعالهم الشائنة ، وإن تراجــع عن ذلك فيما بعد وثاب الى الطريق الصحيح (٥) ، وانضم الى صفوف الاسلام يدافع عنه ، ويقاتل أعداءه ، • وثانيها رد فارس من فرسان المسلمين ، وصاحب سيف وقلم معا ، ينافح بهما عن الاسلام ، ويذود عنه أعداءه وخصومه وهو الصحابى الجليل خوات بن جبير ، أمـــا الموقف الثالث فهو رفض من صاحب الموقف الأول ابن مرداس لمـا نقض به خوات بن جبير قوله السابق ، ثم يأتى الموقف الرابع ليتدخل عنصر ثالث فى ذلك الصراع ليدسم الأمر ويوضح حقيقة ما حل ببنى

---

(١) الحزن : ما علا من الأرض وغلظ . اكدى : لـم ينجح فى سعيه يقال : اكدى الرجل فى حاجته : إذا لم يظفر بهـــا .

(٢) شأس : هو شأس بن قيس ، أحد وجوه بنى النضير . عزال : أحد يهود بنى النضير ايضا .

(٣) كعب : هو كعب بن الاشرف .

(٤) إن الله اعقبا : أى إن الله جاء بالنصر عليهم .

(٥) راجع ترجمته ص ١٧٧ من هذا الكتاب .

النضير ونصرائهم من هزيمة وإزهاق أرواح ، وما آل اليه أمرهم من خيبة المسعى وسوء المصير •

فعباس بن مرداس يأسى ويحزن لما حل ببنى النضير ، ويتمنى أن لو استمروا على اجتماع رأيهم ، واتحاد كلمتهم ، ولم تتفرق أهواؤهم ، ولم يضعفوا أمام المسلمين ولم ينزل بهم ما نزل ويتذكر ما كان من أمر هذه الطائفة وما كانت عليه من نعيم مقيم ، وما تميزت به نساؤهن من جمال أخاذ وذوق رفيع ، وكرم فياض فهن لا يتجهمن فى وجه طالب خير ، ولا يمنعن عنه طلبا ، فى أنس ووداعة تدخل السعادة والاطمئنان الى قلبه ، ثم يدفع ما يمكن ان يرد على ذهن السامع لهذا المدح من افتراض وجود صداقة أو رابطة ولاء بينه وبين وجهائهم وسادتهم كسلام بن مشكم ، أو حيى بن أخطب دفعت به الى الإشادة بهم والتغنى بمحامدهم ، فإنه ما قال ذلك إلا لأنه الحق وما يراه حقيقة ملموسة لهؤلاء القوم •

٢ ــ وتدور أبيات خوات بن جبير حول أفكار جزئية أهمها السخرية من ابن مرداس الذى يتباكى على يهود بنى النضير ويأسى عليهم ، مع أنه لارابط بينه وبينهم ، فى الوقت الذى أخرس صوته ولم يسمع له أحد قولا فى القتلى من آله وذويه الذين أزهقت أرواحهم فى بطن أرينق • ويتخذ خوات من ذلك منطلقا الى الطعن فى أخلاق ابن مرداس والزراية به مؤكدا انه لا رأى له ، ولا خلق سوى معاداة الدين والصد عنه ، ونبذ السلم ، والتخاذل فى الحرب والفرار منها • ثم يؤكد على ذلك ببيان ما جبل عليه ابن مرداس من المدح الكاذب ، والاشادة بأراذل الناس ، ولهذا فلم يكن مدحه ليهود بنى النضير إلا جريا على عادته ، وسيرا على طبيعته • وفى النهاية يستحثه الى أن ينظر فى مسلكه المعوج ، ولا يمتدح الا أصحاب الخلق ، والمكانة الرفيعة ومن توارثوا العز والمجد فذلك أولى وأكرم من مدح يهود بنى النضير الذين تجردوا من كل خلق كريم •

فكانت هذه الطعنات سهاما مصمية أصابت قلب ابن مرداس ، وأدمت مشاعره ، ولذلك نراه يسارع بالرد على خوات ، ويحاول النيل منه لكن فى تخاذل وإعياء فيأخذ عليه أنه هجـــا يهود بنى النضير وجردهم من المحامد وهو خير من يعلم بمكانتهم على الدهر وما لهم من نعم وأفضال عليه وعلى قومه ، مما يستوجب منه ان يبكى عليهم وان يشاركه أهله فى انهمار الدمع الثخين وفاء منهـــم — اذا كان لديهم وفاء — لأصحاب النعمة والفضل عليهم ، ويستحثه على البكاء على بنى هارون — يهود بنى النضير — وأن يذرى الدمع عليهـــم اعترافا بأياديهم عليه وقتلهم لجوعه وفاقته ، ويناشده الا ينسى ذلك وأن يعرض عن ذمهم وهجائهم ، لأنهم أولو فضل دائم وأصحاب محامد لا تنكر .

ويتدخـل كعب بن مالك : أو عبـد الله بن رواحـــة ، لفض ذلك الاشتباك الساخن ، وذلك بتقرير الواقـــع الذى أصبح ماثلا للعيان ولا يحتاج الى جدال واختلاف فى رأى . فيقرر أن الواقع يؤكد ويثبت قضاء الحرب على قريش ومن والاهم ، ثم على بقية آل الكاهنين وعلى عزهم وما كان لهم فى غابر الزمان من مجد وسؤدد ، وأصبح زعماؤهم وقادتهم فى عداد الهالكين أمثال سلام بن مشكم وابن سعية ، وابن الأخطب ، وشأس وعزال ، وعوف بن سلمى وكعب ابن الأشرف ممن تمادوا فى غيهم ، وجدوا فى عداوتهم للإسلام ، وعملوا على الصد عنه والنيل منه ، فخـــاب مســعاهم ، وطاشت سهامهم ، ولم يجنوا إلا هلاكهم ودمارهم . فبعدالهم ولآلهم وسحقا لأتباعهم ومن صار على نهجهم .

٣ — وبالموازنة بين هذه القصائد الاربع التى اشتركت فى الوزن الواحد — بحر الطويل — والقافية الموحدة وحرف الروى نجـد أن الشعراء الثلاثة قد صدروا فى أفكارهم عن مشاعر صادقة ، وترجموا عن وجداناتهم وأحاسيسهم الذاتية ، بل انهم قـد عبروا عن رأى الجماعة ، وعكسوا أمام القارىء والسامع فكر كل فريق ورأيه فيما جرى من أحداث ليهود بنى النضير . فعباس بن مرداس — الكافر

فى ذلك الحين ــ يأسى ويحزن مع قريش واليهود جميعهم على ما حل ببنى النضير وتكاد بذوب قلوبهم حزنا وألمـا لمـا آل اليه أمرهم ، وينعون فيهم الفضل والمعاملة الحسنة والمكانة الرفيعة • أما خوات وابن رواحة فهما سعيدان مع جماعة المسلمين بنصر الله الذى مكنهم من هؤلاء الغادرين ممن لا عهد لهم ولا ميثاق ، ويريان أن ما حل بهم إنما هو الجزاء العادل لكل من آذى رسول الله (ص) وناصبه العداء مؤكدين نصر الله لجنده وأتباعه ، وهزيمة المشركين الضالين ، ويؤكدان ان الأمر ليس عصبية عمياء أو تغنيا بمكانة أوجاه ، انما هى العقيدة الحقة ، والدين القويم ، والانقياد لمبادىء الخير والحق والفضيلة•

والنقائض الأربع تعتمد على الجدل والمناقشة وابداء الأسباب التى دفعت الشعراء الى نظم قصائدهم والمشاركة فى هذه المواجهة الساخنة ، فابن مرداس يرجع أسباب حزنه على ما حل بيهود بنى النضير إلى ما عرف عنهم من صفات نبيلة ومعاملة حسنة ، وموادعة ، واستجابة للخير ، مما جعله يأسف لما صار اليه حالهم • أما خوات فإنه يرى فيما قال ابن مرداس تملقا ونفاقا ، وجريا على طبع وضيع هو المدح الكاذب ، وتصيدا لحالات تشبه حالة قومـــه المطحونين المهزومين كى يتخذ من ذلك التشابه تخليدا لعز ، أو بعثا لمجد ضائع له ولقومه • ويرفض ابن مرداس ذلك الادعاء موضحا أن شـــكر النعمة ، والاعتراف بالجميل انما يوجبان على خوات أن يأسى لمـا حل ببنى النضير ويبكيهم بحار البكاء فهم أصحاب نعمة وفضـــل سابغ عليه وعلى قومه ، وإدارة ظهره لهؤلاء القوم وجحود فضلهم انما هو عقوق ووصولية غير كريمة • أما كعب من مالك أو ابن رواحة فإنه يدعو الى ترك ما كان وضرورة الاعتراف بالواقع ومعايشته مهما كان مؤلما وقاسيا فأبناء اليهود من بنى النضير قد طحنتهم الحرب مع من أهلكت قبلهم من قريش ، وأذلت الوجهـــاء والعظماء من آل الكاهنين ، واصبحوا فى عذاب مقيم تطحنهم الهزيمة ، ويطاردهـــم التشرد •

٤ ــ والمقطوعات الأربع على مستوى واحد من الجودة الفنية

ففيها العاطفة الصادقة ، والأحاسيس الدافقة بمعتقدات الشـــاعر وأفكاره ، ووحدة المشاعر وحيويتهـــا ، والتعبير الدقيق ، والفكر المترابط ، والتجانس اللفظى ، واختيار الالفاظ التى تحمل المعانى فى وضوح وجلاء ، كما أنها تعكس معتقدات الشعراء حتى ليمكن أن ننسب كل قصيدة الى الجماعة التى ينتسب اليها الشاعر دينيا ، وهى جميعها تمثل الصراع الأبدى بين الحق والباطل ، وبين الكفر والإيمان ، وبين العصبية العميـــاء والتحزب المقيت ، وبين الفكر الواعى والاستجابة لدواعى الخير ونوازعه وهى صورة حقيقيـــة لصراع نشب واستمر فى حقبة من الزمن ترسم جوانب منه فى دقة، وتطلعنا على ما كان من أمر هؤلاء المعاندين الذين جدوا فى عدائهم للدعوة المحمدية ، وسعوا فى سبيل التحزب المقيت من أجل تكوين جبهة رافضة للحق ، مناهضة للخير ، ولكن الله رد كيدهم فى نحورهم وكتب العزة لدينه وجنوده ، وأذل المعاندين الضالين .

ثانيا : غزوة بدر الآخرة :

توعد أبو سفيان بن حرب المسلمين فى ختام معركة أحـــد ، بالعودة فى العام القادم ، وقد أجابه صوت من المسلمين — بأمر من الرسول (ص) — بأن الموعد فى العام القادم [1] ولذلك حرص الرسول (ص) على الخروج فى شعبان من السنة الرابعة على رأس خمســة وأربعين شهرا من الهجرة فى ألف وخمسمائة لميعاد أبى سفيـــان ، ونزل بدرا ، ولم تكن قريش بمعزل عما آل إليه أمر المسلمين خـــلال ذلك العام المنصرم . فقد غنموا أرض اليهود وديارهم بالمدينة المنورة فأصبحوا ملاكا حقيقيين ، بعد أن كانوا أضيافا ينزلون على الرحب والسعة لدى الأنصار ، وكان ذلك خليقا بأن يدفع بالبهجة والاطمئنان إلى نفوس المسلمين ، ويزيل ما كان بهم من آثار أحد ويجعلهـــم يستعيدون ما فقدوه عقب أحد ، من بواعث الراحة والاطمئنـــان . وكان على أبى سفيان أن ينفذ وعده ليبدو فى صورة المنتصر الذى

---

(١) راجـــع ص   من هـــذا الكتاب .

بملك إعلان الحرب أو إمهالها ، ولئن تناسى وعده لتكون دلالة هذا التنـــاسى واضـــحة مفهومة ، فإن معنـــى ذلك أن قريشـــا تخشى اللقاء ، وأنهـــا ما كادت تصـــدق أنهـــا انتصـــرت فى أحد ، حتى أدركتها الوساوس الجازعة حذرا من يوم مقبل يذكرهم بمآساتهم فى بدر • لهذه العوامل مجتمعة كان ابو سفيان مترددا فى الخروج ، لكنه اضطر لذلك حتى لا ينكشف أمره ، فخرج مع قومه فى تخاذل وتردد فى جيش عدته ألفا رجل • وانقسم القوم بين مؤيد للمسير ، ورافض له وأن يرجع الناس وذلك أهون أثرا من أن تدور عليهم الدوائر فتعيد عليهم حسرة بدر • ولذلك قرر أبو سفيـــان الرجوع بعد أن بلغ عسفان — بضم العين — ووقف فى الناس خطيبا فقال : يا معشر قريش تعلمون أن العام عام جدب ، وأن النفوس قلقة غير مستريحة ، وإنى راجع فارجعوا ، ثم ثنى لجام دابتـــه ومشى القهقرى فتبعه الناس ، وكأنهم تخلصوا من شر وبيء •

وأقام الرسول (ص) ببدر ثمانى ليال ، فلما جاءته الأنباء بنكوص قريش على عقبها حمد الله على ذلك وعاد مع أصحابه متوجهـــا إلى المدينة (١) •

وقد قال عبد الله بن رواحة فى ذلك — قال ابن هشام : أنشد فيها أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك :

وعـــدنا أبا سفيـــان بدرا فلم نجـــد
لميعـــاده صـــدقا وما كان وافيـــا
فأقســـم لو وافيتنـــا فلقيتنـــا
لأبت ذميمـــا وافتقـــدت المواليـــا

ثم ذكر أربعة أبيات تالية لهما (٢) • وقد حظيت النقـــائض من

---

(١) راجـــع ذلك بالتفصيل فى السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٩/٣ ، والروض والأنف ٥٨/٦ ، والبداية والنهاية ٨٨/٤ ، وسيرة النبى ٦٩٦/٣ ، ومعارك الإسلام فى العصر النبوى ص ٦٥ ونهاية الأرب ١٥٤/١٧ .

(٢) راجـــع الأبيات كاملة فى المراجع الأربعة الأولى المذكورة سابقا ، وديوان عبد الله بن رواحة ص ١٠٩ وديوان كعب بن مالك ص ٢٩١ ، ونهـــاية الأرب ١٥٦/١٧ .

هذه الجولة بموقف واحد بين حسان بن ثابت وأبى سفيان بن الحارث أبن عبد المطلب (1) نعرض لهما فيما يلى :

أقمنـــا على البئر النزيع لياليا

قال حسان بن ثابت فى ذلك :

أقمنـــا على الرس النزيع لياليـــا

بأرعن جـــرار عظيـــم المبـــارك (2)

بكل كميت جـــوزه نصف خلقـــه

وقب طـــوال مشـــرفات الحوارك (3)

---

(1) هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم . ابن عـــم النبى ، وكان أخا له فى الرضاعة ، أرضعتهما حليمة السعدية . وكان أبو سفيان من الشعراء المطبوعين ، وكان أحد ثلاثة شعراء اشتهروا بهجاء المسلمين — عبد الله بن الزبعرى — وأبى سفيان ، وعمرو بن العاص . وله شعر كثير فى الجاهليـــة لكنه ضاع ولم يصل إلينا منه إلا القليل . وقد أسلم وحسن إسلامه وشهد مع الرسول (ص)حنينا فأبلى فيها بلاء حسنا . وتوفى سنة عشرين هجرية بالمدينة بعد مقدمه من الحج ، وصلى عليه عمر بن الخطاب وقيل مات سنة خمس عشرة . راجع طبقات فحول الشعراء ٢٤٧/١ ، والإصابة ١٤٥/٦ .

(2) أورد ابن هشام وغيره تسعة أبيـــات فقط ولم يرووا البيتين الرابع والخامس . كما أن ابن هشام وغيره ذكروا هذه الأبيات مبـــدوءة بالبيت السادس : دعوا — ذروا — فلجات الشام ... وهـــذه الصورة للأبيات كما جاءت بديوان حسان بن ثابت اختلفت فى الترتيب وفى بعـــض الكلمات عما رواه ابن هشام وغيره . وسنشير إلى مواضع ذلك الاختلاف فى شرح معانى المفردات للأبيات . الرس : البئر . النزيع ، ويرويه ابن هشام (النزوع) وهما بمعنى واحد ومعناه التى ينزع ماؤها بالأيدى ، وذلك لأنها قريبة القعر . لياليا : رواها ابن هشام : ثمانيا . الأرعن : هو المضطرب وأراد به جيشا وسماه أرعن لكثرته . الجرار : الذى لـــه أتباع كثيرة وفضول . عظيم المبارك : رواها ابن هشام : عريض المبارك : أى عظيم الثبـــات فى الحرب .

(3) الكميت : الفرس . جوزه : وسطه وأراد بطنه . خلقه : أراد جسمه ، يريد أن بطنه نصف جسمه كله . قب : جمع أقب ، وهو الضامر من الجياد . مشرفات : مرتفعات . الحوارك : جمع حارك وهو أعلى الكتفين من الفرس .

ترى العرفج الحولى تذرى أصوله
مناسم أخفاف المطى الروائك (١)

إذا ارتحلت من منزل خلت أنه
مدامن أهل الموسم المتعارك (٢)

نسير فلا نتجو اليعافير وسطنا
ولو وألت منا بشد مواشك (٣)

ذروا فلجات الشام قد حال دونها
ضراب كأفواه اللقاح الأوارك (٤)

بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم
وأنصاره حقا وأيدى الملائك (٥)

---

(١) العرفج : شجرة قدر ذراع لها زهر أصفر . العامى : الذى مضى عليه عام . تذرى أصوله . يريد أن مناسم الإبل تقلعها من أصولها بسيرها . المناسم جمع منسم ، وهو طرف خف البعير . الروائك : جمع راتكة وهى المسرعة .

(٢) وهذا البيت والذى يليه لم يذكرهما ابن هشام فى أبيات حسان . ولكنه أشار إليهما عندما ذكرهما فى مجموعة أبيات أبى سفيان — البيت الثانى والثالث — حيث قال : وأنشدنى أبو زيد الأنصارى هذا البيت : « خرجنا وما تنجو اليعافير بيننا » ، والبيت الذى بعده لحسان بن ثابت فى قوله : « دعوا فلجات الشام قد حال دونها » راجع السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢١١ ولعل محقق ديوان حسان بن ثابت اعتمد على هذه الرواية وأثبت هذين البيتين لحسان وهما أيضا موجودان — مع تغيير بسيط فى بعض الألفاظ — فى أبيات أبى سفيان . مدامن : جمع دمنة ، وهى آثار الدواب والإبل من الروث والبعر وغيرهما . المتعارك : المتلاحم ، يريد أنه جيش كبير .

(٣) اليعافير : جمع يعفور ، وهو ولد الظبية . وألت : اعتصمت ولجأت . مواشك : سريع .

(٤) ذروا : اتركوا . الفلجات: الأودية ، واحدها فلج — ضراب: يعنى طعان بالسيوف والرماح . اللقاح : النوق الحوامل . والأوارك : جمع آركة وهى المقيمة فى شجر الأراك ترعاه ، وشجر الأراك . شجر له حمل كعناقيد العنب من أطيب ما ترعاه الإبل وهو حمضى . وقد روى ابن هشام وغيره : دعوا مكان : « ذروا » وجلاد مكان « ضراب » ، والمخاض بدلا من « اللقاح » .

(٥) وأنصاره : يعنى وبأيدى أنصاره . وبأيدى الملائك ، كانت هذه الطعنات النجل الواسعة .

إذا هبطت حـــوران من رمل عالج

فقولا لهـــا ليس الطريق هنــــالك (١)

وإن تلق فى تطوافنــا والتماسنـــا

فرات بن حيان يكن وهن هــــالك (٢)

وإن تلق قيس ابن امرىء القيس بعده

يزد فى سواد وجهــه لون حــالك (٣)

فأبلغ أبا سفيـــان عنى رســـالة

فإنك من شــر الرجال الصــعالك (٤)

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقال :

أحســـان إنا يا بن آكلة الفغـــا

وجــدك نغتــال الخـــروق كذلك (٥)

---

(١) حوران : جبل ، وهو أدنى أعلام الشام . رمل عالج : اســم مكان فيه رمل كثير . وقد روى ابن هشام وغيره الشطر الأول هــكذا : « اذا سلكت للغور من بطن عالج » .

(٢) فرات بن حيان : كان عينا لأبى ســفيان فى حروبه ثم أسلم ، وأوشك أن يقتل لتجسسه فى غزوة الخندق ، فحينما هم المسلمون بقتله قال : إنى مسلم . وهن هالك : الوهن : الضعــف ، أراد أنه يهلك ضعفا وجبنا ولا يقدر على التعرض لهم .

(٣) قيس بن امرىء القيس : هو العجلى الذى كان يجير عير قريش . حالك : شديد السواد .

(٤) الصعالك جمع صعلوك ، وهو الفقير الذى لا مال له ، والجمع الصعاليك ولكنه حذف الياء اضطرارا الى إقامة الوزن . وراجع الأبيات فى ديوان حسان بن ثابت ص ١٦٣ وبنظام ونسق آخر فى السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢١١ ، والروض الأنف ٦/٢٣٠ ، والســيرة النبوية ٣/١٥٤ وســيرة النبى ٣/٦٩٨ .

(٥) الفغا : التمر ، وقيل هو غبرة فعلو التمر قبل أن يطيب ، أو قشر التمر إذا يبس ، وقال صاحب الروض الأنف : إنه البسر الفاسد المغبر ، أو هو فساد البسر . والفغــا ما يخرج من الطعام فيرمى به ، والردىء من كلشىء من الناس والمأكول والملبوس . تغتال: نقطع ونجوب. الخروق: جمع خرق ، وهو الفلاة الواسعة .

خرجنا وما تنجو اليعافير بيننـــا
ولو وألت منا بشـــد مدارك (٢)

إذا ما انبعثنا من منـــاخ حسـبته
مدمن أهـــل الموسم المتعـــارك (٢)

أقمت على الرس النزوع تريدنا
وتتركنا فى النخـل عنـــد المدارك (٣)

على الزرع تمشى خيلنـا وركابنـــا
فمـــا وطئت ألصـــقنه بالدكادك (٤)

أقمنـا ثـلاثا بين سـلع وفـارغ
بجـرد الجيـــاد والمطى الروائك (٥)

حسبتم جـلاد القـوم عنـد قبابهم
كمـا أخذكم بالعين أرطـــال آنك (٦)

فلا تبعث الخيـــل الجياد وقل لهـــا
على نحـو قول المعصم المتماســك (٧)

---

(١) اليعافير : جمع يعفور ، وهو ولد الظبيـــة . وألت : اعتصمت ولجأت . الشـــد : الجرى . المدارك : المتتابع الذى يتلو بعضه بعضا . يريد أنهم لكثرة عددهم لا تنجو منهم اليعافير .

(٢) المدمن — بضم الميم الأولى وفتح الدال والميم المشددة — : الموضع الذى ينزلون فيه فيتركون به الدمن ، والدمن : آثار الدواب والإبل وأرواثها وبعارها . أهل الموسم . أراد به جمـاعة الحجاج ، وكل موضع كانت العرب تجتمع فيه فهو موسم ، كسوق عكاظ ، والمجنـــة ، وذى المجاز وأشباهها . المتعارك : الذى يزدحم فيه الناس .

(٣) المـــدارك : المواضـــع القريبة .

(٤) الدكادك : جمع دكداك ، وهو الرمل اللين .

(٥) سـلع وفارع : جبلان . الروائك : جمع راتكة ، وهو اسـم فاعل من الرتكان ، وهو سريع السير .

(٦) جلاد القوم : مجالدتهم إياك . كمأخذكم بالعين : العين ، المال الحاضر ، وهو الدر وكلاهما يصلح ههنا . الأرطال : جمع رطل . الآنك : القزدير ، وقيـــل الرصاص .

(٧) المعصـــم : المتمســـك بالشىء .

سعـدتم بهـا وغيركم كان أهلهـا
فوارس من أبنـاء فهـر بن مالك

فإنك لا فى هجـرة إن ذكرتهـا
ولا حـرمات الدين أنت بناسـك [1]

قال ابن هشام : بقيت أبيات تركناها لقبح اختلاف قوافيها [2].

العرض الأدبى :

١ — ذكر ابن هشام فى سيرته أن قصيدة أبى سفيان كانت ردا على قصيده حسان وقد قيلا فى أحداث بدر الآخرة ، وتبعه على ذلك كثير ممن نقلوا عنه ، وقرر ذلك صاحب كتاب تاريخ النقائض [3] . بينما وجدنا ابن سلام يذكر أن أبا سفيان قال فى قصيدته هذه فى يوم أحد ، يرد على حسان بن ثابت ، وكان أصحاب رسول الله (ص) أصابوا فى عقب بدر عيرا لقريش فيها فضة ، فكانوا نكبوا بعـد طريق الشام ، وأخذوا طريق العراق فقال حسان قصيدته الكافية [4] وينقل ذلك كتاب : تاريخ الأدب — العصـر الإسلامى — فيقول : أثبت ابن سلام لأبى سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها فى يوم أحد كافية كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر ، كما قال صاحب كتاب : الشعر الإسلامى فى ظلال النبوة والخلافة الراشدة : « فإذا ما ترك المشركون — بعد بدر — طريق الشام فى تجارتهم ، وسلكوا طريق العراق خوفا على أموالهم من المسلمين — إذا ما صنعوا ذلك

---

(١) الناسك : المتبع لتعاليم الدين وشرائعه . وراجع الأبيـات فيما أحلنـا عليه من مصادر فى سابقتها .

(٢) وقال ابن هشام : وأنشدنى أبو زيد الأنصارى هذا البيت : « خرجنا وما تنجو اليعافير بيننـا » والبيت الذى بعده ، لحسان بن ثابت فى قوله : « دعوا فلجأت الشام قد حال دونها » .
وأنشدنى له فيها بيته : « فأبلغ أبا سفيان » . راجع ما أشرنا إليه من مراجـع سابقا .

(٣) ص ١٥٧ .

(٤) طبقـات فحول الشـعراء ٢٤٧/١ .

قال حسان بن ثابت ([1])» قصيدته الكافية •ويذكر ابن سعد فيطبقاته:
« أن عيرا لقريش فيها تجارة لهم كان عليها صفوان بن أمية وحويطب ابن عبد العزى وعبد الله بن أبى ربيعة ، ومعها مال كثير (سبائك ذهب أو فضة) وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم ، وكان دليلهم فرات بن حيان فخاف فسلك بهم طريق العراق على ذات عرق فبلغ ذلك رسول الله (ص) فبعث زيد بن حارثة فى مائة راكب إلى القردة « وهى أرض نجد بين الربذة والغمرة ناحية ذات عرق » فأصابوا العير ، وأفلت أعيان القوم وقدم زيد بالعير فخمسها رسول الله (ص) فبلغ الخمس عشرين ألف درهم ، وقسم ما بقى على أهل السرية ([2])» وكانت هذه السرية على رأس ثمانية وعشرين شهرا من الهجرة ([3]) • أى بعد بدر بنحو تسعة أشهر ، وقبل أحد بنحو أربعة أشهر • ثميقول « وقد ذكر ابن هشام شعر حسان فى خبر بدر الموعد — بدر الآخرة — وهى بعد أحد بسنة ، وهذا خطأ كما يتبين من سياقالشعر، ومن زمن الحادثة المذكورة فيه ([4]) » ونحن نميل إلى ما ذهب إليه ابن سلام وابن سعد ومن سار على رأيهما بالنسبة إلى قصيدة حسان ابن ثابت ، لأن ما فى القصيدة من مواقف يؤكد ذلك ويدفع إليه • أما قصيدة أبى سفيان فيغلب على الظن أنها قيلت بعد أحد لأن فيها إشارة إلى أحد حيث روى السهيلى البيت التاسع هكذا :

شقيتم بها ، وغيركم أهل ذكرها
فوارس من أبناء فهر بن مالك

أى شقيتم بالحرب ، ويعنى بها ما كان من هزيمة للمسلمين فى أحد ، وقد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة نفر أو سبعة ، وقتل من

---

(١) الشعر الإسلامى فى ظلال النبوة والخلافة الراشدة — مطبعة قاصد خير ص ١٤١ .
(٢) طبقات ابن سعد ٢/٢٤ ، ٢٥ .
(٣) هى سرية زيد بن حارثة إلى القردة . راجعها فى السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٠ .
(٤) هامش ص ٢٤٨ من كتاب طبقات فحول الشعراء — السفر الأول — .

الأنصار — قوم حسان — أكثر من خمسة وستين رجـــلا ، وكثرت الجراحات • ومعنى البيت : شقيتم بهذه الحرب ، وكان غيركم فرسان الحرب وأحلاسها ، يذكرون بأفعالهم فيها ، مشيرا بذلك إلى المهاجرين من قومه قريش (1) •

٢ — وحسان فى قصيدته يتحدث عن قوة جيش المسلمين الهادرة التى تقضى على ما فى طريقها وتطبق على ما تلقاه مهمـــا اعتصـــم بالقوة أو حاول الفرار • ثم يوجـــه حديثه إلى أبى ســـــفيان ومن عملهم قائلا لهم اتركوا طريق الشام حيث يلقاكم فيها رجال أشاوس يتزعمهم قائلا لهم اتركوا طريق الشام حيث يلقاكم فيها رجال اشاوس سلكت العير طريق الشام ، فقولا لها خذى طريق العراق ، أما طريق الشام فقد حمته سيوف المهاجرين والأنصار ، وهذه الحماية الدائمة تطوف وتجول ولعلها تلقى فى تطوافها فرات بن حيان عين أبى سفيان وجاسوسه الشهير لتقضى عليه وتهلكه ، أو ترى ذلك الرجل الذى كان يجير عير قريش لتزيد فى سواده وتحيل وجهه من الفزع والرعب إلى سواد حالك • وفى النهاية يرمى زعيم قريش أبى سفيان — بالصعلكة والنـــذالة •

ويتصدى أبو سفيان بن حرب لحسان فينقض أبياته • فيسخر منه ومن قومه — الأنصار — ويرميهم بأنهم أهل نخيل وتمر ، ثم ينفى عنهم القوة والمجد ويثبته لقريش ويصف جيشها بالقوة والجسارة ، معرضا بما كان من أمر الهجمة التى استولى المسلمون فيها على ماكان فى القافلة من مال وفضة مؤكدا بأن ذلك لن يكون مرة أخرى موضحا أن أصحاب هذه الأموال أبناء فهر بن مالك — قريش — هم الفرسان الحقيقيون وهم الذين يذكرون بأفعالهم الجليلة ، ساخرا من حسان بأنه لا ذكر له ولا مكانة فهو ليس من المهاجرين الذين شرفوا بالهجرة، وهو كذلك بعيد عن تعاليم الدين ومبادئه •

٣ — والنقيضتان جاءتا على بحر الطويل واعتمدتا على الأسلوب

---

(1) راجـــع طبقات فحول الشعراء ١/٢٤٩ •

الجزل والألفاظ الضخمة القوية الأداء ، المشتقة من البيئة ، كما عمدتا إلى ذكر كثير من الأماكن والحيوانات والأشجار والنباتات التى تلقى ابن البادية فى طريقه صباح مساء فالرس النزيع ، وأماكن البراك للنوق والبعران ، والعرفج ، واليعافير والنوق الحوامل ، والجياد الجرد والضامرة ، وحوران من رمل عالج ، والفغا ، والدمن ، والنخل عند المدارك • كل ذلك مما يحيط بابن البيئة ويشاهده ولذلك فهو أكثر من غيره إسراعا إلى لغته وتعبيره •

كذلك نجد بعض الصور الجزئية التى اشتقها الشاعر من البيئة أيضا • فقد شبه حسان بن ثابت طعنات سيوف المهاجرين والأنصار ورماحهم فى عدوهم بأفواه إبل تقلصت مشافرها من رعى الأراك وهو نبات حمضى إذا أكلته الإبل تقلصت مشافرها فبدت حمرة أفواهها الواسعة ، وقد عنى بهذا التشبيه المنتزع من بيئته اتساع الطعنة وشناعتها • كما كنى عن قوة جيشه وشدة بأسه باقتلاع مناسم الإبل لشجر العرفج الذى يكون فى طريقها • وكنى عن كثرته بأنه يترك فى المكان الذى ينزل فيه الدمن حتى ليظن الرائى لذلك المكان أنه كان ملتقى لموسم من مواسم العرب الذين يلتقون فيه كالحج وسوق عكاظ وغيرهما •

كذلك فقد كنى أيضا عن ضخامة الجيش واتساعه بأن الظباء لا تستطيع النجاة أو الفرار بل تؤخذ وتقع فريسة سهلة مهما كان لديها من حيل فى محاولة الهرب • ويشارك أبو سفيان أيضا حسان ابن ثابت فى معظم هذه الصور التى جسمت الأفكار وبعثت فيها الحياة والحركة وجعلتها تتحرك أمامنا•وانظر إلى تصوير أبى سفيان لقوة جيشه وإبادته لما يلقاه فى طريقه حيث يقول : « فما وطئت خيلنا وركابنا ألصقنه بالدكادك » لترى قوة التعبير ، وفنية التصوير التى حرص عليها الشاعران فى هاتين النقيضتين •

وإذا كانت النقيضتان امتلأتا بأسماءالأماكنوالزروعوالحيوانات

التى قد لا يعرفها إلا العربى الأول وتحتاج منا إلى بحث ومعرفة لدلولاتها فإن هذا لا يقلل من فنية هذه الأعمال ، أو يسمها بميسم التعقيد لأن الشاعر لم يبعد عن بيئته ولم ينعزل عن مجتمعه • وعبر فى صدق عما يشاهد واستوحى ما يحيط به من الطبيعة والأماكن ، وهذا هو الصدق الفنى ، والصدق الشعورى •

وكان أسلوب الشاعرين رائعا قويا حيث حرص كل منهما على أن يثبت لقومه القوة والشجاعة ، وينفى عن خصمه المجد والمكانة • فكان حسان بإنشائه لقصيدته شاعرا عملاقا قوى التعبير والتصوير، وكذلك كان أبو سفيان فى نقضه لما جاء به حسان بن ثابت •

ثالثا : نقائض غزوة الخندق وبنى قريظة :

كانت الخندق بأحداثها ونتائجها النهاية التى كسرت شوكة قريش ، وأكدت تخاذلهم وضعفهم أمام المد الإسلامى العظيم ،ولذلك وجدنا رسول الله (ص) يقول لأصحابه بعد ما انتهوا من حرب الخندق: « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » قال ابن هشام : فلم تغزهم قريش بعد ذلك ، وكان هو الذى يغزوها حتى فتح الله عليه مكة(1) •

لقد نشط اليهود فى الدعوة إلى محاربة محمد وأخذوا يجمعون القبائل المعادية كما تعهدوا لقريش بتأليب بنى قريظة داخل المدينة على المسلمين ، وهذا النشاط المكثف من جانب اليهود دفع بقريش إلى اغتنام هذه الفرصة للقضاء على محمد وأتباعه، فماذا يستطيع المسلمون أن يصنعوه حتى يجتمع اليهود وقريش ، وقيس ، وغيلان ، وبنو مرة، وبنو فزارة،وأشجع وسليم وسعد وأسد وجميع من ينتمى إلى غطفان، وعددهم يجاوز عشرة آلاف مقاتل (2) • وجاء الأمر إلى رسول الله

---

(1) راجع السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٥٤ .
(2) كانت غزوة الخندق فى شوال سنة خمس من الهجرة . راجع =

(ص) فكان كعادته ثابت الجأش ، قوى العزم،فجمع أصحابهللتشاور، وقد استقر الرأى على البقاء فى المدينة ، وعدم مبارحتها (٣) ، إذا ماذا يستطيعون أن يفعلوه إذا بارحوا المدينة إلى فضاء شاسع أمام هذا الطوفان الزاحف ؟ وقد ألهم الله سلمان الفارسى أن يشير على المسلمين بضرورة حفر خندق حول المدينة ليكون حائلا أمام هجوم الأعداء وبدأ العمل المتصل الكادح حيث فرغ المسلمون جميعا لإتمامه وفى مقدمتهم رسول الله (ص) وأبو بكر وعمر • وتوالت الأحداث وتعاون يهود بنى قريظة فى داخل المدينة مع المهاجمين ونقضوا عهدهم وميثاقهم مع الرسول (ص) • وشجع ذلك التراجع فى العهد المنافقين على التهكم بالإسلام ، والتماس الأعذار للانسحاب من مواجهـــة المشركين ، فجعلوا يقولون : إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ، وأصبح الموقف فى غاية الخطورة لأن المدينة بعد غدر بنى قريظة لم تعد بالقلعة الحصينة ، وفى هذه الحال أخذ كل من الفريقين يقدم سبل الإغراء لضعاف النفوس ، وأصحاب المطامع الشخصية ، ثم جاء أمر المكيدة والحيلة الذى قام به نعيم بن مسعود الذى أسلم وكتم إسلامه عن قومه ولم يعرفوا به ، ، وهنـــا تفرق الرأى وبات المشركون على قلق وحيرة ، وقد طال بهم المقام فهاهم يقضون بضعا وعشرين ليلة دون الخندق ولاهم لهم إلا التراشق بالنبال وإحـــكام الحصار والنزال الفردى المحدود الذى قتل فيه على بن أبى طـــالب عمرو بن ود أحد فرسان العرب وشجعانها •

وأكل الخوف والفزع قلوبهم بعد حيلة نعيم بن مسعود،ووجدوا أن لا نهاية سريعة لتلك الحرب والزمن زمن شتاء قارس مهلك ، ولهم فى كل يوم ضحايا أهلكها البرد ، وشاء الله أن تهب الريح شديدة

= السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢١٤ ، وقال موسى بن عقبة فى مغازية إنها كانت سنة أربع • وقال البيهقى : ولا خلاف بينهم فى الحقيقة لأن مرادهم أن ذلك بعد مضى أربع سنين وقبل استكمال خمس • راجع البـــداية والنهـــاية ٤/٩٣ •

(٣) خرج رسول الله (ص) فى ثلاثة آلاف من المسلمين إلى جبـــل سلع فضرب هنالك عسكره ، والخندق بينه وبين القوم •

عاتية مكذ حة ، فجعلت تكفأ القدور وتخلع الخيام ، وأخذ القــوم يلتمسون الدفء فلا يجدون • فضاقوا ونفـــذ صبرهم ، وصاح أبو سفيان : يا معشر قريش لستم والله بدار مقام ، لقد هلكت الإبل والخيل ، وأخلفنا بنو قريظة ما وعدوا من تهيئة الطريق للاقتحام ، وبلغنا عنهم ما نكره ، ولقينا من شدة الريح والمطر ما ترون ، ولابد أن نرحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول ففك عقاله ، وانطلق ، فنهض من خلفه القوم وكأنهم رأوا فرجا من ضيق ، ورأت غطفان انسحاب قريش فنظرت الوجوه إلى الوجوه ، وتساءلت عن جدوى الانتظـــار فلم تجد نفعا فيه ، فآثروا الانسحاب خائبين ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتـــال وكان الله قويا عزيزا •

وكان لا بد من الذهاب إلى بنى قريظة ليلقوا جزاءهم العـــادل على غدرهم وخيانتهم ولذلك وجدنا رسولنا (ص) يقول لأصحابه : من كان منكم سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظـــة ، وسارع المسلمون إليهم يتقدمهم على بن أبى طالب يحمل الراية ثم لحق بهم رسول الله (ص) فنزلوا على بئر لهم ، وأخذوا فى حصارهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصـــار واستسلموا ونزلوا على حكم حليفهم سعد بن معاذ الذى قضى فيهم بقتـــل رجالهم وسبى الذرارى والنساء وأنفذ الرسول فيهم الحكم العادل ، وقسم أموالهم ونساءهم وأبناءهم على المسلمين [1] •

---

(١) راجع أحداث غزوة الخندق وبنى قريظـــة فى السيرة النبـــوية لابن هشام ٢١٤/٢ ، والبداية والنهاية ٩٣/٤ ، ومعارك الإسلام فى العصر النبـــوى ص ٧١ •

١ — هل من مبــارز ؟!

طال حصار قريش وأحابيشها للمدينة ومن فيها ، وكانوا يظنون أن المسألة مسألة يوم وليلة ، ولكن البلاء قد طال ، والصبر أوشك على النفاذ ، وتمضى الليالى دون حدث جديد ، أو انفراج للموقف، ويمضى عليهم فى هذا الانتظار الممل ما يقرب من الشهر ، وعز على المشركين أن يكتفوا بالتراشق بالنبال على جانبى الخندق ، وأخذوا يلتمسون مكانا ضيقا من الخندق ليقتحموه .

وقد استطاع عمرو بن ود مع جماعة من قومه — فيهم عكرمة ابن أبى جهل ، وهبيرة بن أبى وهب وضرار بن الخطاب بن مرداس — أن يقفز بفرسه إلى معسكر المسلمين ، وأخذ ينــادى من يبارز ؟ . فتريث المسلمون رهبة منه إذ كان بطلا جرت أحاديث شجاعته مجرى المثل فى قبائل العرب ، وكان قد تقاتل يوم بدر حتى أثخنته الجراح، فلم يشهد أحدا ، فعيرته قريش لتخلفه وأخذت تقول له: ماذا انتفاعنا بك وأنت ترمى بنفسك لتقاتل مع القبائل النائية دون أن تكون ساعدا لقومك ؟! . وتهالكت النساء على ذله وأخذن يعيرنه أن ترك أعبــاء قريش . ولذلك أراد أن يثبت مكانته فى مكة وأن يستعيد ثقة القوم فيه فخرج يوم الخندق معلما ليرى مكانه . ولما دعا إلى المبارزة قام على بن الخطاب — كرم الله وجهه — فاستل سيفه وقال : أنا له يانبى الله .فقال له النبى (ص) إجلس إنه عمرو ، فكرر عمرو النداء وجعل يستثير المسلمين ويؤنبهم قائلا : أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ! أفلا تبرزون إلى رجلا . فقام على ،فقال:أنا له يارسول الله . فقال له إجلس ، إنه عمرو ثم نادى الثالثة وقال :

ولقـــد بححت مـــن النـــدا
ء بجمعكـــم هـــل من مبـــارز ؟
ووقفت إذ جبـــن المشجـــ
ع وقـــة الرجـــل المناجـــز (١)

---

(١) فى ديوان على بن أبى طالب : وقفت إذ جبن الشجاع بموقف القرن المناجز ، وفى البداية والنهاية « المشيع » مكان « المشجع » .

وكـــذاك أنـــى لـــم أزل
متسرعا قبـــل الهـــزاهز (١)

إن الشجـــاعة فى الفتـــى
والجـــود من خيـــر الغـــرائز (٢)

فقام على رضى الله عنه فقال أنا له يا رسول الله . فقال إنه عمرو ، فقال : وإن كان عمرا فأذن له رسول الله (ص) فخرج إليه وقد رفع رسول الله (ص) يديه إلى السماء ضارعا : « اللهم إنك أخـذت منى حمزة يوم أحد ، وعبيدة يوم بدر ، فاحفظ اليوم على عليـــا . رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين » ثم أدناه الرسول منه وقبله وعممه بعمامته ، وخرج معه خطوات كالمودع له ، القلق لحاله ، المنتظر لما يكون منه . ومشى على إلى عمرو وهو يقول :

لا تعجلـــن فقـــد أتـــا
ك مجيب صـــوتك غير عاجـــز (٣)

ذو نيـــــة وبصيـــــرة
والصـــدق منجى كـــل فائز (٤)

إنى لأرجـــو أن أقيـــ
ـــم عليـــك نائحـــة الجنـــائز

من ضـــربة نجـــلاء يبـــ
ـــقى ذكرهـــا عنـــد الهزاهـــز (٥)

---

(١) رواه ديوان على : إنى كذلك لم أزل متسرعا نحو الهزاهز . وجاء فى البداية والنهاية « نحو » مكان « قبل » .

(٢) رواه ديـوان على :
إن الشـجاعة والسـما حة فى التى خير الغرائز

(٣) رواه ديـوان على :
يا عمـرو ويحك قد أتا ك مجيب صوتك غير عاجز

(٤) جاء فى البداية والنهاية « فى نية » مكان « ذو نية » .

(٥) جاء فى شرح نهج البلاغة مكان « من ضربة نجلاء يبقى » قوله : « من ضربة تفنى وتبقى » . راجع النقيضتين فى : عيون الأثر ٦١/٢ وهو الذى اعتمدنا عليه فى روايته للأبيات ، والاكتفاء ١٦٧/٢ ، والبداية والنهاية ١٠٦/٤ ، وديوان على بن أبى طالب ص ٧٢ ، وشرح نهـج البـلاغة ٢٩٢/١٣ .

ثم لم يزل رسول الله (ص) رافعا يديه إلى السماء مستقبلا لها بوجهه ، واستقبل على خصمه العنيد بدرقته ، فضربه عمرو فيهـا فقدها وأثبت فيها سيفه وأصاب رأسه بشجة ، فضرب على حبـل العاتق فجاءته الضربة قاتلة وهوى يتخبط فى دمائه وثار الغبـار ، وتعالت التكبيرات ، فعلم القوم أن عليا قتله ، فكبر رسول الله (ص) وكبر المسلمون تكبيرةسمعها من وراء الخندق من عساكر المشركين ، ولذلك قال حذيفة بن اليمان : لو قسمت فضيلة على عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم (1) . فكانتفرحة المسلمين جميعهم بهذا التغلب على عدو الله ، وقتـل ابن ود المدل بشجاعة المتباهى بقوته فرحة غامرة ، ولذلك نرى على بن أبى طالب يسجل ذلك فيقول :

عبـد الحجـارة من سفاهـة رأيه
وعبـدت رب محمد بصـوابى (2)

فصـددت حين تركتـه متجـدلا
كالجـذع بين دكادك وروابى (3)

وعففت عـن أثـوابه ولـو اننى
كنـت المقطـر بزنـى أثوابى (4)

لا تحسبـن الله خـاذل دينـه
ونبيـه يا معشـر الأحـزاب (5)

---

(1) راجع هذا الموقف بالتفصيل فى : عيون الأثر ٦١/٢ ، والاكتفاء ١٦٧/٢ ، والبداية والنهاية والسيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٢٤ .

(2) جاء فى كتاب : شعر الدعوة الإسلامية : نصر مكان « عبـد » ، ونصرت بدلا من « عبـدت » .

(3) متجدلا : صريعا . كالجذع : يعنى كجذع النخلة . دكادك : جمع دكداك ، وهو الرمل اللين .

(4) المقطر : الصريع صرعة شديدة . بزنى : سلبنى .

(5) اورد ديوان على بن أبى طالب بعد هذه الأبيات ثمانية أبيـات أخـرى ، وقـد اكتفينـا بمـا أوردناه ، كمـا اكتفى بها صاحب كتاب شعر الدعوة الإسلامية . راجع ديوان على بن أبى طالب ص ١٤ ، وشعر الدعوة الإسلامية ... ٢٣١/١ .

٢ ـ فلولا خندق كانوا لديه !

قال ضرار بن الخطاب بن مرداس ، أخو بنى محارب بن فهـر فى يوم الخندق :

ومشفقـــة تظن بنـــا الظنـــونا
وقـــد قدنا عرندســـة طحـــونا [١]

كـأن زهاءها أحــــد إذا مـــا
بدت أركـانه للنـــاظرينـــا [٢]

تـــرى الأبـــدان فيهـــا مسبغـــات
على الأبطـــال واليلب الحصينـــا [٣]

وجـــردا كالقـــداح مســـــومات
نؤم بهـــا الغـــواة الخاطئينـــا [٤]

كـأنهمـــو إذا صـــالوا وصلنـــا
ببـــاب الخنـــدقين مصـــافحونا [٥]

أناس لا نرى فيهـــم رشيـــدا
وقد قالوا ألسنـــا راشـــدينـــا

فأحجـــرناهمـــو شهرا كريتـــا
وكنـــا فوقهـــم كالقـــاهرينـــا [٦]

نراوحهـــم ونغـــدو كـــل يـــوم
عليهـــم فى السلاح مدججينـــا [٧]

---

(١) العرندسة : الشديدة القوة . وأراد بها كتيبة وفصيلة من الجيش . الطحون : التى تطحن كل ما مرت به .

(٢) زهاؤها : تقـــدير عددها .

(٣) الأبدان (هنا) : الدروع . مسبغات : ضافيات كاملات . اليلب : الترسة ، ويقال هى الدروق . الحصين : الذى يتحصن به لابسه .

(٤) الجرد : جمع أجرد ، وهو الفرس القصير الشعير . القداح : جمع قدح ، وهو السهم . المسومات : المرسلة على العـــدو للإغارة . نـــؤم : نقصـــد .

(٥) المصافحة : أخذ الرجل بيد الرجل عند المصافحة .

(٦) أحجرناهم : حصرناهم شهرا كريتا : يعنى كاملا تاما .

(٧) المـــدجج : الكامل الســـلاح .

بأيديـنـــا صـــوارم مرهفـــات
نقد بهـــا المفـــارق والشـــئونا (١)

كـــأن وميضهـــن معـــريات
إذا لاحت بأيـــدى مصلتينـــــا (٢)

وميض عقيقـــة لمعت بليـــل
ترى فيهـــا العقـــائق مســتبينا (٣)

فلولا خنـــدق كـــانوا لـــديه
لدمـــرنا عليهـــم أجمعينـــا (٤)

ولكن حـــال دونهمـــو وكـــانوا
بـــه من خوفنـــا متعوذينـــا (٥)

فإن نرحـــل فإنـــا قـــد تركنـــا
لدى أبيـــاتكم ســـعدا رهينـــا (٦)

إذا جـــن الظـــلام سمعت نـــوحى
على ســعـــد يرجعـــن الحنينـــا (٦)

---

(١) الصوارم : السيوف القاطعة . المرهفات : المحـــددات . نقد : نقطع . المفارق : جمع مفرق ، وهو حيث يتفرق الشعر على أعلى الرأس . الشئون : مجمع العظام فى أعلى الرأس .

(٢) الوميض : اللمعان . المصلت : الذى جرد سيفه من غمده .

(٣) العقيقة : السحابة التى تنشق عن البرق . والعقائق فى آخـــر البيت : جمع عقيقة ، وهى فى الأصل الشاة ، ويمكن أن يراد بهـــا هنـــا خصومه ، على أنه شبههم فى ضعفهم عنده بالشياه . مســـتبينا : جمـــع مســـتبى إذا أسره .

(٤) لدمرنا عليهم : يريد أهلكناهم .

(٥) متعوذين : لاجئين ومتحصنين .

(٦) سعدا : يريد سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقد كان رهن البيت ، فقد رماه جبان بن العرقة بسهم يوم الخندق فأصاب أكحلة (أحد العروق فى الذراع) فحسمه رسول الله (ص) كيـــا بالنار فاستمسك الجـــرح ، وبعد أن حكم فى أمر بنى قريظة وعاد سعد الى خيمته من مسجد رسول الله (ص) انفجر جرحه بعد اصابته بشهر فمات شـــهيدا ، وقال الرســـول (ص) عنه : « ... والذى نفسى بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد ، واهتز له العرش » . راجع البداية والنهاية ١٢٧/٤ .

(٧) يرجعن : يرددن ويكررن . الحنين : أراد به البكاء والنوح .

وسوف نزوركم عما قريب
كما زرناكمو متوازرينا [1]

بجمع من كنانة غير عزل
كأسد الغاب قد حمت العرينا [2]

فأجابه كعب بن مالك أخو بنى سلمة رضى الله عنه ، فقال :

وسائله تسائل ما لقينا
ولو شهدت رأتنا صابرينا

صبرنا لا نرى لله عدلا
على ما نابنا متوكلينا

وكان لنا النبى وزير صدق
به نعلو البرية أجمعينا

نقاتل معشرا ظلموا وعقوا
وكانوا بالعداوة مرصدينا [3]

نعاجلهم إذا نهضوا إلينا
بضرب يعجل المتسرعينا

ترانا فى فضافض سابغات
كغدران الملا متسربلينا [4]

وفى أيماننا بيض خفاف
بها نشفى مراح الشاغبينا [5]

---

(١) متوازرينا : متعاونين متساندين .

(٢) عزل : جمع أعزل ، وهو الذى لا سلاح له . والغاب جمع غابة، وهى الأجمة . العرين : موضع الأسد . وراجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٢٥٤/٢ ، والروض والأنف ٣٤٣/٦ ، والبداية والنهاية ١٣١/٤ ، وسيرة النبى ٧٣٣/٣ .

(٣) مرصدين : جمع رصد ، وهو اسم فاعل من قولهم : أرصد للأمر ، إذا أعدله عدته ، وأخذله أسبابه .

(٤) فضافض : الدروع المتسعة . سابغات : كاملة . الملا : المتسع من الأرض . متسربلين ، لابسين للدروع .

(٥) المراح : النشاط . الشاغبين : الذين ديدنهم الشغب ، وتهييج الشر وتأريث العداوات .

ببـــاب الخنـــدقين كـــأن أســـدا

شـــوابكهـــن يحمين العرينـــــا (١)

فوارسنــــــا إذا بكروا وراحــــوا

على الأعــــداء شوســا معلمينـــا (٢)

لننصـــــر أحمـــدا والله حتى

نكــون عبـــاد صــــدق مخلصينــــا

ويعلــم أهــل مكـــة حين ســـاروا

وأحـــزاب أتـــوا متحــــزبينــــــا

بـــأن الله ليـــس لـــه شـــريك

وأن الله مـــولى المؤمنينـــــا

فإما تقتـــلوا سعـــدا سفـــاها

فإن الله خيـــر القـــادرينــــا (٣)

سيـــدخله جنـــانا طيبـــــات

تـــكـــون مقـــامة للصالحينـــــا

كمــــا قد ردكم فـــلا شـــريدا

بغيظكمـــو خـــزايا خائبينـــــا (٤)

خـــزايا لم تنـــالوا ثم خيـــرا

وكـــدتم أن تكونـــوا دامرينـــــا (٥)

بـــريـــح عـــاصـــف هبت عليـــكم

فكنتـــم تحتهـــا متكمهينـــــا (٦)

---

(١) الشوابك : التى يتشبث بها فلا يفلت .

(٢) فوارس : جمع فارس . الشوس : جمع أشوس ، وهو الذى ينظر نظر المستكبر بمؤخر عينه . المعلم : الذى جعل لنفسه علامة يعرفه الناس بها ليشتهر فى الحرب وينبه ذكره .

(٣) ســـعدا : هو سعد بن معاذ : سفاها : ضلالا .

(٤) الفل : القوم المنهزمون . الشريد : الطريد النافر من الخـــوف والفـــزع .

(٥) الدامرون : الهالكون من الدمار وهو الهلاك .

(٦) متكمهين : الأعمى الذى لا يبصر . وراجع الأبيات فى : ديوان كعب بن مالك الأنصارى ص ٦٢ ، وما أحلنا عليه من مراجع فى سابقتها .

(ا) هذا هو اللقاء الثانى فى المبارزة الأدبية حول حصار الخندق وهو لقاء بين علمين من أعلام القول والفن ، هما ضرار شاعر الكافرين، وكعب بن مالك شاعر الرسول (ص) وأحد أعوانه المخلصين واللقاء هنا محتدم بين الشاعرين فضرار يقود مع قومه عرندسة طحونا قوامهـا جيش جرار يوازى جيش أحد ويعدله عددا ، متسلحا بأقوى الأسلحة وأشدها فتكا ، متدرعا بالدروع الحصينة ، ممتطيا جيادا جردا عتاقا، قاصدا بهذا العدد والعدة الغواة الخاطئين الذين يكادون يلتحمون بهم، ولا يفصل بينهم سوى أمتار معدودة هى مساحة الخندق المقـــام بين المتحاربين ، ثم أخـذ يتحدث عن الحصـــار الذى ضربوه على المسلمين ، ومدته وما كان من المناوشة والهجمات الخاطفة ، ثم ما كان معهم من أسلحة ماضية فتاكة ولولا الخنـدق الذى حال بينهم وبين أعدائهم لقضوا عليهم جميعا • واذا كانوا قد امتنعوا عليهم بسبب الخندق ، وكروا راجعين بعد ذلك الحصار الذى دام شهرا فإنهم قد تركوا فيهم ما يشجيهم ويؤلمهم حيث أصيب سد بن معـاذ بسهامهم وأودى به ذلك الى الموت ، مما أقام المآتم عليه ، ودفع بالنسوة الى ترديد النواح وترجيع البكاء ، ثم ينهى أبياته بالتهديد ، وهو العودة اليهم مرة أخرى فى القريب العاجل بجمع يعدل جمعهم الذى جمعوه من أشتات العرب مدحجا بالسلاح والعتاد •

أما كعب بن مالك فإنه بما وقر فى قلبه من إيمان ، وما استقرت عليه نفسه من الخلق الإسلامى الكريم يقرر أنهم لاقوا هذا الطوفان البشرى بروح صابرة واثقة بعدالة الله ، مقتنعة بصدق الرســـالة المحمـدية ، وقام الجميع على قد برجل واحـد يتصدى لهذا الغزو البربرى الذى أعماه الحقد ، وطمست العداوة البغيضة على قلبه ، ونهض المسلمون فى أسلحتهم الماضية يحمون عرينهم ، ويدافعون عن وجودهم • ينصرون دين الله حتى تعلو كلمـة الحق وترتفع رايات الاسلام ويؤكدون لأهل مكة ومن سار فى ركابهم من الأحزاب ، أن

الله واحد لا شريك له ، وان الله مولى المؤمنين • ثم يأخذ فى الرد على ضرار فى فخره بقتل سعد بن معاذ والتراجع عن قتالهم قائلا له : اذا كنتم قتلتم سعدا غدرا وخيانة فإن مصيره جنات عدن ورضوان من الله مع المؤمنين الصالحين ، وأمـــا عن رجوعكم ، فإنكم عدتم مجللين بعار الخزى والهزيمة يمزق الغيظ قلوبكم حيث لم تنالوا منـــا شيئا ولم تحققوا هدفا وكادت الريح التى أرسلها الله عليكم تهلك جمعكم وتبدد شملكم •

٢ — والقصيدتان جمعهما بحر الوافر ، واختارتا النون المفتوحة الممدودة قافية لهما لتتناسب مع الموقف الذى يستدعى امتداد الصوت واحتدام اللقاء ، وتتلاءم مع ذلك الزحف الهادر الذى ترتج الأرض من حوله ، وذلك الحصار المخيف الذى ترتعد له الفرائص وهو اختيار موفق دل على ذوق مرهف وحاسة فنية راقية • وقد رأيناكعببنمالك يحرص منذ البداية على البناء الفنى الذى نهجته قصيدة ضرار بن الخطاب ، وتناول ما عرض له من أفكار بالهدم والنقض •

فإذا بدأ ضرار قصيدته ببيت اشترك شطراه فى القافية (١) ، حرص كعب أيضا على ذلك • وإذا اتجه ضرار فى بيتـــه الأول الى الحـــديث عما قد يكون من الإشفاق والخوف والفزع لكل من يرى ويشاهد ذلك الزحف الهادر ، فإن كعبا يتحدث فى بيتـــه الأول عن التساؤل عما كان من أمر المسلمين فى مواجهة هذا التجمع وماذا حدث لهم • واذا جعل ضرار أعداءه غواة خاطئين،جعل كعببنمالكأعداءه ظالمين معتدين أصحاب عقوق وعداوة دفينة • واذا تحدث ضرار عن قوة المسلمين ، وهى وإن لم تكن مدججة بالســـلاح فإنها محصنـــة
قوة المسلمين ، وهى وان لم تكن مدججة بالسلاح فإنها محصــــنة
بالإيمان ، متسلحة بالعقيدة الراسخة التى تدافع عن صاحب الدعوة فى صبر وثقة بنصر الله وتأييده • وإذا عرض ضرار لإصابة سعد بن معاذ وموته وما كان من النواح عليه والحزن عليه والألم الدفين على فراقه • فإن كعبا يصم هذا العمل بالغدر والخيانة ويقرر أن شهيد

---

(١) هذا يسمى عند العروضيين : البيت المقفى

الخندق فى جنان الله وواسع رحمته • وإذا ما تعلل ضرار بالخندق، وعزا إليــه سبب نكوصهم ورجوعهم بعد حصار دام شهرا مهــددا بالعودة إلى المسلمين فى زحف هادر وتجمــع عظيم • فإن كعب بن مالك يتخذ من ذلك منطلقا الى تقرير الحقائق التى أســفر عنها هذا الهجوم الوحشى ، موضحا أن نصر الله للمسلمين كان نصرا مؤزرا ، فرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا،وكفى الله المؤمنين القتال، حيث أرسل عليهم ريحا عاتية فرقت جموعهم ، وأصابتهــم بالعمى فسارعوا بالفرار والهرب مجللين بعار الخيبـــة ، مشمولين بالخزى وسقوط هيبتهم بين العرب أجمعين •

ــ وكما اشترك الشاعران فى كثير من المعانى والأفكار والبناء الفنى للقصيدة ، فقد اشتركا أيضا فى معجمها اللغوى حيث استعمل كعب بعضا من ألفاظ خصمه وتعابيره : فالدروع مسبغات على أبطال ضرار ، وهى سابغات على المسلمين ، وفى أيدى المشركين صــوارم مرهفات ، وفى أيمان المسلمين بيض خفاف ، وجنود كل منهما أســد تحمى العرين • كما جاءت الصور عند الشاعرين مستوحاة من البيئة• فخيول ضرار الجرد كالسهام المرسلة فى سرعتها • ووميض السيوف وقد جردت من أغمادها كوميض البرق الذى تنشق عنه السحب فى الليل المظلم ، وهذه الصورة المركبة صورة تمثيلية دقيقة ، استطاع بفنية لاقطته أن يجمع شتاتها ويبث فيها الحركة ويضفى عليها الصوت واللون ، فترتسم لدى القارىء بجوانبها الإبداعية فيحسها وكأنهــا صورة تتحرك أمامه ليرى من خلالها كثافة سلاح القوم ، وعظمــة مضائه ، وشدة وقعه • وجموع قريش وأتباعهم أسد الغاب تحمى العرين ، وقوة المسلمين كذلك عند كعب ، ودروع المقــاتلين المسلمين التى يلبسونها تشبه الغدران التى تزدان الأرض بها وتتزين ، وقد تفوق ضرار على كعب فى هذا التصوير كما رأينا فى صورته التمثيلية المعبرة الدقيقة • هذا بالإضافة إلى تفوق ضرار على منافســـه فى التعبير واختيار الألفاظ التى تعبر عن معانيه وتتلاءم مع أفكاره • فالجرد قداح مسومة ، وهم قد أحجروهم شهرا كرتيا وبأيديهــــم صوارم مرهفات ، ولولا الخندق لدمروا عليهم أجمعين،وكان المسلمون

من الخوف متعوذين ومتحصنين بالخندق ، وإذا جن الظلام ترتفع أصوات النائحات وهم سيعودون إلى المسلمين بقوة كأسد الغـاب تحمى العرين ، بينما نجد ألفاظ كعب تميل إلى السهولة والبساطة ورصف الكلمات رصفا وخاصة فى آخر القصيدة عندما عمد إلى نظم ما جاء فى سورة الأحزاب (١) عن هذه الواقعـة .

وتشيع فى قصيدة كعب بن مالك الروح الإسلامية منذ بدئهـا حتى نهايتها . فالمسلمون أمام هذا الجمع الهادر صابرون متوكلون على الله ، والرسول لهم وزيرصدق ، وهـم يقاتلون معشرا كافرين جاهروهم بالعداوة ، لينصروا بذلك نبى الله ورسالة ربه حتى يكونوا عبادا صالحين مخلصين ، ويعلم أهل الشرك جميعا ان الله واحد لا شريك له ، وأنه مولى المؤمنين يؤيدهم وينصرهم ، كمـا أن شهداء المسلمين فى جنات عدن ورضوان من الله ، وهو متـأثر فى قوله :

بأن الله ليس لـه شـريك وأن الله مولى المؤمنينـا

بقول الله تعـالى : « لا شريك لـه ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (٢) » وقوله : « والله ولى المؤمنين (٣) » .

والشاعران يسيران على وحدة البيت فى قصيدتيهما — كعادة الشاعر العربى القديم — ولذلك نراهمـا لا يهتمان بترابط الأفكار وتسلسلها ، بل لا بأس عندهما من ذكر فكرة ، والانتقال منهـا إلى فكرة أخرى، ثم العودة إلى الفكرة الأولى مرة أخرى ولذلك رأينـا قصيدة كعب بن مالك قد تعددت أغراضها وتداخلت . فهو يفخـر ثم يمدح ، ثم يهجو ، ثم يعود إلى الفخر مرة ثانيـة ، وبعده إلى الهجاء . فقد رأيناه فى أول القصيدة يفخر بالصبر والتوكل على الله ثم ينتقل الى مدح الرسول (ص) ، ثم يتجـه الى هجاء المشركين فيصفهم بالظلم والعقوق والعداوة لله وللإسـلام ، ثم يعود مرة ثانية الى الفخر فيقول :

---

(١) راجـع تاريخ النقـائض ص ١٦٠ .
(٢) آية رقم ٦٨ من سورة آل عمـران .
(٣) آية رقم ٦٨ من سورة آل عمـران .

ترأنـــا فى فضـــافض ســـابغات
كغـــدران المـــلا متسربلينـــا

ويتجه إلى الهجاء والتعريض بالأعداء ثانية فيقول :

كمـــا قـــد ردكم فـــلا شـــريدا
بغيظكـــم خـــزايا خائبينـــا

خـــزايا لم تنـــالوا ثم خيـــرا
وكـــدتم أن تكـــونوا دامرينـــا

كذلك نجد ضرار فى قصيدته يتحدث عن قوة جيشه وما فيه من عتاد ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الحصار الذى دام شهرا ، ثم يعـود مرة أخرى إلى الحديث عن القوة وما معهم من سلاح وعتـاد ، وإن كنا نجد الترابط أوضح فى قصيدة ضرار وخاصة فى أبياته الثلاثة التى عرض فيها للصوارم المرهفات وما تميزت به من وميض ولمعان أشبه البرق الذى انشقت عنه السحب •

٣ ـــ اذكر بلاء معاشر واشكرهمو !

وقال عبد الله بن الزبعرى السهمى فى يوم الخندق (١) :

حى الديار محـــا معـــارف رسمهـــا
طـــول البـــلا وتراوح الأحقـــاب (٢)

فكأنمـــــا كتب اليهـــود رسومهـــــا
إلا الكنيف ومعقـــــد الأطنـــاب (٣)

قفـــــرا كأنك لم تكـــن تلهو بهـــا
فى نعمـــــة بأوانـــس أتـــراب (٤)

فاترك تذكر ما مضى من عيشـــــة
ومحلة خلق المقـــام يبـــــاب (٥)

واذكـــر بلاء معاشـــر واشكرهمـــو
ساروا بأجمعهم من الأنصـــــاب (٦)

أنصـــــاب مكـــة عامدين ليثرب
فى ذى غياطل جحفـــل جبجاب (٧)

---

(١) وذلك قبـــل أن يســـلم .

(٢) الأحقـــاب : جمع حقب ، وهو الدهر .

(٣) الكنف : أراد به الحظيرة التى تصنع للإبل ، لأنها تكنف الإبل أن تسترها . الأطناب : جمع طنب ، وهو الحبل الذى تشد به الأخبية وبيوت العرب ، وأراد بمعقدها : الأوتاد التى تربط فيها .

(٤) قفـــرا : موحشة خالية . الأتراب : جمع ترب ، وهو المماثل فى السن ، يريد أن هذه الأوانس متفقات فى العمر .

(٥) خلق المقام : أراد أن محل الاقامة منها خال من كل من يقيم به . اليبـــاب : القفـــر .

(٦) الأنصاب : الحجارة التى يعلم بها الحرم . الأنصاب : حجارة كانوا يذبحون لها ويعظمونها .

(٧) ذى غياطل : أراد به جيشا كبير العدد . الغياطل : جمع غيطلة وهى الصوت . الجحفل : الجيش الكثير . الجبجاب : الكثير أيضا .

يدع الحزون مناهجا معلومة
في كل نشر ظاهر وشعاب (1)

فيها الجياد شوازب مجنوبة
قب البطون لواحق الأقراب (2)

من كل سلهبة وأجرد سهلب
كالسيد بادر غفلة الرقاب (3)

جيش عيينة قاصد بلوائه
فيه وصخر قائد الأحزاب (4)

قرمان كالبدرين أصبح فيهما
غيث الفقير ومعقل الهراب (5)

حتى إذا وردوا المدينة وارتدوا
للموت كل مجرب قضاب (6)

شهرا وعشرا قاهرين محمدا
وصحابه في الحرب خير صحاب

نادوا برحلتهم صبيحة قلتمو :
كدنا نكون بها مع الخياب

---

(1) الحزون : جمع حزن : وهو ما ارتفع وعلا من الأرض . المناهج : جمع منهج ، وهو الطريق البين الواضح . النشر المرتفع من الأرض أيضا . الشعاب : جمع شعب وهو المنخفض بين جبلين . وهذا تأكيد لوصف الجيش بالكثرة ، لأنه لكثرة عدده يترك أثرا فى الخزون باقيا يستدل به على الطريق .

(2) الشوازب : هى الضامرة . مجنوبة : مقودة . قب : جمع أقب ، وهو الضامر البطن . لواحق الأقراب : يريد ضامرة أيضا ، والأقراب : جمع قرب ، وهو الخاصرة وما يليها .

(3) السلهبة : الطويلة . السيد : الذئب .

(4) عيينة : هو عيينة بن حصن الفزارى . صخر هو أبو سفيان ابن حرب وكانا من القواد فى معركة الخندق .

(5) قرمان : فحلان سيدان . المعقل : الملجأ والمعاذ . الهراب : جمع هارب .

(6) رتدوا : أراد تقلدوا . كل مجرب : أراد قد جرب .

لولا الخنادق غادروا من جمعهم
قتلى لطير سغب وذئاب (1)

(ا) فأجابه حسان بن ثابت الأنصارى ، فقال :

هل رسم دراسة المقام يباب
متكلم لمسائل بجواب (2)

ولقد رأيت بها الحلول يزينهم
بيض الوجوه ثواقب الأحساب (3)

فدع الديار وذكر كل خريدة
بيضاء آنسة الحديث كعاب (4)

واشك الهموم إلى الإله وما ترى
من معشر متألبين غضاب (5)

أموا بغزوهم الرسول وألبوا
أهل القرى وبوادى الأعراب (6)

---

(1) سغب : جمع ساغب . وهو الجائع . يوم المسغبة : يوم المجاعة . وراجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢٥٧/٤ ، والبداية والنهاية ١٣٣٢/٤ ، وعيون الأثر ٦٦/٢ ، وسيرة النبى ٧٣٥/٣.

(2) روى ابن هشام : « لمحاور » مكان « لمسائل » ، وتلاه هذا البيت :

قفر عفارهم السحاب رسومه — وهبوب كل مطلة مرباب

ودارسه المقام : قد عفا محل الإقامة منها . اليباب : المشرقة .

(3) الحلول : البيوت المجتمعة . الثواقب : المشرقة .

(4) الخريدة : المرأة الناعمة ، وقيل هى البكر التى لم تمس قط ، وقيل هى الحيية الطويلة السكوت ، الخافضة للصوت . الكعاب : التى نهد ثدياها فى أول ما نهد .

(5) روى ابن هشام مكان « من معشر متألبين غضاب » : « من معشر ظلموا الرسول غضاب » . متألبون : مجتمعون . يقال القوم على فلان إلب واحد إذا تضافروا عليه .

(6) روى ابن هشام الشطر الأول هكذا : « ساروا بأجمعهم إليه وألبوا » ، وأراد بأهل القرى وبوادى الأعراب : ضعاف النفوس الذين يقعون تحت تأثير المشككين .

جيش عيينة وابن حرب فيهمو
متخمطين بحلبة الأحزاب [1]

حتى إذا وردوا المنية وارتجوا
قتل النبى ومغنم الأسلاب [2]

وغدوا علينا قادرين بأيدهم
ردوا بغيظهم على الأعقاب [3]

بهبوب معصفة تفرق جمعهم
وجنود ربك سيد الأرباب

وكفى الإله المؤمنين قتالهم
وأثابهم فى الأجر خير ثواب

دن بعد ما قنطوا ففرج عنهمو
تنزيل نص مليكنا الوهاب

وأقر عين محمد وصحابه
وأذل كل مكذب مرتاب

مستشعر للكفر دون ثيابه
والكفر ليس بظاهر الأثواب [4]

علق الشقاء بقلبه فأرانه
فى الكفر آخر هذه الأحقاب [5]

---

(١) عيينة : أراد به : عيينة بن حصن الفزارى . ابن حرب : أراد به أبا سفيان صخر بن حرب وهما من قواد المشركين فى حرب الخندق. متخمطون : مختلطون ، ويقال : المتخمط هو المتكبر الشديد الغضب . الحلبة : جماعة الخيل التى تعد للسباق .

(٢) روى ابن هشام : « قتل الرسول » .

(٣) أيدهم : قوتهم .

(٤) رواه ابن هشام هكذا :

عاتى الفؤاد موقع ذى ريبة　　فى الكفر ليس بطاهر الأثواب

(٥) روى ابن هشام : ففؤاده مكان قوله « فأرانه » . وأران : من الرين ، وهو ما غطى القلب وركبه من قسوة . وراجع الأبيات فى : ديوان حسان بن ثابت ص ١٢٠ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٥٨ ، وعيون الأثر ٢/٦٧ ، والاكتفاء ٢/١٩١ والروض والأنف ٦/٣٤٥ ، وسيرة النبى ٣/٧٣٥ .

(ب) وكعب يرد على ابن الزبعرى أيضا فيقول :

أبقى لنـا حـدث الحـروب بقيـة
من خيـر نحلة ربنـا الوهاب (١)

بيضـاء مشـرفة الذرى ومعاطنـا
حـم الجـذوع غزيرة الأحلاب (٢)

كاللوب يبـذل جمهـا وحفيلهـا
للجـار وابن العـم والمنتـاب (٣)

ونزائعـا مثـل السـراح بهـا
علف الشعير وجزة المقضـاب (٤)

عـرى الشـوى منها وأردف نحضها
جرد المتـون وسائر الآراب (٥)

قـودا تراح إلى الصياح إذا غـدت
فعـل الضراء تراح للكـلاب (٦)

وتحـوط سائمـة الديـار وتارة
تردى العـدى وتؤوب بالأسلاب (٧)

---

(١) النحـلة : العطـاء .

(٢) بيضاء : مفعول الفعل « أبقى » فى البيت السابق . الذرى : الأعالى ، ويعنى بهـا الآطام . المعاطن : منابت النخل عند الماء شبهها بمعاطن الإبل وهى مباركها . حم الجذوع : سود ووصف النخل بالسـواد لأنها تضرب إلى السواد من الخضرة والنعيم . وشبه ما يجتنى منهـا بالحلب فقـال : غزيرة الأحلاب .

(٣) كاللوب . اللوب جمع لوبة ، وهى الحرة ، وهى أرض حجارة سـود . جمها : ما اجتمع من لبنها . حفيلها : كثيرها . المنتاب ، **القاصد** الزائر .

(٤) نزائعا : أراد بها الخيل العربية التى حملت من أرضهـا إلى غيرها ، يريد أنهم استلبوها من الأعداء . السراح : الذئاب ، الواحـد : سرحان ، يريد أنها شديدة العدو . جزة المقضاب ، يعنى ما يجـز — يقطع — لها من النبات فتطعمه ، والمقضاب : اسم آلة من القضب وهو القطع .

(٥) الشوى : القوائم . النحص : اللحم . جرد المتون : ملس الظهور . الآراب : جمع إربة ، وهى القطعة من اللحم .

(٦) قودا : جمـع أقود وقوداء ، والأقود : الفرس الطويل العنق . تراح : تنشط . الضراء : الكلاب الضارية للصيد ، أو جمع ضـير ، وهو من السباع . الكلاب : جمع كالب وهو الصائد صاحب الكلاب .

(٧) السائمة : الماشية المرسلة فى المرعى إبلا كانت أو غيرها ، تردى: تتهلـك : تؤوب : ترجـع » .

حوش الوحوش مطـارة عند الوغى
عبس اللقـاء مبينـة الإنجـاب (١)

علفت على دعـة فصـارت بدنا
دخس البضيع خفيفة الأقصـاب (٢)

يغـدون بالزغف المضاعف شـكـه
وبمترصـات فى الثقـاف صياب (٣)

وصـوارم نزع الصيـاقل غلبهـا
وبكل أروع ماجـد الأنسـاب (٤)

يصـل اليمين بمـارن متقـارب
وكلت وقيعتـه إلى خبـاب (٥)

وأغـر أزرق فى القنـاة كأنـه
فى طخيـة الظلماء ضوء شهاب (٦)

وكتيبـة ينفى القران قتيرهـا
وترد حـد قواحـز النشـاب (٧)

---

(١) حوش الوحوش : أى أنها تنفرها وتطردها . مطارة : مبتحفة . الوغب ، والوغى : الحـرب . مبينـة الإنجـاب : ظاهرة النجابة وهى الـكرم والعتـق .

(٢) البـدن : جمع بادن . وهو السمين . الدخس : الكثيرة اللحم . البضيع : اللحم المستطيل . الأقصاب : جمع قصب وهو المعنى ومنـه سمى الجزار قصابا .

(٣) الزغف ــ بسكون الغين ــ : الدروع اللينة . المضاعف شكه : أى نسجه وحلقه . مترصات : الرماح الشديدة . صياب : صائبه .

(٤) الصياقل : جمع صيقل ، وهو شحاذ السيوف وجلاؤها . الغلب : الخشونة وما علاها من الصدا . الأروع : الذى يروع بكماله وجمـاله . الماجد : الشريف .

(٥) المـارن : الرمح اللين . وقيعته : صنعته وتطريقه وصقله خبـاب : اسم قين .

(٦) أغر أزرق : السـنان . الطخية « مثلثـة الطـاء » : الظلمـة وشـده السـواد .

(٧) القران : تقارن النبل واجتماعه . القتير : رءوس المسـامير لحلق الدروع . قواحز : جمع قحزة وهى الضربة . النشـاب : جمـع نشـب وهو النبـل .

جأوى ململمــة كــأن رماحهـــا

فى كــل مجمعــة ضريمة غاب (١)

يــأوى إلى ظـــل اللـــواء كأنــه

فى صعــدة الخطى فىء عقــاب (٢)

أعيت أبا كــرب وأعيت تبعـــا

وأبت بسالتهـــا على الأعــراب (٣)

ومواعــــظ من ربنـــا نهــدى بهـــا

بلســـان أزهـــر طيب الأثــواب (٤)

عرضت علينـــا فاشتهينــــا ذكرهـــا

من بعـــد ما عرضت على الأحزاب

حكمـــا يراها المجرمون بزعمهـــم

حـــرجا ويفهمهـــا ذوو الألبـــاب (٥)

جاءت سخينــــة كى تغالب ربهـــا

فليغلبـــن مغـــالب الغـــلاب (٦)

العرض الأدبى :

١ ــ الموقف الأدبى الثالث فى الخندق فرسانه ثلاثة من الشعراء المشهورين المجودين فى نقائض ثلاث • لعبـــد الله بن الزبعرى من

---

(١) جأوى : أصلها جأواء ، وقصرت للضرورة الشعرية ، وهى التى يخالط سوادها حمرة . ململمة : مجتمعة . الضريمة : اللهب المتوقد . الغاب : الشجر الملتف .

(٢) الصعدة : القناة المستوية . الخطى : الرماح . الفىء : الظل .

(٣) أبو كرب ، وتبع : ملكان من ملوك اليمن قبل الإسلام .

(٤) زهر : أبيض . طيب الأثواب : كناية عن الطهر والعفة .

(٥) حرجا : حراما .

(٦) فى معظم المصادر : زعمت سخينة . سخينة : لقب قريش فى الجاهلية تعير به ، فجعل لقبا لها . وقد نسب هـــذا البيت أيضـــا إلى حسان بن ثابت وهو موجود بديوانه ص ٣٧٣ . وراجع الأبيات فى : ديوان كعب بن مالك الأنصارى ص ١٧٩ . والسيرة النبوية لابن هشـــام ٢/٢٥٨ ، والاكتفاء ٢/١٩٢ ، والبداية والنهاية ٤/١٣٣ ، والروض والأنف ٦/٢٤٥ .

جهة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك من جهة أخرى • ونقيضة كعب ابن مالك أطول القصائد الثلاث حيث بلغت اثنين وعشرين بيتا ، بينما جاءت قصيدة حسان أربعة عشر بيتا وقصيدة عبد الله بن الزبعرى خمسة عشر بيتا • وقد بدأ ابن الزبعرى قصيدته بداية جاهلية حيث حيى الأطلال وما اندرس من الديار التى عفا عليها الزمن ومحا البلاد معالمها ، ثم طلب من نفسه ترك الحديث فى ذلك والاتجاه بالحديث إلى ما كان من أمر قومه فى حاضر الزمن من حسن البلاء وتسجيل الشكر لهم على اجتماع كلمتهم والتوجه بجيشهم الجرار المدجج بالقوة والسلاح على رأسه عيينة بن حصن الفزارى ، وأبو سفيان ابن حرب إلى المدينة متقلدين أسلحتهم البتارة القاطعه ، ثم قاموا بمحاصرة المسلمين شهرا وعشرا مهددين ، وملقين الرعب فى قلوبهم، ولولا الخندق الذى حال بينهم لم يغادروا الموقع إلا بعد أن تركوهم قتلى للطيور والوحوش الجائعة •

وقد شارك حسان بن ثابت ، ابن الزبعرى فى المقدمة الطللية الجاهلية وخلص منها إلى ترك الحديث فى ذلك ، وأن يشكو الهموم وما كان من أمر ذلك التجمع المعتدى إلى الله الذى يفرج الكروب ، ويزيل الهموم • ثم أخذ يصم هذا الزحف الذى ألب العرب ضد محمد ودعوته واتجه إلى المدينة فى رغبة جامحة إلى قتل الرسول(ص) وكسب الأسلاب والمغانم ، ولكن الله القاهر قد ردهم بغيظهم وأرسل عليهم ريحا عاتية دمرت جمعهم ومزقتهم شر ممزق ، وجزى الله المؤمنين الصادقين خيرا وأقر عين محمد وأصحابه وأذل الكذابين المرتابين بهذا النصر المبين •

وعلى عكس المقدمتين السابقتين نجد كعب بن مالك يتجه مباشرة إلى الفخر بقومه وما تمتع به المسلمون من قوة ومنعة ، واستمر يعرض ورماح ونبل كانت فى أيدى كماة شجعان قهروا أعداءهم ، وحطموا إلى أدوات الحرب فيصفها وصفا دقيقا ، ويخص منها خيل المسلمين، فهى كالأسود شجاعة ، عارية القوائم ، مكتنزة اللحم ، نشيطة كأنها

كلاب الصيد الضارية ، تردى العدو وتعود بأسلابه ، خفيفـــة فى الحروب ، بل تتعداها إلى أوقات السلم ، فهى تحمى المواشى، وتصون الكلأ ، فهى للحفظ فى السلم ، كما كانت للدفاع والإغارة ، والهجوم عند الحرب • ثم يعرض لألوان الأسلحة الأخرى من سيوف ودروع ورماح ونبل كانت فى أيدى كماة شجعان قهروا أعداءهم ، وحطموا آمال المعتدين المغيرين وردت كيد هؤلاء الغازين المتحزبين من شراذم العرب فعادوا يحملون عار الهزيمة والفشل •

وفى الأبيات الأربعة الأخيرة تحدث عن رسالة البشير النذير التى جاءت بالهدى والإيمان فسارع هو وقومه إليها بينما رفضتهـا الأحزاب وأبوا تصديقها ، واعتبرها الضالون أمرا محرما فى زعمهم، ولهذا جاءت قريش بأتباعها تسعى إلى محاربة صاحب الدعوة والقضاء عليه ، بل إنها لعتوها وضلالها جاءت تتحدى إرادة الله وتعلن الحرب ضد ربها — والعياذ بالله — فشتت الله شملها وغلبهـا الغالب الذى لا يقهر •

٢ — وهذه النقائض الثلاث تصور روحين : جاهلى وإسلامى ، من حيث المعانى والغايات ، ولكنها ذات أسلوب جزل قوى ، يصور معركة حامية قامت على قوة عقيدة المسلمين ، وفشل الأحزاب فيمـا حاولوا (١) • فقصيدة ابن الزبعرى فيها روح الجاهلية وعقائدها • فقومه الذين ساروا بجمعهم إلى المدينة ينتسبون إلى الأنصاب وهى حجارة يعلم بها الحرم أو يذبح لها وتعظم ، وجيشه يقوده قرمان من أقرام العرب وسادتهم ألحا فى الكفر والعـــداوة لمحمد وأتباعه • أما قصيدتا حسان وكعب فقد شاعت فيها الروح الإسلامية ومبادىء الدين الحنيف • فأعداء الإسلام عند حسان بن ثابت ظالمون للرسول، أعماهم الحقد وسيطرت الكراهية على نفوسهم ، يتجشمون الصعاب من أجل تحقيق هدفهم الأسمى وهو قتل الرسول محمد (ص) لكن الله نصر جنده بما أرسل من رياح عاصفة مدمرة فرقت أحزابهم وأهلكت

---

(١) تاريخ النقائض ص ١٦٢ •

جموعهم ، وأقر الله بذلك عين نبيه وصحابته،وأذل المشركين المرتابين •
أما كعب بن مالك فقد أبقى الله له من العطايا الخيرة القوة والعتـاد الذى يحمى به ويذود عن حياضه مع أصحابه المسلمين وقد هداهم الله للإسلام فسارعوا إليه واعتنقوه بينما رفضته الأحزاب واعتبرته أمرا محرما • وقد جاء قوله : « وليغلبن مغالب الغلاب » فى قمـة التعبير الأدبى النابع عن فيض من الإيمان ورسوخ العقيدة،وشفافية النفس التى وقر الإيمان فى حناياها •

والقصائد الثلاث على مستوى راق من التعبير • فالألفـــاظ مختارة منتقاة ، والأساليب دقيقة متينة التراكيب ، محكمة النسج • وفيها من أثر البيئة الشىء الكثير • فالكنيف والأطناب ، والأنصاب ، والغياطل ، والحزون ، سلهبة ، وقرمان ، والرهم،والحلول،والخريدة، ومتخمطون ، والمعاطن ، وغزيرة الأحلاب ، واللوب ، والجم والحفيل، والسراح ، والمقضاب ، والضراء ، والصوارم ، والقتير . وسخينة • هذه الألفاظ توضح قاموس الشعر اللغوى فى هـــذه القصائد وهى مستقاة من بيئة الشعراء وما يدور حولهم وهى محكمة فى مكانها ، دقيقة فى بنائها ، تدل على قوة التعبير ، وتمكن الشعراء من أدوات فنهم ، حيث يعرجون إلى الألفاظ التى تحمل معانيهم وتساعد على إبرازها وتصويرها لدى المتلقى فيلتقطونها ويجعلونها قوالب معانيهم وأفكارهم •

كما أن صورهم الجزئية التى استعانوا بها على توضيح أفكارهم قد ارتبطت بالبيئة واشتقت منها • فجيش ابن الزبعرى ذو غياطل — كناية عن كثرته — وهو جبجاب أيضا — كثير — وهو لكثرة عدده يترك أثرا فى الأرض الغليظة يبقى لا ينمحى « يدع الحزون مناهجا ••• البيت » ، وجياده ضامرة كناية عن قوتها وشـــدة بأسها « لواحق الأقراب » وعيينة وأبو سفيان قرمان كالبدرين • والكذابون المرتابون عند حسان بن ثابت ليسوا بطاهرى الأثواب — كنـــاية عن الدناءة والخســـة •

ومن الظواهر الطبيعية المألوفة فى يثرب حراتها التى تحيط بها، لذلك نجد كعب بن مالك يستمد إحدى صوره من هذه الحرات ، فيشبه مواضع الإبل باللوب ، وهى الحرات ، فيقول :

بيضـــاء مشرفة الذرى ومعاطنـا

حـم الجـــذوع غزيرة الأحـلاب

كاللوب يبـــذل حميهـــا وحفيلها

للجـار وابن العـــم والمنتـــاب

كما يشبه منابت النخل عند الماء بمعاطن الإبل ، وما يجتنى من النخل كالحلب ، ويشبه خيول المسلمين بالسرحان — الذئب — فى شدة عدوه وقوة سرعته ، كما يشبهها بالكلاب الضارية . وسنـــان القناة ضوء الشهاب ، والرماح التى يخالط سوادها حمرة وقدتكدست فوق بعضها تشبه الغابة الملتفة وقد اشتعلت النار بها ، وظل اللواء فىء عقاب . كما وشى قوله : « حوش الوحوش » بجناس رائع أضفى جمالا على المعنى وزاده بهاء

كما نجد حب الشاعر للون الأبيض وقربه من نفسه فى هـــذه القصيدة . فالآطام التى يسكنها المسلمون « بيضاء مشرفة الذرا »، والرسول (ص) أزهر طيب الأثواب .

والشعراء فى ذلك كله إنما يصدرون عن ذوق العصر وروحه ، بلا تكلف أو افتعال . فمعانيهم وصورهم فطرية مستمدة من بيئاتهم، مع امتيازها بالصراحة ، واتسامها بالصدق ، ولذلك كان إعجـــاب الرسول (ص) ببيت كعببن مالك الأخير فيما يرويه ابنهشام[1]حيث

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٦١ .

يقول : حدثني من أثق به ، قال : حدثني عبد الملك بن يحيى بن عباد ابن عبد الله بن الزبير ، قال : لما قال كعب بن مالك :

جاءت سخينـــة كي تغالب ربهـــا
فليغلبـــن مغـــالب الغـــلاب

قال رسول الله (ص) : « لقد شـــكرك الله يا كعب على قولك هذا » وفي روية أن الرسول (ص) قال لكعب : أترى الله نسي قولك هـــذا ؟ » .

٤ — هم عمى من التوراة بور !

وقال حسان بن ثابت أيضا فى يوم بنى قريظة (١) :

تفاقـد معشـر نصروا قريشـا
وليس لهـم ببلدتهـم نصير (٢)

همـو أوتوا الكتـاب فضيعـوه
وهم عمى من التـوراة بور (٣)

كفـرتم بالقـرآن وقـد أتيتـم
بتصـديق الذى قال النـذير (٤)

فهـان على سـراة بنى لـؤى
حـريق بالبـويرة مستطيـر (٥)

---

(١) فى ديوان حسان بن ثابت نقلا عن نسخة (ا) أن حسان بن ثابت قال هذه الأبيات مجيبا جبل بن جوال أحد بنى ثعلب ، وكان يهوديا ثم أسلم بعد ، حيث قال جبل :

ألا يا سعد سعـد بنى معـاذ ... لما لاقت قريظة والنضيـر

وابن هشام ـ الذى اعتمدنا عليه فى هذا الموقف من النقائض ـ يذكر أن جبل بن جوال هو الذى أجاب حسان بن ثابت ، وأبا سفيان على هـذه الأبيات .

ويروى البخارى أن رسول الله (ص) حرق نخل بنى النضير وقطع ، وهى البويرة ولها يقول :

وهان على سراة بنى لـؤى ... حـريق بالبويرة مستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول : أدام الله ... البيتان .

وذكر ابن سعد أن رسول الله (ص) أعطى الزبير بن العوام وأبا سلمة البويلة من أرضهم فأجابه حسان :

أدام الله ذلكم حريقـا ... وضرم فى طرائقها السعير

همو أوتوا الكتـاب فضيعوه ... فهم عمى عن التـوراة بور

ويعلق ابن سعد على ذلك بقوله : « هذه أشبه بالصواب من الرواية الأولى .

راجع : البداية والنهاية ٣/٧٧ وعيون الأثر ٢/٥١ .

٢ — روى ديوان حسان بن ثابت الشطر الأول من هذا البيت هكذا : « تعاهد معشر ولوا بكفر » . تفاقد : فقـد بعضهم بعضا . والمراد بهذه الجملة الدعاء عليهم .

(٣) بور : هلكى ومنه قوله تعالى : « وكنتم قوما بورا » .

(٤) النذير : أراد به محمد (ص) .

(٥) السراة : خيار الناس . البويرة : تصغير البئر التى يستقى منها ، وهى موضع منازل بنى النضير اليهود الذين غزاهم الرسول محمد =

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب — قبل أن يسلم — فقال :

أدام الله ذلك من صنيع
وحرق فى طرائقها السعير (1)

ستعلم أينا منها بنزه
وتعلم أى أرضينا تضير (2)

فلو كان النخيل بها ركابا
لقالوا لا مقام لكم فسيروا (3)

وأجابه جبل بن جوال الثعلبى أيضا ، وبكى النضير وقريظة(4) فقال :

ألا يا سعد سعد بنى معاذ
لما لقيت قريظة والنضير

لعمرك إن سعد بنى معاذ
غداة تحملوا لهو الصبور

فأما الخزرجى أبو حباب
فقال لقينقاع : لا تسيروا

= (ص) بعد غزو أحد بستة أشهر فاحرق نخلهم وقطع زرعهم وشجرهم . وهذا البيت لم يرد فى ديوان حسان بن ثابت · راجع الأبيات فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٧٠ ، وديوان حسان بن ثابت ص ٢٥٣ ، والروض الأنف ٦/٣٥٦ والاكتفاء ٢/١٩٦ والبداية والنهاية ٣/١٣٥ . وقد أورد المرزبانى هذه الأبيات فى معجم الشعراء ولكنه نسبها لجبل بن جوال وزاد فيها :

ولكن لا خلود مع المنايا ... تخطف ثم تضمنها القبور
كأنهمو غنائم يوم عيد ... تذبح وهى ليس لها نكير

راجع : الاصابة ٢/٦٠ ·

(1) الطرائق : جمع طريقة ، وهى الناحية . السعير : النار الملتهبة .

(2) النزه : البعد · تضير : أى تضر ·

(3) راجع الأبيات فيما أحلنا عليه من مراجع فى سابقتها .

(4) وأضاف صاحب الاكتفاء : « ونعى على سعد بن معاذ إسلامه =

وبدلت المــــوالى من حضيــر

أسيـــدا والـــدوائر قـــد تدور (١)

وأقفـــرت البـــويرة من ســــلام

وسعيـــــة وابن أخطب فهى بور (٢)

وقـــد كـــانوا ببلدتهـــم ثقـــالا

كمـــا ثقلت بميطـــان الصـخـــور (٣)

فإن يهلك أبو حكـــم ســـلام

فلا رث الســـلاح ولا دثـــور (٤)

وكـــل الكـــاهنين وكـــان فيهـــم

مع اللين الخضـــــارمة الصـــــقور (٥)

= مواليه منهم ، خلاف مافعله عبد الله بن أبى فى بنى قنيقاع ١٩٧/٢ .

وجبل · هو جبل بن جوال بن صفوان ···بن ذبيان الشاعر الذبيانى، ثم الثعلبى ·

قال الدارقطنى فى المؤتلف : له صحبة ، وقال هشام بن الكلبى : كان يهوديا مع بنى قريظة فأسلم ، ورثى حيى بن أخطب بأبيات منها :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل

وقال المرزبانى فى معجم الشعراء : كان يهوديا فأسلم ·

راجع أسد الغابة ٢١٨/١ ، والإصابة ٥٩/٢ .

(١) الموالى : الحلفاء . حضير ، وأسيد : قبيلتان . الدوائر : النوازل ·

(٢) سلام : هو : سلام بن أبى الحقيق ـ أبو رافع ـ كان فيمن حزب الأحزاب ضد رسول الله (ص) وأرادت الخزرج أن تحظى بقتله، كما حظيت الأوس بقتل كعب بن الأشرف ـ قبل أحد ـ فاستأذنت رسول الله (ص) فى قتله فأذن لها وهو بخيبر · فخرج اليه خمسة منهم ، واحتالوا لقتله حتى دخلوا عليه بيته فقتلوه · راجع ذلك بالتفصيل فى السيرة النبوية لابن هشام ٢٧٤/٢ · ابن أخطب : هو حيى بن أخطب عدو الله ، كان قد دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ـ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه · فقتل مع رجال بنى قريظة · بور : هلاك ·

(٣) ميطان : اسم جبل بالمدينة المنورة ، به بئر ماء يقال له : ضفة وليس به شىء من النبات ·

(٤) الرث : الخلق · الدثور : الدارس المتغير ، يريد أن سلاحه لا يزال ماضيا نافذا فى ضربته ·

(٥) الكاهنان : حيان · الخضارمة : الكرام الأجواد ، الواحد خضرم ·

وجـــدنا المجـــد قد ثبتوا عليـــه
بمجـــد لا تغيبـــه البـــدور
أقيمـــوا يا ســـراة الأوس فيهـــا
كأنكمـــو مـــن المخـــزاة عـــور (١)
تركتـــم قدركـــم لا شيء فيهـــا
وقـــدر القـــوم حاميـــة تفـــور (٢)

بين يدى النقائض :

١ — اللقاء الرابع فى أحداث بنى قريظة ، وهو بين حسان بن ثابت من ناحية ، وأبى سفيان وجبل بن جوال — قبل أن يسلما — من ناحية أخرى • وهو لقاء بين شاعر منتصر ، قرت عينه بنصر الله على أحزاب قريش وأحابيشها ، وسكنت بلابله ، وتنفس الصعـــداء فى راحة واطمئنان عظيمين • وهو فى هذه الاستراحة النفسية يتجه إلى بنى قريظة بدعواته أن يفقد بعضهم بعضا ، وأن يستمر تفرق كلمتهم بعد أن اتفقوا مع قريش على نصرتهم فجاءوا على أمل الإطاحة بمحمد وأعوانه ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم ولم يقدموا عونا أو مساعـــدة لقريش ، فى الوقت الذى لا نصير لهم ولا معين فى يثرب موطنهم ومقرهم ثم ينعى عليهم مسلكهم الحاقد الحاسد الذى دفع بهم إلى تضييع كتابهم وإهمال ما جاءت به توراتهم حيث أخذ الله عليهم العهد فيها ، أن يؤمنوا بمحمد إذا بعثه ، فكفروا بالقرآن ولم يتبعوا حكم التوراة ، فهم حقيقيون بما حل بهم ، وما أنزله الله عليهم •

ويأتى أبو سفيان الموتور من موقف بنى قريظـــة الذين خانوا الإتفاق ، ونكثوا العهد لكنهما مع ذلك أصحاب مصلحة واحدة ، وهدف مشترك ، فينعى على حسان بن ثابت اعتزازه بما أحدثه المسلمون فى

---

(١) عور : جمع أعور •

(٢) حامية تفور : يريد أنهما ملأى بالطعام فهى فوق النار — ارادوا وصفهم بالبخل فى حين أن الناس يطعمون ويجودون • وراجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٢/٢ ، والروض الأنف ٣٥٨/٦ ، والبداية والنهـــاية ١٢٧/٤ ، والاكتفاء ١٩٧/٢ •

بنى قريظة ، وينكر عليهم هذه الأعمال المدمرة،موضحا له أن ذلك لا ينال من قريش أو يسيىء إليها ، ولكنه فى المقام الأول يسىء إلى الأنصار إساءة بالغة حيث إنهم واليهود أصحاب ديار واحدة ويربطهم بهـم الجوار والبلد الواحد .

أما جبل بن جوال فإنه ينعى على سعد بن معاذ إسلامه مواليـه منهم ، خلافا لما فعله عبد الله بن أبى فى بنى قينقاع (1) ، ثم يبكى صرعى قومه ويذكر أعيانهم كسلام بن أبى الحقيق ، وسعية ، وابن الأخطب ويشيد بمجدهم وما كان لهم من صفات كريمة حتى عرفوا بها واشتهروا بها بين القبائل ، ثم ينعى على الأوس تخاذلهـم عن حمايتهم لجيرانهم اليهود ، واستكانتهم للخزرج وقريش .

٢ — وقد اقتصرت أبيات حسان على أبيات أربعة ، ورد عليـه أبو سفيان بأبيات ثلاثة ، أما جبل بن جوال فقد امتـدت أبياته إلى أحد عشر بيتا . وهذا يدل على الألم الدفين الذى يعتصر قلب ذلك اليهودى ، وقد احتواه الحزن ، على ضياع ذلك المجد الذى كان لقومه ففى شهور قليلة يقضى عليه ، ويصبح أصحابه لا قرار لهم ولا مكان، فهم مشردون فزعون ، قد أضناهم الألم ، ولفهم السواد ، ولهـذا وجدنا جبل بن جوال يبكى قومه بكاء حارا ذاكرا لما كانوا عليـه من كرم وجود ، مشهرا بالأوس الذين خذلوهم ولم يقـدموا لهم عونا أو مساعدة . وكان طبيعيا أن تمتد أبيات الشاعر وتطول لتنفس عنه حزنه ، وتخفف عنه وجده ، وينفث فيها همومه وأتراحه ، وهى نابعة عن عاطفة صادقة ، وفيض زاخر من الشجى والألم ، وحسرة وتفجع عظيمين ، فإن الدوائر قد دارت على قومه ، وأقفـــرت البويرة من سلام ، وسعية ، وابن أخطب ، ولذلك فقد أصبحت يبابا وبورا . لقد هلك سلام بن أبى الحقيق الفارس الذى لا يزال سلاحه ماضيا ، وكل الكاهنين وكان فيهم من الكرام الأجواد الخضارمة الصقور. إن أبيات

(1) فقد حكم فيهم بقتل الرجال ، وسبى الذرارى والنساء ، وقسمة أموالهم بين المسلمين . راجع ذلك بالتفصيل فى : البداية والنهاية ١٢٧/٤، والاكتفـــاء ١٨٨/٢ .

جبل تعتصر فؤاده ، وتقطع نياط قلبـــه ، وهى بكاء حار ، ودموع ثخينة يسكبها فى أسى ولوعة على قومه ومجدهم الغابر • وهى ليست نقضا لقول حسان بن ثابت كمـــا تروى بعض الروايات (١) ، وإنما أنشأها إنشاء ، فهى نشيد حزين ، وترانيم بكاء لقلب مفجوع ،ونفس مهمومة ، ولذلك نجد أبيات حسان تبدأ بالدعاء على هؤلاء الغادرين بأن يفقد بعضهم بعضا ، وتبين لهم أسباب هلاكهم وضلالهم الذى أعماهم عن الطريق السوى فكان ذلك الذى حدث لهم جزاء وفاقا ، ونهاية متوقعة لكل من كفر بالله وبدينه بعد أن تبين له الرشاد من الغى ، والهدى من الضلال • وهى أبيات — على قصرها — تنم عن فرحة غامرة بما آل إليه أمر بنى قريظة ، وتشهير بأمر هؤلاء اليهود الذين أصروا على تعطيل ما جاء بكتابهم ، وعدم الاستجابة إليـــه ، والكفر بكل ما يوجههم إليه من أمر الدين الجديد • ولذلك تجد سعد ابن معاذ عندما بلغه شعر جبل بن جوال يقول : « من لقيهم فليحدثهم أنهم خانوا الله ورسوله فأخزاهم الله » (٢) •

أما أبيات أبى سفيان فهى لا تأبه بما حل باليهود ، أو تشاركها فى مأساتها ، بل إنها تدعو إلى استمرار ذلك التحريق والهلاك الذى أصابهم • وهذا ينم عن غيظ دفين نتيجة لخذلان بنى قريظـــة له ، ونكث عهودهم معه ، وعدم الاستجابة إلى نصرته وهو واقف متربص بالمسلمين على الجانب الآخر من الخندق تتقاذفه الرياح ، ويتعاوره الخوف والفزع • لكنه يتخذ ذلك منطلقـــا للتشهير بالمسلمين ، وما أحدثوه فى هؤلاء القوم ، وكأنه يصيح بأعلى صوته ، هذه هى أفعال المسلمين ، وهذه هى المآسى التى أوقعها المسلمون بجيرانهـــم ، والمخالطين لهم فى يثرب ، وليس فيما نال اليهود إساءة إلى قريش أو تقليل من شأنهم لكنها بصمات المسلمين ، وأفعالهم الشائنة •

---

(١) راجع ديوان حسان بن ثابت ص ٢٥٣ ، والاصابة ٦٠/٢ •
(٢) راجع الاكتفاء ١٩٧/٢ •

والروح الإسلامية تسرى فى أبيات حسان بن ثابت، فهو متأثر فى بيته الثانى يقول الله تعالى : وكنتم قوما بورا » (1) . وفى قوله: « كفرتم بالقرآن .. » بقول الله تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .. »(2) .

---

(1) الآية ١٢ من سورة الفتح .
(2) الآية ٨٩ من سورة البقرة .

الفصـــل الخامس

النقائض بعد غزوة الأحزاب ، الى عام الوفود

أولا : صلح الحديبية : بعد أن انتهى رسول الله (ص) من بنى قريظة فى ذى القعدة من السنة الخامسة للهجرة ، أقام بالمدينة ستة أشهر ، خرج بعدها فى عدة غزوات من أهمها : غزوة بنى لحيان (١) ، وغزوة ذى قرد (٢) ، وغزوة بنى المصطلق (٣) • وفى ذى القعدة من العام السادس للهجرة خرج رسول الله (ص) معتمرا لا يريد حربا بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، وســـاق معه الهدى وأحرم بالعمر ليأمن الناس من حربه ، وليعلموا أنه إنما خرج زائرا للبيت ومعظما له ، وسار حتى وصل الى الحديبية ونزل بها وبعد مشاورات بينه وبين قريش — التى أبت أن يدخل محمد مكة عنوة — توصل الفريقان إلى صلح الحديبية الشهير (٤) • وكان ذلك بداية عهد جديد للمسلمين ، وضعت الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشرة أعوام ، واتسع بذلك مجال العمـــل أمام المسلمين كي ينشروا دعوتهم على أوسع نطاق •

---

(١) كانت فى جمادى الأولى سنة ست من الهجرة ، وكانت للثـــأر لأصحاب الرجيع خبيب بن عدى وأصحابه •

(٢) ذو قرد : ماء على نحو بريد من المدينة مما يلى غطفان ، وكانت أسبابها أن عيينة بن حصن الفزارى قد أغار فى خيل معه على إبل لرسول الله (ص) بالغابة ـ وهو موضع قرب المدينة من ناحية الشـــام به أموال للمسلمين — فاحتملوا الإبل ، وقتلوا رجلا من بنى غفـــار كان فى الإبل ، وأخذو امرأته أسيرة •

(٣) كانت فى شعبان سنة ست من الهجرة وذلك لما ورد الى الرسول (ص) من أخبار تفيد أن بنى المصطلق بقيادة قائدهم الحارث بن أبى ضرار يستعدون لمهاجمته (ص) •

(٤) الحديبية قرية سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة ، التى بايع رسول الله (ص) تحتها أصحابه والتى سميت ببيعة الرضوان • بينها وبين مكة ، مرحلة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل . راجع معجم البلدان

ويلاحظ أن صوت الشعر قد خفت بعد معركة الخنــدق ، ولم نعد نرى من شعراء المسلمين وقريش على السواء ذلك الكم الهائل من الشعر الذى عهدناه منهم فى مثـــل تلك اللقاءات فى أغراض متعــددة كرثاء القتلى ، والإشادة بالنصر ، والنيـــل من الأعــداء والمناقصات التى كانت أساسية فى مثل تلك المعارك • وكأن أحداث بنى قريظة وما تم فيهــا قد أكدت للمسلمين أنهم فى نمو مطرد ، وهو ما كان يعتقده رسول الله (ص) ثقة فى ربه ، ويقينا فى رسالته• كما أن صلح الحديبية قد أعلن اعتراف قريش بأن للمسلمين كيــانا خاصا ، وأنهم أصحاب دين وعقيدة لهم منهجهم المستقل ، وقوتهــم المرهوبة • ولهذا لم يعد هناك حاجة إلى الشعراء الذى كانوا يتطاولون به على أعدائهم ، حيث صدم شعراء قريش فى آمالهم وطموحاتهم ، فانطووا على أنفسهم يجترون أحزانهم ، ويندبون حظوظهم العاثرة وقد لفهم الحزن العميق ، واحتواهم الصمت المطبق ، أما شــعراء المسلمين فقد استقرت نفوسهــم ، وهــدأت خواطرهم وتأكدوا من نصر الله لهم وتأييده لرسوله الكريم فقرت بلابلهم ، وتحولوا إلى ما ينفعهم فى دينهم ، ويثبت عقيدتهم فالتفوا حول الرسول يسمعون منه ويتدارسون معه مبادىء الدين والعقيدة وضربوا صفحــا عن ذلك الشعر الذى لم يعودوا فى حاجة اليه • ولذلك وجدنا ابن هشام لم يرو من الشعر فى هذه اللقاءات الثلاثة سوى ثلاثة أبيات فى غزوة بنى لحيان لكعب بن مالك (١) ، وحظيت ذو قرد بثلاثة مواقف لحسان بن ثابت فى أبيات دالية وأخرى رائية ، ثم سينية لكعب بن مالك ، وأبيات ستة لعيينة بن حصن (٢) • أما غزوة بنى المصطلق فلم يرو لها شعرا سوى أبيات أربعة لرجل قتــل قاتل أخيه ثم ارتد ، وبيتين آخرين لمقيس بن صبابة فى هذا الاعتــــداء (٣) • ولم يحظ موضوع النقائض بشىء من الشعر فى هذه اللقاءات الثلاثة • كما لم

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٠ •
(٢) السابق ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦
() السابق ص ٢٩٢ •

يرو ان ابن هشام من الشعر فى صلح الحديبية أكثر من ثلاثة اشطر رجزية وبيتين آخرين (١) .

وقد حظيت النقائض بموقف واحد فيما أعقب صلح الحديبية من أحداث وإن كان بين شاعرين كافرين — على خلاف ما تعودناه فى النقائض من انتظامها بين أنصار المسلمين من جهة ، وأنصار الكفار ومشركى قريش من جهة ثانية وسنعرض له فيما يلى :

(١) السابق ص ١١ .

١ — إن تكن العتاب تريد منى ... فعاتبنى

بعد صلح الحديبية عاد الرسول (ص) إلى المدينة بعد أن تحلل من العمرة ونحر الهدى . فجاءه أبو بصير — عتبة بن أسيد ابن جارية (١) — وكان ممن حبس بمكة مع من حبس من المستضعفين، فطلبت قريش رده إليهم ، فقال له الرسول (ص) : يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلى قومك » فرجع أبو بصير مع رجل من بنى عامر بن لؤى ومعه مولى له كانا قد حضرا إلى المدينة لطلبه ، حتى اذا كانوا بذى الحليفة عدا أبو بصير على الرجل الذى عاد به وهو من بنى عامر فقتله،وخرج المولى سريعا متجها إلى رسول الله (ص) ليخبره بما حدث . فلما بلغ سهيل بن عمرو قتل أبى بصير صاحبهم العامرى أسند ظهره إلى الكعبة ثم قال : والله لا أؤخر ظهرى عن الكعبة حتى يودى هذا الرجل ، فقال أبو سفيان بن حرب : والله إن هذا لهو السفه ، والله لا يودى ثلاثا . فقال فى ذلك موهب بن رباح أبو أنيس حليف بنى زهرة (٢) :

أتانى عن سهيل ذرو قول
فأيقظنى وما بى من رقاد (٣)
فإن تكن العقاب تريد منى
فعاتبنى فما بك من بعاد

---

(١) راجع هذا الموقف وأمر المستضعفين بعد صلح الحديبية فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٣٢ وقصةأبى بصير فى : أسدالغابة ٦/٣٦

(٢) قال حسان بن ثابت لموهب :

قد كنت أغضب أن أسب فسبنى ... عند المقامة موهب بن رباح

فأجابه موهب بأبيات منها :

وأنا امرؤ من أشعر بن مقاتل ... وبنو لؤى أسرتى وجناحى

فرد عليه حسان بى ثابت شعرا ،فقال عبدالرحمن بن عوف لحسان: خذ منى ثمن موهب بن رباح وأكفف عنه ، ففعل . راجع الإصابة ٩/٣٠١.

(٣) ذرو قول : أى طرف قول .

أتوعـــدنى وعبـد منــاف حــولى

بمخـــزوم ؟ ألهفى من تعـــادى (١)

فإن تغمـــز قنـــاتى لا تجــدنى

ضــعيف العود فى الكلب الشداد (٢)

أســـامى الأكرمـــين أبـــا بقـــومى

إذا وطىء الضعيف بهـــم أرادى (٣)

همــو منعـــوا الظواهر غير شك

إلى حيـث البواطن فالعـــوادى (٤)

بـــكل طمـــرة وبـــكل نهـــد

سواهم قد طوين من الطــراد (٥)

لهــم بالخيف قــد علمت معـــد

رواق المجـد رفــع بالعمــاد (٦)

فأجابه ابن الزبعرى فقال :

أمســى موهـــب كحمـــار ســـوء

أجــاز ببلـدة فيهـــا ينادى (٧)

فإن العبـــد مثـــلك لا ينـــاوى

سهيـــلا ، ضل سعيك من تعادى (٨)

---

(١) أتوعدنى : أتهددنى ؟ ·

(٢) تغمز قناتى : أى تجربنى وتختبرنى ·

(٣) أسامى : أعالى وأفاخر · أرادى : أرامى ، وهو مأخـوذ من قولهم : راديته ، اذا راميته ·

(٤) الظواهر : ما عـــلا من مكة . البواطن : ما انخفـــض منها . العوادى : جوانب الأودية ·

(٥) طمرة : الفرس الوثابة السريعة · النهد : الغليظ · السواهم : العوابس المتغيرة . طوين : ضعفن وضمرن . الطراد : مطاردة فرسانها أعاديهم ·

(٦) الخيف : موضع بمنى · الرواق : ضرب من الأخبية ·

(٧) أجاز ببلدة : أى أجازها وقطعها ·

(٨) لا يناوى ـ لا يناوىء : لا يعادى ·

فأقصر يا ابن قين السوء عنه
وعد عن المقالة فى البلاد [1]
ولا تذكر عتاب أبى يزيد
فهيهات البحور من الثماد [2]

مع النقيضتين :

١ — هذا لقاء فنى بين رجلين من أنصار قريش وأتباعها ، هما موهب بن رباح ، وعبد الله بن الزبعرى ، وكل منهما يتحدث بلسان جماعته ورهطه الذى يمثله ، فقد التجأ القاتل — أبو بصير بعد قتله للعامرى إلى العيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذونها فى طريقهم إلى الشام · فخرج إليه بعض المستضعفين ممن حبسوا فى مكة بعد الهجرة وانضموا إليه وبلغوا قريبا من سبعين رجلا ، هددوا تجارة قريش ، وروعوا أمن المارين بهم حتى كتبتقريش إلىرسول الله (ص) تسأله بأرحامها إلا أواهم، فلا حاجة لهم بهم ، فآواهم الرسول (ص) فقدموا عليه المدينة [3] · وبذلك يكون أصحاب ذى المروة قد عادوا إلى المدينة بموافقة قريش وسعيها لدى الرسول (ص) · وأصبح الأمر معلقا بين بنىعامربنلؤى التى تطالب بالدية لقتيلهم ، وبين قريش التى أنكرت عليهم طلبهم · ولذلك نجد أبا أنيس ينكر طلب سهيل ووعيده وتهديدهوفخرهموضحا أنه يقبل العتاب من سهيل للأخوة التى تربط بينهما أما أن يوعد ويتهدد فهذا ما لا يقبله ويرفضه لأنه ينتسب إلى بنى عبد مناف وبنى

---

(١) القين : الحداد ·

(٢) الثماد : الماء القليل · وراجع النقيضة وسابقتها فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٢٤ ، والسيرة النبوية ٣/٢٤٢ ، وسيرة النبى ٣/٧٨٨ ، والروض الأنف ٦/٤٧١ .

(٣) كتب رسول الله (ص) الى أبى بصير أن يباكره بالعود السريع إلى المدينة ، ويتسلم كتاب الرسول (ص) وهو يجود بأنفاسه إثر معركة ضارية أدمته جراحها ، ويحتضن كتاب الرسول (ص) ثم يغفو اغفاءة الأبد ويبكيه أصحابه بكاء حارا ثم يرجعون الى المدينة بقيادة أبى جندل امتثالا لأمر رسول الله (ص) فيلقاهم الصحابة مكبرين مهللين · راجع معارك الإسلام فى العصر النبوى ص ١١٤ .

مخزوم ، الذين اشتهروا بين العرب بأمجادهم وعراقة أصولهم وما عرفوا به من القوة والشجاعة ، بالإضافة إلى ما امتاز به هو من بطولة وشجاعة .

ويأتى ابن الزبعرى الذى ينحاز إلى بنى عامر ، ويدافع عن سهيل فيهجو موهبا وينفى عنه كل فضيلة ويجعل سهيلا أعظم منه قدرا وأرفع منزلة ولذلك يجعله عبدا وضيعا لا يصح منه أن يرتفع إلى منزلة سهيل ويناوئه أو يعاديه ، زاجرا له على هذا التطاول موضحا أنه يتدانى فى المكانة والمنزلة بينما يرتقى سهيل درجات المجد والرفعة ، فهيهات البحر من الماء الآسن .

٢ — والنقيضتان اشتركتا فى الهجاء والمفاخرة . وإن كان هجاء الشاعر الأول — موهب بن رباح — لم ينل ابن الزبعرى ، وإنما كان موجها إلى سهيل بن عمرو الذى طالب بدية قتيل قومه ، إلا أن ابن الزبعرى قد انتصف له وانبرى لموهب يرد قوله ، وينقض ادعاءه . لكننا نجد هجاء أبى أنيس كان من خلال فخره بنفسه وبقومه ومالهم من مكانة وبسالة شهد بها الجميع ، إلا أن هجاء ابن الزبعرى كان هجاء حادا مقذعا . فقد جعل أبا أنيس حمارا ناهقا ، وعبدا لا يصح أن يتسامى إلى مرتبة الأسياد الأحرار ، فالبون شاسع بين الرجلين والمسافة كبيرة بين عبد وكريم ماجد ، كالفرق بين البحر العظيم الممتلىء بالماء وبين الماءالقليل الذى لا قيمة له .

وأبيات الشاعرين فيها الوحدة الفنية واضحة ، والترابط قوى بين الأبيات وقد اتسمت ألفاظها بالقوة والجزالة والبعد عن التعقيد اللفظى أو الخشونة وفيها تتضح الروح الجاهلية حيث التفاخر بالأحساب والأنساب ، والخصومة واللجاج فى القول المبنى على الإقذاع فىالهجاء وتجريد الخصم من كل محمدة أو صفة كريمة . لكننا نجد أبيات موهب بن رباح تتسم بالهدوء ومحاولةالفخرالمستمدة عناصره من الانتساب إلى قوم عرفوا بالشجاعة والبسالة،بينما تعتمد

أبيات الزبعرى على الهجوم العنيف على الخصم والنيل منه،وتجريحه بكل سبيـــل ممكنة مما يسم أبياته بالعنف فى القول ، والقسوة فى الأحكام التى لا سند لها ولا أساس تعتمد عليـــــه ، سوى ضراوة الخصومة واللجاج فى العداوة .

ثانيا : مع أحداث خيبر :

رأى رسول الله (ص) أن يحسم الأمر — بعد معاهدة قريش مع مع اليهود ، فهم جرثومة الشر . التى لا تنى تفتك بجسم الدعـــوة الإسلامية ، وما انبعثت قلاقل المسلمين منذ الهجرة إلا بكيد هؤلاء. فسار إليهم فى نهاية المحرم من السنة السابعة للهجـــــرة فى ألف وستمائة من أصحابه ، واعتصم اليهود بحصونهم الشاهقة ، وأخذوا يستعدون للمقاومة وبدأت معركة حصار ينذر بالبطء . إذ مضت بضع عشرة ليلة دون عمل حاسم غير التراشق بالسهـــــام ، وهم مرحب اليهودى أحد أبطالهم بالنزال ، فخرج من حصنه « ناعم»ومعه سيفان ولأمتان إرهابا وتخويفا ، ونادى من يبارز وأخذ يرتجز :

قد علمت خيبــــــر أنى مــــــرحب
شـــــاكى السلاح بطــل مجرب (١)
أطعـــــن أحيـــانا وحينـــا أضـــرب
إذ الليـــــوث أقبلت تحــــرب (٢)
إن حمـــاى للحمى لا يقرب

فأجابه كعب بن مالك فقال :

قد علمت خيبــــــر أنـــى كعـــب
وأننى متى تشب الحــــــــرب

---

(١) شاكى السلاح : يريد أن سلاحه حاد ماض . مجرب : جربوه فى الشدائد .

(٢) تحرب : أى تغضب . تقول حرب الرجل حربا : اذا غضب .

ماض على الهول جرىء صلب

معى حسام كالعقيق عضب (١)

بكف ماض ليس فيه عتب

تدككم حتى يذل الصعب (٢)

فقال رسول الله (ص) من لهذا ؟ فقال محمدبن‌مسلمة(٣) : أنا له يا رسول الله ، أنا الموتور الثائر ، قتل أخى بالأمس • فقال : فقم إليه ، واللهم أعنه عليه • وكان لقاء صعبا دارت فيه معركة رهيبة سقط فيها مجن مرحب فخلع باب الحصن فى سرعة وتترس به ، وتقدم إليه محمد بن مسلمة وأخذ يداوره حتى أصاب منه مقتلا نافذا فهوى يتخبط فى دمه ، وتشجع المسلمون من خلفه فاقتحموا الحصن بعد أن نزع مرحب بابه ، وبعد نزال شرس بين الفريقين فتح المسلمون أول حصونهم « حصن ناعم » وغنم المسلمون منه مغانم كثيرة كانت مددا عظيما وباعثا بالأمل إلى نفوسهم بالفوز والنصر المبين • ثم أخذت حصونهم بعد ذلك تتهاوى على الرغم من مناعتها الشديدة ، فانهار حصن « الزبير » ثم حصن « أبى » ، ثم حصن « البرى » ، ثم حصن « القموص » بعد حصار دام عشرين ليلة ، ولم يبق سوى حصنين هما : حصنا الوطيح والسلالم فآثر أصحابهما السلامة ونزلوا إلى الرسول يطلبون الصلح فصالحهم رسول الله (ص) • وهكذا سكن أمر اليهود وأمن المسلمون شرهم نهائيا ، وتفرغ رسول الله (ص) إلى مكاتبة الملوك ، واستقبال الوفود ، وإيضاح أمور الدين ومبادئه لعامة المسلمين وغيرهم •

---

(١) العقيق : شعاع البرق ، شبه السيف به •

(٢) ليس فيه عتب : يريد ليس فيه ما يلام عليه • وقد اعتمدنا على ديوان كعب فى هذا الرجز ورواية ابن اسحق أوردت الأبيات باختلاف مع هذه الرواية ، راجع ديوان كعب بن مالك ص ١٨٣ والسيرة النبوية لابن هشام ٣٣٣/٢ ، والروض الأنف ٥٠٥/٦ .

(٤) ذكر صاحب كتاب معارك الاسلام فى العصر النبوى ص ١٢٠ الذى بارز مرحبا وقتله هو على بن أبى طالب • بينما ذكرت كتب السيرة جميعها أن الذى بارز مرحبا وقتله هو محمد بن مسلمة وهو الصحيح • راجع السابق ص ١٢٠ ، وراجع السيرة النبوية ٣٣٤/٢ ، والاكتفاء ٢٥٦/٢ ، وسيرة النبى ٧٩٦/٣ •

ثالثـا : فتح مكة :

وتتوالى الأحداث الإسلامية سراعا ، ويطوى الزمن صفحـات خالدات من الكفاح والنصر الإسلامى . إذ يعود جعفر بن أبى طالب مع من هاجر إلى الحبشة فرارا بدينهم محمولين على سفينتين وتقدم جعفر على رسول الله (ص) يوم فتح خيبر ، فيقبل الرسول (ص) بين عينيه ويلتزمه ثم يقول : « ما أدرى بأيهما أنا أسر ؟ بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر » ثم يخرج (ص) فى ذى القعدة سنة سبع من الهجرة معتمرا عمرة القضاء ويخرج معه المسلمون ممن كانوا قد صدوا معه فى عمرته السابقة ، ويؤدى الرسول (ص) مع أصحابه عمرة القضاء، ويقيم بمكة ثلاثا ، وأهل مكة يرقبونهم فى لوعة وحسرة ، ويعـود الرسول (ص) إلى المدينة فى ذى الحجة . ثم يبعث فى جمـادى الأولى سنة ثمان من الهجرة بعثة إلى الشام الذين أصيبوا بمؤتة . وتأتى الأخبار إلى رسول الله (ص) أن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة قد عدت على خزاعة ، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير . وكانت بنو بكر قد دخلت فى عقد قريش وعهدهـم بمقتضى صلح الحديبية ، كما دخلت خزاعة فى عقـد الرسول وعهده ، وقد رفدت قريش بنى بكر بالسلاح وقاتل معهم منقريشمنقاتل بالليل مستخفيا حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلجئوا إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم يقال له رافع ، فقدم على رسول الله (ص) بالمدينة عمرو بن سالم الخزاعى ثم أحد بنى كعب ووقف عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فقال :

يا رب إنى ناشـــد محمـــدا
حلف أبينـــا وأبيـــه الأتلدا

واستمر فى أبيات سبعة يدعو فيها الرسول (ص) إلى النصرة والتأييد بعد أن نقضت قريش عهدها وتظاهرت مع بنى بكر ، حتى

فقتلوهم ركعا وسجدا (١) ، فقال رسول الله (ص) : نصرت يا عمرو ابن سالم » ، ثم خرج بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا على الرسول (ص) المدينة، فأجبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم • ويأمر رسول الله (ص) بالتجهز للمسير إلى مكة • ويخرج إلى مكة لعشر مضين من رمضان فى عشرة آلاف من المسلمين، وقد طمست أنباء الرحلة عن أسماع قريش وأبصارها • ويصـــل الرسول (ص) إلى مكة ويفرق أصحابه على الطرق المؤدية إلى وسطها، ولما اطمأن المقام به (ص) خرج إلى البيت الحرام طائفا ، ثم وقف على با بالكعبة حين انتهى من طوافه وخطب الناس خطبة جاء فى آخرها : « يا معشر قريش ! ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ • قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » وهكــذا تم الفتح العظيم ، وتحقق أمل المسلمين فى القضاء على معاقل الشرك ، والإلحاد ، وعادوا إلى ديارهم آمنين مطمئنين •

وقد حظيت النقائض فى هذا الفتح العظيم بموقف واحد بين شاعرين مسلمين نذكره فيما يلى :

ـ أأنت الذى تهدى معد بأمره ؟! ـ

لما تم الفتح الأعظم ، قال أنس بن زنيم الديلى (٢) يعتذر إلى رسول الله (ص) مما كان قال فيهم عمرو بن مسلم الخزاعى :

أأنت الذى تهـــدى معـــد بأمـــره
بل الله يهـــديهم وقال لك اشهـــد

---

(١) راجع أبيات عمرو بن سالم الخزاعى فى السيرة النبـــوية ٣٩٤/٢ •

(٢) أنس بن زنيم : كان شاعرا ، وهو الذى كان يحرض على على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان قد هجا النبى (ص) فأهدر دمه ، فلما كان عام الفتح أسلم أنس ، وأتى الرسول (ص) يعتذر اليه مما بلغه ، وكلمه فيه نوفل بن معاوية الديلى ، وقال : « وأنت أولى الناس بالعفو فعفا عنه » وقد نسب صاحب أسد الغابة الأبيات الى أسيد بن أناس • راجع أسدالغابة ١٠٨/١ ، ١٤٧ •

وما حملت من ناقة فـوق رحلهـــا
أبر وأوفى ذمـــة مـــن محمـــد

أحث على خير وأسبـــغ نائـــلا
إذا راح كالسيف الصقيل المهند (١)

وأكسى لبرد الخـــال قبـــل ابتـــذاله
وأعطى لرأس السابق المتجـــرد (٢)

تعلم رســـــول الله أنـــك مـــدركي
وأن وعيدا منك كالأخـــذ باليـــد (٣)

تعلـــم رســـــول الله أنـــك قـــادر
على كل صرم متهمين ومنجـــــد (٤)

تعـــلم بأن الـــركب ركب عـــويمـــر
هم الكـــاذبون المخلفـــون كل موعد

ونبـــــوا رسول الله أني هجـــــوته
فلا حملت ســـــوطي إلي يـــدي

سوى أنني قد قلت ويل ام فتيـــة
أصيبوا بنحس لا بطلق وأسعـــد (٥)

أصابهمـــــو من لم يكن لدمائهــــم
كفاء فعزت عبرتي وتبــــلدي (٦)

---

(١) أحث : أسرع، وأشد حثا للناس واستنهاضا لهمتهم ٠ أسبغ : أكمل ٠ النائل : العطاء ٠

(٢) الخال : ضرب من برود اليمن ٠ ابتذاله : استعماله حتى يبتذل ٠ السابق : المقصود به هنا الفرس ٠ المتجرد : أراد به الذى يسبق الخيل ٠

(٣) تعلم : معناه : اعلم ٠ الوعيد : التهديد ٠

(٤) صرم : البيوت المجتمعة ٠ متهمين ومنجد الذين يسكنون تهامة، ويسكنون نجـــدا ، وأراد بتهامة : المنخفض من الأرض ، وبنجد المرتفع منهـــا ٠

(٥) الطلق : اليوم الذى لا حر فيه ولا برد ، ولا شيء يؤذى ٠

(٦) كفاء : نظيرا ومكافئا عزت : اشتدت حتى غلبتنى ٠ العبرة: الدمعة ٠ تبلدى : تحيرى ٠

فإنك قــد أخفرت إن كنت ساعيــا

بعبد بن عبـــد الله وابنة مهـــود (١)

ذؤيب وكلثـــوم وســـلمى تتابعــوا

جميعا فالا تدمع العـــين أكمـــد (٢)

وسلمى وسلمى ليس حى كمثـــله

وإخوته وهــــل مـــلوك كأعبـــد

فإنـــى لا دينـــا فتقـــت ولا دمـــا

هرقت تبين عـــالم الحق واقصـــد (٣)

فأجابه بديل بن مناف بن أم أصرم فقال :

بكى أنس رزنـــا فأعـــوله البـــكا

فألا عـــديا إذ تطـــل وتبعـــد (٤)

بكيــت أبـــا عبس لقرب دمائهـــا

فتعــذر إذ لا يوقد الحرب موقــد

أصابهمـــو يوم الخنا دم فتيـــة

كرام فســـل ، منهم نفيل ومعبـــد (٥)

هـــنالك إن تسفح دموعك لا تلـــم

عليهم أو ان لم تدمع العين فاكمدوا (٦)

قال ابن هشام : وهذه الأبيات فى قصيدة له ٠

---

(١) أخفرت : نقضت العهد ٠

(٢) أكمـــد : هو من الكمد ، وهو الحزن .

(٣) راجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٢٤ ، والروض الآنف ٥/١٢١ ، وسيرة النبى ٤/٨٧٩ ٠

(٤) بديل : هو بديل بن سلمة بن خلف بن عمرو ٠٠٠ وهو بديل بن أم أصرم ، وعرف بأمه « أم أصرم » وهو الذى بعثه رسول الله (ص) ومعه بسر بن سفيان الى بنى كعب يستنفرهم لغزو مكة . وقد ذكره أبو موسى عن ابن منده أنه : بديل بن عبد مناف بن سامة بن خلف ٠٠٠ راجع أسد الغابة ١/٢٠٢ والاصابة ١/٢٣٠ ٠

(٥) العويل : رفع الصوت بالبكـــاء ٠ أعوله : صيره ذا عويل ٠ تطل : تهدر دماؤها وتبطل ولا تؤخذ بثأرها .

(٦) يوم الخنادم : أراد يوم الخندمة وهو جبل بمكة ٠

(٧) تسفح : تسيل ٠ أكمدوه : هو من الكمد وهو الحزن ٠

مع النقيضتين :

١ — تشابكت الأحداث الإسلامية واتسعت ، ومع ذلك وجدنا الشعر لا يرتفع إلى مستوى الأحداث ويتمكن من متابعتها . بل إن ذلك اللون من النقائض قد اختفى تماما فى أكثر من لقاء على الرغم من توافر بواعثه . فعودة المهاجرين المطرودين إلى المدينة وسعادة الرسول (ص) بهم مع المسلمين ، وعمرة القضاء ، وأحداث مؤتة لم نجد فيها شيئا من النقائض . وصلح الحديبية لم يرد فيهـا سوى موقف واحد بين شاعرين مشركين . وأحداث الفتح الأعظم لم نر فيه من هذا اللون الشعرى سوى موقف واحد هو الذى بين أيدينـا ومع ذلك لم يرتبط بالحدث الكبير ارتباطا مباشرا مما يوضح خفوت صوت الشعر وضموره ، بل وتهالكه وضعفه ، وكأن المسلمين قـد انبهروا بتمكين الله لرسوله فى الأرض وتأييده له بالنصر العظيم ، فالقوا بأدوات شعرهم الذى وجدوا فيه انشغالا عن مرافقة الرسول (ص) والجلوس إليه يسمعون ويفهمون ويناقشون ويتفقهون .

والمباراة الشعرية التى بين أيدينا هى بين شاعرين جديدين على الشعر ، أو قل على ذلك اللون الذى نعنى به فى هذه الدراسة وهو فن النقائض إذ لم نسمع بهما فى الأحداث الإسلامية الأولى كغزوة بدر ، وأحد ، وموقعة الخندق وغيرها . وأنس بن زنيم فى هـذه الأبيات يقدم اعتذاره إلى رسول الله (ص) بعد أن عفا عنه وقبـل إسلامه . وكان النبى (ص) قد أهدر دمه لأن عمر بن سالم الخزاعى جاء فى ركب إلى النبى (ص) من خزاعة — حليفة الرسول (ص) — يستنصرونه على بنى بكر التى اعتدت عليهم وناصرتهم قريش فى اعتدائها ، فلما فرغوا من كلامهم قالوا يا رسول الله : إن أنس بن زنيم الديلى قد هجاك ، فأهدر الرسول (ص) دمه . والأبيـات فى مدح الرسول (ص) : فلم تحمل ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد ، وهو أسرع إلى فعل الخير وحث الناس واستنهاضهم عليه ، وهو أسبغ عطاء ، وأكسى للبرود الجديدة ، وأعظم عطاء ، وأحكم يدا

على أعدائه • وأنه قادر على أن تصل قبضته إلى مخالفيه فى كل مكان• كما يعتذر إلى الرسول (ص) عما ادعاه فقد عمرو بن سالم الخزاعى، مكذبا ما قالوا من الاعتداء عليهم ، وهجوه للرسول (ص)،فهم كاذبون مفترون ، وحقيقتهم أنهم هم الذين اعتدوا ونقضوا العهد ، ولذلك فإنه حزن على ما أصاب قومه نتيجة ذلك الغدر الذى ناصرت فيه كثير من القبائل خزاعة ، وهو لم ينل الدين بشىء من الهجــو أو الإساءة إليه ، ولم يقدم على إراقة دم لأحد • هذه هى حقيقة الأمر يضعهـــا فى جلاء تام أمام الرسول (ص) ليتبين منها موقفه ويحكم عليها من خلالهـــا •

أما بديل ، فإنه يرد فى أبياته الأربعـــة على أنس معيرا له بالهزيمة ، موضحا أن ما أصاب قومه وما نزل بهم كان على يد فتية كرام من آل نفيل ومعبد ، وأن ما يذرفه من دمع سخين على ما أصابهم لا لوم فيه أو عتاب فهو نتيجة طبيعية للاعتــداء والغدر ، وإذا لم يسعفه البكاء فيكفيه ما هو فيه من حزن قاتل ، وتمزق نفسى •

٢ ــ واعتذار أنس يعيد إلى الأذهان اعتذاريات النابغة الذبيانى، وفنائه الذاتى فى هذا الاعتذار • فقد تعرض كلاهما لوشاية كادت تودى بحياته • فكان الهلع والرعب والفزع • لكن الشاعرين يهرعان إلى إيضاح الحقيقة وبيان موقفهــما ، ودحض المزاعم والافتراءات التى ألصقها الأعداء بهما ، فكان الصدق فى التعبير والأداء الفنى الجيد •

وأفكار هذه الأبيات تنتظمها ثلاثة أفكار جزئيـــة هى : مـــدح الرسول (ص) ، ثم دحض مزاعم وافتراءات الأعداء ، واتهام خزاعة بالاعتداء ونقض العهد • وهى أفكار متعانقة ، تسلم بعضها إلى بعض فى خيط فكرى واحد مما يجعل الأبيات فى ترابط قوى • وما أروع ما اختتم الشاعر به قصيدته ، إذ جاء البيت الأخير تلخيصـــا لغرض الشاعر من قصيدته ، وبيانا لما كان عليه أمره • فهو لم يتجرأ على

الدين ، ولم ينقض عهدا أو يريق دما . وكما كانت النهاية رائعة ، فإن البدء كان عظيما موفقا فيه غاية التوفيق ، إذ اتجه الشـــاعر إلى طرح سؤال فيه كثير من التعجب والانبهار ، وهو فى الوقت ذاته سؤال تقريرى يقرر الواقع ويرسى حقيقة ثابتة . فيجيبه الرسول (ص) : بل الله يهديهم . فيكمل الشاعر البيت بقول الرسول (ص) : « بل الله يهديهم وقال لك اشهد » ثم بين أسباب تلك الطـاعة فى البيت التالى وما يليه ، مؤكدا أنها تعود إلى ما يتمتع به الرســــول (ص) من خلق رفيع وصفات كريمة .

وإذا كانت أبيات بديل قد ركزت على تعيير أنس بالهزيمة فإنها أوضحت أن موقد الحرب لا بد أن يصطلى بنارها ، ولذلك فقد كان الغدر والخيانة سيفا مسلطا على رقاب المعتدين جنوا بسببه البكاء المر والحزن الدفين ، وذلك حصاد الاعتداء ، والحصيلة العادلة له . ولغة الشاعرين لغة طيعة تدل على تمكن الشـــاعرين من أدوات الفن الشعرى ، ورهافة الحس الفنى ، ورقة الطبع ، والذوق الحضرى ، الذى ينأى عن التعقيد اللغوى والخشونة فى الألفاظ .

ولا شك أن أبيات أنس أغزر أفكارا ، وأقوى ترابطا ، كما تسرى فيها عاطفة الشاعر المحبة للرسول (ص) الممتزجة بالألم لما ناله به الواشون وما أنزله أعداؤه بقومه مما أبكاه وأشجى فؤاده .

رابعا : سرية خالد بن الوليد ــ بعد فتح مكة ــ إلى بنى جذيمة :

بعد فتح مكة بعث رسول الله (ص) السرايا فيما حولها تدعو إلى الله عز وجل ، ولم يأمرهم بقتال ، وكان ممن بعث : خالد بن الوليد إلى أسفل تهامة . فلما رآه القوم أخذوا السلاح . فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا ، فقال رجل منهم لقومه بنى جذيمة يقال له جحدم : ويلكم يا بنى جذيمة ، إنه خالد والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق ، والله

لا أضع سلاحى أبدا ، فلم يزل به قومه حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح لخالد ، لكن خالدا أمر بهم عند ذلك فكتفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم . فلما انتهى الخبر إلى الرسول (ص) رفع يديه إلى السماء ثم قال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ابن الوليد » • ثم دعا على بن أبى طالب وأمره أن يخرج إلى هؤلاء القوم وأن يضع أمر الجاهلية تحت قدميه ، فخرج ومعه مال كثير فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى لم يبق شىء من دم ولا مال إلا أوداه وبقى معه بقية من المال فأعطاهم إياه احتياطا لرسول الله (ص) مما لا يعلم ولا يعلمون (1) • وقد قدحت هـــذه الأبيات فكر الشعراء ، وأثارت مشاعرهم ، وغنم فن النقائض من ذلك موقفين نعرض لهما فيما يلى :

---

(1) راجع مسيرة خالد الى بنى جذيمة ، ومسير على لتلافى خطأ خالد فى السيرة النبوية لابن هشام ٤٣٨/٢ •

١ — ولولا مقال القوم للقوم أسلموا ... !

قال قائل من بنى جــــذيمة ، وبعضهم يقول : امرأة يقال لها سليمى :

ولولا مقـــال القـــوم أســلموا
للاقت سليــم يــوم ذلك ناطحــــا
لماصعهم بسر وأصحــاب جحــدم
ومــــرة حتى يتركوا البرك ضابحا (١)
فكائن ترى يوم الغميصــاء من فتى
أصيب ولم يجرح وقد كان جارحــا (٢)
ألظت بخطــاب الأيامى وطلقت
غداتئـــذ منهــن من كان ناكحــــا (٣)

فأجابها عباس بن مرداس (٤) ، ويقال بل الجحــف بن حكيم السلمى :

دعى عنك تقــوال الضلال كفى بنــا
لكبش الوغى فى اليوم والأمس ناطحا(٥)

---

(١) المصاع والماصعة : المضاربة بالسيوف . البرك : الابل باركة. ضابحا : صائحا .

(٢) الغميصاء : اسم موضع .

(٣) ألظت : ألزمت وألمت ، الأيامى : جمع أيم ، وهى التى لا زوج لها . وراجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٤٣٢/٢ ، والروض الأنف ١٢٩/٧ وسيرة النبى ٨٨٥/٤ .

(٤) عباس بن مرداس : هو العباس بن مرداس بن أبى عامر ... من بنى سليم بن منصور ، ويكنى بأبى الهيثم . أمه زنجية . وكان فارسا شجاعا سيدا فى قومه ، وشاعرا مشهورا . وقد هاجى فى الجاهلية ابن عمه خفاف بن ندبة ، ثم تمادى الهجاء بينهما حتى احتربا وكثر القتلى من أنصارهما . ولما انتشرت الدعوة الاسلامية فى العرب سار ابن مرداس فى تسعمائة رجل من قومه ليفد على الرسول (ص) ، فعلم أن الرسول قد توجه الى فتح مكة فلحق به وأدركه فى « كديد » وهو ماء فى منتصف =

(٥) الكبش هنا الرجل السيد . الوغى : الحرب .

غخالد بالتعذر منكمو
غداة علا نهجا من الأمر واضحا

معانا بأمر الله يزجى إليكمو
سوانح لا تكبو له وبوارحا (1)

نعوا ملكا بالسهل لما هبطنه
عوابس فى كابى الغبار كوالحا (2)

فإن نك أثكلناك سلمى فمالك
تركتم عليه نائحات ونائحا (3)

الدراسة الفنية :

هذا موقف من مواقف الشعر الذى يسجل حادثة من الأحداث الإسلامية التى أنزعج لها الرسول (ص) وتبرأ منها وحاول أن يخفف من آثارها على من نزلت بهم فأرسل بعلى بن أبى طالب ومعه مال كثير ليعوض المصابين المعتدى عليهم ، وقد بالغ على رضى الله تعالى عنه فى تعويض هؤلاء الناس حتى ليروى أنه كان يدى لبنى جذيمة ميلغة الكلب — وهى الخشبة المحفورة ليلغ فيها الكلب — ولم يقر للرسول

= الطريق بين مكة والمدينة . فأسلم ومن معه ثم انصرفوا الى جيش الرسول، واشتركوا فى فتح مكة . ويبدو أن اسلام العباس فى أول الأمر كان سياسيا ، فانه بقى مدة فى عداد المؤلفة قلوبهم ، ثم حسن اسلامه وشهد مع الرسول (ص) حنينا . وهو شاعر مخضرم اشتهر بالهجاء وله شىء من الحماسة والفخر والحكمة ، واشعاره فى حنين خاصة كثيرة ، وهو فى سلوكه كان جافا بدوى الطبع . وكانت وفاته فى نحو سنة ١٨ هـ . راجع: الاصابة ٥/ ٣٣٠ ، وأسد الغابة ١٦٨/٣ ، وتاريخ الأدب العربى لعمر فروخ ٢٧١/١ وما بعدها . وراجع ترجمة موجزة له ص ١٧٧ من هذا الكتاب .

(١) يزجى : يسوق . السوانح : جمع سانحة وأصله من الطير ما مر من مياسرك الى ميامنك . لا تكبو : لا تسقط ولا تعيا . البوارح : ما مر من الطير من ميامنك الى مياسرك . وكان العرب يتيامنون بالسوانح ويتشاءمون بالبوارح . وأراد هنا : أن الخيل تحدق بهم وتجيئهم من كل جهة .

(٢) عوابس : جمع عابس ، وهو الذى انقبضت شفاهه فظهرت أسنانه .

(٣) أثكلناك : أفقدناك . سلمى : منادى .

قرار حتى جاءه على فأخبره بما فعل فقال له : أصبت وأحسنت : ثم قام فاستقبل القبلة قائما شاهرا يديه حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه ، يقول : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » ثلاث مرات . والأبيات الأولى فى هذه النقيضة تتحدث بها امرأة من بنى جذيمة موضحة أنه لولا الأمان الذى أعطاهم إياه خالد بن الوليد للاقت قبيلة سليم بن منصور التى رافقت خالد بن الوليد فى هذه المسيرة ما يردعها ويردها على أدبارها ، ولقاتلوهم قتالا عظيما ، لكن القوم أخذوا على غرة وتحول الفرسان الشجعان من قومها إلى صرعى وتحولت النساء إلى أرامل وأصبحن بلا زوج أو عائل . والأبيات بكاء حار ودمع سخين على ما أصاب قومها وما نزل بهم نتيجة لعدم الوفاء بالعهد ، والغدر بهم وهو ما يصم عمل خالد بن الوليد ويشجبه، ويتعارض مع تعاليم الإسلام ومبادئه ، وماأمر به الرسول (ص) عند ذهاب تلك المسيرة . إلا أن خالد بن الوليد — كما يظهر من سياق الأحداث ، لم يستطع أن يتخلص من خلق الجاهلية ، وهو الأخذ بالثأر ، فقد ثأر لمن قتلهم بنو جذيمة (١) قبل الإسلام وفيهم الفاكه بن المغيرة عمه ، ولذلك نجد عبد الرحمن بن عوف يقول لخالد : عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام « فيقول له خالد : إنما ثأرت بأبيك فيقول له عبد الرحمن : كذبت ، قد قتلت قاتل أبى ، ولكنك ثأرت بعمك الفاكه ابن المغيرة حتى كان بينهما شر ، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فقال: مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابى ، والله لو كان لك أحد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ، ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحة » (٢).

أما أبيات عباس بن مرداس فإنها تدعو سلمى إلى الكف عن قول

---

(١) قتل خالد بن هشام من بنى جذيمة ومن معه من رجال ، عوف بن عوف ، والفاكه بن المغيرة قبل الاسلام أثناء خروجهما مع آخرين فى تجارة الى الشام . فقتل عبد الرحمن بن عوف قاتل أبيه خالد بن هشام . راجع تفاصيل ذلك فى السيرة النبوية ٢/٤٣٢ .

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٣١ ، والروض الأنف ٧/١٢٥ .

الأباطيل والأحاديث الكاذبة عن شجاعة قومها وبسالتهم ، ويكفى أن قومها قد أصيبوا على يد قوده فى الماضى والحاضر ، وأن خالد بن الوليد له عذره فيما فعل فيكم عندما ساق خيله إليكم فأحدقت بكم وجاءتكم من كل مكان ، فأصابوكم اليوم كمـــا أصابوكم بالأمس وتركوكم نوحى وثكالى كما هو حالكم وشأنكم الدائم •

٢ ــ وإذا كانت أبيات سلمى بكاء حارا وتعريضا بموقف خالد من قومها ، فإن أبيات عباس بن مرداس تدافع عما فعل وتعزى ذلك إلى أن جند الله مؤيدة بنصره وتأييده والتغلب على أعداء الدعوة • لكن الرسول (ص) قد رفض هذا المنطق ، وعزا فعل خالد إلى بقيــة من خلق الجاهلية ، ولذلك رأيناه فى بعثه لعلى بن أبى طالب ينصحه بالابتعاد عن ذلك الخلق قائلا له : « يا على اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » (1) وهـــذا التوجيه العظيم ينظر إلى ما فى النفس من بقايا خلق الجاهلية وغلبة ذلك على كثير من النفوس ، ولذلك حرص على أن ينتزع هذا المسلك من على رضى الله عنه فقال له : « اجعله تحت قدميك » تحقيرا لذلك الخلق ورفضا له •

وأبيات سلمى يجمعها وحدة الفكر والمشاعر ، فهى ذوب نفس امرأة على ما أصاب قومها من تلك الهجمة الشرسة ، ومرارة دفينة تنضح بالألم وتعتصر فؤادها لما آل إليه أمر آلها وأخواتها •

أما أبيات عباس بن مرداس ففيها جانب التعصب للقوم ، والفخر بهم وبشجاعتهم التى يتغلبون بها على عدوهم ، وينالون منه حتى لو كان ذلك بلا ذنب جناه ، أو بلا جريرة اقترفها ، المهم أنهم يصيبون أعداءهم ، ويظهرون عليهم بما يسكت ألسنة المتطاولين ، ويصمى أفئدة المعاندين وهذا ولا شك خلق يأباه الإسلام ويرفضه ، حيث كفل الإسلام حرية

(1) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٢٨ •

الفرد والجماعة ، ويهيىء سبل العيش الكريمة لجميع الأفراد طالما أنهم لا ينقضون عهدا ، أو يثيرون فتنة . وإن كنا نلتمس العذر لابن مرداس الذى كان إلى عهد قريب من المؤلفة قلوبهم ، ولم يدخل الإسلام فى قلبه إلا مع بشائر فتح مكة ، وهو عهد قريب من تلك البعثة التى بعث فيها خالد إلى بنى جذيمة . ولم تكن تلك الفترة بين إسـلامه وبين قوله تلك الأبيات كافية لأن يتشرب تعاليم الإسلام ويحـارب فى نفسه خلق أهل الجاهلية التى درج عليه وتربى فى أحضانه .

٢ ــ لقد نهلت فينا الرماح وعلت

وقال رجل من بنى جذيمة أيضا :

جـــزى الله مدلجــا حيث أصبحت
جزاءه بؤسى حيث سارت وحلت (١)
أقاموا على أقضاضنا يقسمونهـــا
وقــد نهات فينــا الرمــاح وعلت
فوالله لولا دين آل محمــــــد
لقـــد هربت منهــم خيــول فشلت
وما ضرهم أن لا يعينـــوا كتيبـــة
كرجــل جــراد أرسلت فاشمعلت (٢)
فإما ينيبـــوا أو يثوبوا لأمــرهم
فلا نحن نجزيهم بمــا قد أضلت (٣)

فأجابه وهب رجل من بنى ليث فقال :

دعـــونا إلى الإسلام والحق عامرا
فما ذنبنـــا فى عامــر إذ تــولت
وما ذنبنـــا فى عامر لا أبالهــم
لأن سفهت أحــلامهم ثم ضلت (٤)

هذه هى أبيات لرجل من بنى جذيمة تحمل أله وحزنه على مانزل

---

(١) مدلج : هى قبيلة مدلج بن مروة ، قد رافقت خالد بن الوليـــد مع قبيلة سليم بن منصور فى هذه السرية .
(٢) الأقضاض : جمع قض ، وأراد به هنا المال المتجمع ٠ ونهلت من النهل ، وهو الشرب الأول ٠ علت : من العلل ، وهو الشرب بعدالشرب٠
(٢) رجل جراد : جماعة منهم : اشمعلت : تفرقت ٠
(٣) يثوبوا : يرجعوا ٠
(٤) راجع : النقيضتين فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٣٥ ، والروض الآنف ٧/١٣٢ ، وسيرة النبى ٤/٨٨٨،والسيرة النبوية٤/٣٢٩٠

بقومه نتيجة تلك الهجمة الشرسة التى رافقت فيها قبيلة مدلج بن مرة خالد بن الوليد وانقض رجالها على أموالهـم يقتسـمونها ، وأعملوا رماحهم وأسلحتهم دون رحمة أو هوادة ، مستغلين استجابتهم إلى النداء الذى وجهه خالد إليهم بوضع السلاح لأن القوم أسلموا ستارا وخدعة ، ولولا ذلك لكان لهم عليهم الانتصار العظيم والتفوق الساحق. طالبا منهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وينيبوا عما فعلوا ، وإلا فإنهم قادرون على رد ما نزل بهم ومجازاتهم بمثل صنيعهم .

ويرد عليه وهب قائلا إننا قد دعوناكم إلى الإسلام ، مع من دعونا ، وأوضحنا طريق الحق إلا أنكم انصرفتم عن تلك الدعـــوة وأضلتكم أحلامكم ولم تستجيبوا لدعوة الرشاد فكان هذا هو الجزاء العادل للضالين المعاندين .

وأبيات ابن جذيمة تنعى على بنى مدلج الغدر والتغرير بهم ، وتوضح أنهم كانوا قادرين على صدهم والتغلب عليهم لولا ما تذرعوا به من وسائل ، ورفعوه من شعار . وهى فى الوقت ذاته تبين عنف ما لحق بهم وفداحة خطبهم حيث جردوهم من أموالهم ، وأعملوا فيهم أسلحتهم حتى أثخنوهم بالقتل والجراح . أما بيتا وهب فهما تبرير لذلك الاعتداء ، وذريعة يتذرع بها لبنى مدلج لكنها ذريعة واهيـــة تخالف تعليمات الرسول (ص) إلى خالد حيث لم يبعثه مقاتلا ، وإنما بعثه داعيا إلى الله عز وجل ، ولكنه قدم السيف على الدعوة ،والحرب على النصح والإرشاد .

ولهذا وجدنا الرسول (ص) يبرأ مما فعل خالد ، بل إنه يسارع إلى إرسال على رضى الله عنه ، ليخفف مما نزل بالقـــوم ، ويعلن للناس جميعا رفضه (ص) لما قام به خالد . ويبقى ذلك الموقف النبوى العظيم علامة مضيئة — على مر الزمن — لرفض الإسلام للعنف ، وإنكاره للإعتداء وترويع الآمنين .

خامسا : أحداث حنين :

وجدت ثقيف وهوازن أن انتصار رسول الله (ص) فى فتحمكة إنما هو طريق للقضاء عليهم وإهلاكهم • فقد كانت مكة خط الدفاع الأول عنهم • فاستسلام مكة لم يثبت لهم قرار فى مكان • وظنوا الظنون برسول الله ، وقالوا لقد فرغ من قومه ، وها هو ذا يتهيــأ لنـا ، فلا بد أن نغزوه قبل أن يغزونا • واجتمعت إليهم قبائل أخرى تحمل فى نفسها العداء للرسول (ص) ودعوته • واجتمع مالك بنعوف زعيم بنى ثقيف برؤساء قومه قائلا : إن محمدا لم يقاتل جيشا قبــل هذه المرة ، وإنما كان يلقى أغرارا من العرب لا علم لهـــم بشئون الحرب ، فينتصر عليهم ، فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم تكون الحملة منكم ، وستلقونه بعشرين ألف سيف ، فاحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن الغلبة لمن يهجم أولا• ولم يجد الرسول بدا من القتال ، فأخذ يجمع العدة ويهيىء الرجال ، وبعد أن جلب إليهم بعض الأسلحة خرج فى ألفين من أهـــل مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة فكانوا إثنى عشر ألفا واتجهوا إلى هوازن ثم انحدروا إلى واد من أودية تهامة ولم يعلموا أن هوازن قد سبقتهم إليه ، فما راع الجيش إلا وطــلائع هوازن تهجم عليهم تغتال وتقتل فى وحشية ضارية ،فبوغتالمسلمون وتفرقوا مذعورين ،وكانت محنة قاسية ، ثم أخذ العباسبنعبدالمطلب — وكان قوى الصوت عاليه — ينادى المسلمين من المهاجرين والأنصار أن يجتمعوا إلى الرسول ، والرسول ينادى الناس :

أنا النبى لا كــــذب أنـــا عبـــــد المطلب

وحمى الطعن والضرب ، وسارع المسلمون بالالتفــــاف حول الرسول (ص) وأخذ المسلمون يستعيدون مواقعهم حول الرسول ، ولم يمض وقت طويل حتى هزمت هوازن ، وفر زعيمها مالك بن عوف ومن معه إلى الطائف ، وقتل دريد بن الصمة من بنى جشم ،وهوشيخ

مجرب للحروب ، رافقهم للاستشارة برأيه في تلك الحرب • وترك المشركون وراءهم كل ما ساقوا من الأموال والأنعام والنساء والبنين، فجمع المسلمون من غنائمهم ما لا يقع تحت حصر ، ورحل المسلمون إلى الطائف فوجدوا القوم يتحصنون بها ومعهم مالك بن عوف • وكان موقفا صعبا حيث أخذ المشركون يقذفون المسلمين بالنبال حتى قتلوا منهم ثمانية عشر رجلا وجرح الكثير ، فاستعان المسلمون ببنى دوس الذين لهم علم بالرماية واستخدام المنجنيق،فرموا المعتصمين بالمنجنيق وقطع المسلمون الكروم التى تعيش ثقيف على خيرها الجزيل•ففزعوا لذلك وبعثوا يناشدون الرسول (ص) ألا يفعل ، وجاء وفد هوازن إلى الرسول (ص) وقد أسلموا وتشفعوا لديه في نسائهم وأولادهم فرد عليهم الرسول ما طلبوا • وانطلق المسلمون إلى الجعرانة ، ومعهم من السبى والغنيمة ما يأخذ بالألباب ، وأعطى الرسول (ص) المؤلفة قلوبهم منها الشىء الكثير حتى أثار ذلك حفيظة الأنصار وقالوا يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فجمعهم الرسول (ص) وخطبهم موضحا أنهم أحب إليه وأقرب إلى نفسه حتى بكى القوم ، وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا ، ثم خرج رسول الله (ص) من الجعرانة معتمرا ، فلما فرغ منها انصرف إلى المدينة راجعا فوصلها لست ليال بقين من ذى القعدة من السنة الثامنة للهجرة [1] •

وكان حصاد هذا اللقاء في مجال النقائض مباراتين أيضا •

---

١ – راجع أحداث غزوة حنين والمسير الى الطائف وعمرة الرسول (ص) من الجعرانة فى السيرة النبوية ٢/٤٣٧ وما بعدها ، والروض الأنف ٧/١٩٠ ، ومعارك الاسلام فى العصر النبوى ص ١٤٧ وما بعدها .

١ ــ لقد أحببت ما لقيت ثقيف

قال عباس بن مرداس فى يوم جنين :

إنى والســـوابح يــوم جمـــــع
وما يتلــو الرســول من الكتاب [١]
لقـــــد أحببــت ما لقيــت ثقيف
بجنب الشعب أمس من العـــذاب
همــو رأس العــدو من اهــل نجــد
فقتلهمو ألـــذ مــن الشـــراب
هزمنـــا الجمــع جمـــع بنى قسى
وحكت بركهـــا ببنى رئـــاب [٢]
وصرما من هـــلال غادرتهـــم
بأوطـــاس تعفـــر بالتـــراب [٣]
ولو لاقــين جمـــع بنى كـــلاب
لقـــام نســـاؤهم والنقـــع كابى
ركضنـــا الخيـــل فيهــم بين بس
إلى الأورال تنحــط بالنهـــاب [٤]

---

(١) يوم جمع : هو يوم المزدلفة ، وهو المشعر الحرام أيضا .

(٢) البرك: الصدر . والضمير فىبركها يعود الى الحرب المفهومة من كلامه ، ولهذا ساغ له اضمارها وان لم يذكرها قبل ذلك ·

(٣) أوطاس : قال ياقوت : « واد فى ديار هوازن كانت فيه وقعة حنين للنبى (ص) ببنى هوزان الصرم : جماعة بيوت انقطعت عن الحى الكبير أوطاس : اسم موضع قال عنه ياقوت : واد فى ديار هوزان كانت فيه موقعة حنين للنبى (ص) ببنى هوازن . ويومئذ قال النبى (ص) : الوطيس ، وذلك حين استعرت الحرب ، وهو (ص) أول من قاله · تعفر بالتراب : كناية عن وقوعهم مجدلين فوق التراب ·

(٤) تنحط ـ بفتح فسكون فكسر ـ تخرج نفسها عاليا · النهاب : جمع نهب ، وهو ما ينتهب من الغنائم ·

بذى لجب رســـول الله فيهـــم
كتيبتـــه تعـــرض للضـــراب (١)

فأجابه عطية بن عفيف النصرى (٢) — فيما قال ابن هشام — فقـــال :

أفاخـــرة رفاعـــة فى حنيـــن
وعبـــاس ابن راضعـــة اللجاب (٣)
فإنك والفخـــار كـــذات مـرط
لربتهـــا وترفـل فى الإهـــاب (٤)

قال ابن إسحق : وقال عطية بن عفيف هذين البيتين لمـــا أكثر عباس على هوازن فى يوم حنين ، ورفاعة من جهينة .

الدراســـة الفنيـــة :

١ — هذه مبارزة أدبية بين عباس بن مرداس الذى كان له كم هائل من الشعر فى حنين ، وطغى اسمه على غيره من الشعراء فى هذه الموقعة حيث روى له ابن هشام ثمانى قصائد كانت ما بين اثنى عشر بيتا وتسعة عشر بيتا ، ومقطوعة من سبعة أبيات غير هذه النقيضة . وهى ظاهرة تلفت النظر حيث عاد صوت الشعر يعلو ويرتفع مرة أخرى فى غير مجـــال النقائض على يد ابن مرداس بعد أن لاحظنـــا عليه

(١) بذى لجب : أراد به جيشا كثير العدد . اللجب : صـــوته . وراجع الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٤٥٩/٢ ، وللروض الأنف ١٨٥/٧ .

(٢) عطية بن عفيف — بضم ففتح — : هو عطية بن عازب بن عفيف — بالتصغير — بصرى وقد نسب إلى جده . قال بعضهم : له صحبة وذكره المرزبانى فى الشعراء وأنشد له شعرا جاهليا فى مقتل حصين بن حذيفة ابن بدر ، وقال أبو عمر : روى عن عائشـــة ، وقد سكن الشام . راجع الإصابة ١٣/٧ ، وأسد الغابة ٤٤/٤ .

(٣) اللجاب : جمع لجبة ، وهى الشاه القليلة اللبن .

(٤) المرط — بكسر الميم وسكون الراء — : هو كساء من صوف ونحوه يؤتزر به وجمعه مروط .

الخفوت والنضوب فى المواقع التى أعقبت موقعة الخندق فى السنة الخامسة من الهجرة وحتى موقعة حنين سنة ثمان من الهجرة، ولكنه فى هذه الموقعة تدب الحياة فى أوصاله وتسرى الحيوية فى عروقه ويرتفع صوته وهو فى هذه المرة يشتـد عوده على أيدى الشعراء المسلمين فقط إذ نجد ابن هشام يذكر شعرا لبجير بن أبى سلمى ، وعباس بن مرداس ، وضمضم بن الحارث ، وغيرهم من الشعـراء الإسلاميين بينما لا يذكر إلا شعرا قليلا لشعراء مشركين كأبى خراش الهذلى الذى رثى ابن عمه زهير بن العجوة الهذلى بعد أن قتله جميل ابن معمر الجمحى • لكن الملاحظ أن أصحاب الشعر الإسلامى ممن هم حديثو عهد بالإسلام ، بل إن عباس بن مرداس لم يدخل الإسلام إلا بعد فتح مكة • وإذا تبين لنا ذلك سهل علينا أن نعرف أسباب هذه الوفرة من الشعر فى أعقاب حنين من الشعراء المسلمين وخاصـة ما جاء منه منسوبا إلى عباس بن مرداس • فهم قد دخلوا الإسلام وقد استبان لهم طريق الرشاد ، فاندفعوا يذودون عنه بكل وسائلهم المتاحة وكان الشعر أحد هذه الوسائل تدفعهم إليه حميتهم وعواطفهم الفتية ويثير حماسهم تلك المشاعر المتأججة فى صدورهم حبـا فى الدين ورغبة فى النيل من خصومه وتوضيح خطلهم الذى شاركوهم فيه ردحا من الزمان حتى فاءوا إلى الحق ، وثابوا إلى الرشاد •

٢ ــ ونجد ابن مرداس يقسم بذلك الجمع العظيم الذى يجتمع فى المشعر الحرام ، وبكتاب الله العظيم أنه سعيد كل السعادة بما نزل بثقيف يوم حنين من العذاب والقهر لأنهم كانوا رأس المشركين وقادتهم فى هذه الهجمة الشرسة ، فكان الانتصار عليهـم ألذ من أى شراب وأشهى من كل طعام • لقد أسعدته تلك الهزيمة التىتجمعت فيها قبائل العرب وناصرت بعضها بعضا لقد انتصروا عليهم فى ذلك الوادى « أوطاس » وتركوهم صرعى فوق التراب ، ولو اشتركت معهم كلاب التى لم تخرج مع قبيلتها هوازن لكان هذا هو مصيرهم أيضا حيث احتواهم جيشنا المغوار وغنم أموالهم وأمتعتهـم التى فاقت كل تصور •

ويجيبه ابن عفيف — فى بيتين متخاذلين يسب فيها ابن مرداس وينفى عنه أى فضل له فى ذلك النصر ، إذ لا حق له فى الفخار فإنه فى فخاره ذلك كامرأة لبست ملابس سيدتها الفضفاضة الواسعة ومشت تتبختر فى لباسها وإهابها الذى لا فضل لها فيه ولا تملك منه شيئـــا .

٣ — وإذا كان ابن مرداس قد أوضح فرحته الغامرة فى التغلب على جحافل ثقيف وهوازن ومن شايعهما وسجل انتصار المسلمين على ذلك الجمع الغفير الذى جاء مدججا بالسلاح والعدة واصطحب معه المال والأهل مما كان غنيمة عظيمة للمسلمين ، فإنه يعبر عن مشاعر صادقة ، ويسجل انطباعاته النفسية إزاء هذا الحدث الجليـــل ، بل ويعلن فرحة المسلمين الغامرة ، ويتحدث نيابة عنهم عن أحاسيسهم ومشاعرهم ، فهو صوت الجماعة المسلمة ، وأبياته حديث كل إنسان مسلم ، ترجم عنها عباس بن مرداس بأبياته الرائعة ، القوية الأداء . وهى فى الوقت ذاته تعكس الروح الإسلامية التى تفرح بكل ما يعز الإسلام ويحقق النصر للمسلمين ، وتعتز بكتاب الله والمشاعر المقدسة كالمشعر الحرام وما يكون فيه من زحف المسلمين وتجمعاتهم إلى أداء مناسك الحج ومشاعره .

أما بيتا ابن عفيف فلا تتضمن سوى السباب والشتـــائم التى تنبعث من نفس حاقدة حاسدة تتمزق غيظا ، وتتقطع لما حل بقومهـــا وأشياعها ، وهى مزايدة رخيصة ولجوء إلى سبيل غير شريف ، مما لا يلجأ إليه إلا ضعاف النفوس ، لكنه الطريق الوحيد الذى يمكن أن ينفس به عن نفسه الملتاعة المكلومة .

والأبيات فى مجملها تنحو نحو السهولة والبساطة فى التعبير وفى التصوير ، وخاصة أبيات ابن مرداس التى حرصت على أن تذكر أماكن القتال ، وأجناس الذين اشتركوا فى حرب الرسول (ص) .

٢ ــ فأصبحنا تسوقنا قريش !

وقال أبو ثواب زيد بن صحار ــ أحد بنى سعد بن بكر من قيس غيلان يهجو قريشا :

ألا هــــل أتــاك أن غلبت قريش
هـــوازن ، والخطوب لهــا شروط
وكنـــا يا قريش إذا غضبنـــا
يجىء من الغضاب دم عبيــط (١)
وكنـــا يـــا قريش إذا غضبنـــا
كأن أنوفنـــا فيهـــا سعوط (٢)
فأصبحنـــا تســـوقنـــا قريش
سياق العير يحــدوها النبيــط (٣)
فــلا أنا إن ســئلت الخسف آب
ولا أنا أن ألين لهــم نشيــط (٤)
سينقـــل لحمهــا فى كــل فــج
وتكتب فى مسامعها القطــوط (٥)

فأجابه عبد الله بن وهب ــ رجل من بنى تميم ، ثم من بنى أسيد ــ فقال :

بشـــرط الله نضرب من لقينـــا
كأفضــل ما رأيت من الشـــروط

---

(١) الدم العبيط : الدم الطرى .
(٢) السعوط : الدواء يوضع فى الانف فيهيجه ، يريد تحمى أنوفنا .
(٣) النبيط : قوم من العجم كانوا ينزلون ســواد العــراق ، ثم استعمل فى أخلاط الناس وعوامهم .
(٤) الخسف : الذل والهوان ــ آب : ممتنع .
(٥) القطوط : الصكوك ، او الكتب التى تحصى فيها الاعمال .

وكنـــا يا هـــوازن حين نلقى
نبـــل الهـــام من علق عبيط (١)
بجمعكمـــو وجمـــع بنى قسى
نحـك البرك كالورق الخبيـــط (٢)
أصبنـــا من سراتكمـــو وملنـا
نقتـل فى المبـاين والخليـــط (٣)
بـه الملتـــاث مفتـرش يـديه
يمـج المـوت كالبـكر النحيـط (٤)
فإن تك قيس عيـــلان غضـــابا
فـلا ينفـك يرغمهـم سعوطى (٥)

العــرض الأدبى :

هذا هو الموقف الثانى من النقائض فى أعقاب حنين وهو بين شاعر من قيس عيلان يصور حسرتها على ما نزل بها وغلبـة قريش لهوازن التى قاد زعيمها بن مالك بن عوف المعركـة ثم فر هاربا إلى الطائف ، واعتصم بمن معه فى دورها المحصنة حتى فتح الله قلبه للإسلام وخرج يعلن توبته وإسلامه . والأبيات تقرر غلبة قريش لجمـاعة المشركين وذهاب ما كان لها من قوة ومكانة وأصبحت قريش تسودها وتتحكم فيها ، فلا تستطيع قيس عيلان أو غيرها الإفلات من هـذا السلطان الجديد ولم يعد لهم قدرة على لقاء أو مواجهة فقد أصبحوا

---

(١) الهام : الرءوس . العلق : الدم . العبيط : الطرى . يريد أنهم يقتلون من يحاربهم .

(٢) بنوقسى : هم ثقيف . البرك : الصدر . الورق الخبيط : هو الذى يخبط بالعصا ليسقط فتأكله الماشية .

(٣) سراتكم : أشرافكم . المباين : المفارق ، وهو المنهزم . الخليط : الذى لا يزال فى المعركة ، يخالط الأقران .

(٤) الملتاث هنا : اسم رجل . البكر : الفتى من الابل . النحيط : الذى يردد النفس فى صدره حتى يسمع له دوى ، وذلك اذا ذبح . يريد : أن قتل .

(٥) راجع النقيضنين فى : السيرة النبوية لابن هشام ٤٧٦/٢ ، والروض الأنف ١٩٨/٧ ، وأسـد الغابة ٤١٣/٣ .

كالعير تسوقهم قريش أنى تشاء ، لا يملكون إلا الاستسلام والخضوع لإرادتها •

ويجيبه ابن وهب التميمى ، فينقض ما قاله موضحا أنهم هم أصحاب القوة والبسالة ، فقد ذاقت هوازن على أيديهم القتل ونالت ثقيف نفس مصير إخوانهم حيث طحنتهم الحرب ومزقتهم • لقد كانت هجمة عظيمة قتلنا فيها أشرافكم ، وطاردنا الفارين ، وقاتلنا المحاربين حتى صرعناهم ووقعوا مدرجين فى دمائهم ، وهكذا سيكون قيس عيلان وأتباعها فى إسار دائم وذل مقيم •

وأبيات الشاعرين تعتمد على الفخر بالشجاعة والقوة ، فقد كانت قيس عيلان تريق دماء الأعداء إذا ما غضبت أو استثيرت • والمسلمون يضربون ويقتلون بأمر الله فى سبيل دينه • يريقون دم الأعداء ويقتلون من يحاربهم فيفتكون به وتطحنهم الحرب ، وتقضى عليهم •

وتحمل أبيات أبى ثواب الحسرة والألم الدفين ، والحقد والكراهية لقريش التى أذلت كبرياء قيس عيلان وأتباعها وذهبت بنخوتها الجاهلية ، وصيرتها عبيدا بعد أن كانت سيدة قريش مرهوبة الجانب ذات مكانة عظيمة بين القبائل •

أما أبيات ابن وهب فهى أبيات فرحة مستبشرة ناعمة برضاء الله وتوفيقه لما مكن المسلمين من رقاب أعدائهم وجعلهم أذلة لهم ، شامتة بقيس عيلان وهوازن ومن سار فى ركابهما •

وقد احتوت المقطوعتان على بعض الصور الجزئية التى ساعدت على توضيح معانى الشاعرين • فإذا غضبت قيس عيلان يجىء من الغضاب دم عبيط ، وهو كناية عن القتل الذى يستلزم قوتهم وجسارتهم • أما التصوير الذى يوضح انكسار هوازن فهو قوله : « فأصبحنا تسوقنا قريش سياق العير ••• » وهو تصوير منتزع من البيئة

يجسم الحسرة والألم ، ويجسد الجرح الغائر الذى منيت به قيس عيلان وغيرها مما آل إليه أمرها وانتهى إليه حالهـا ، ويأتى البيت التـــالى :

فـلا أنـا إن شئت الخســف آب
ولا أنـا أن ألين لهـم نشيـــط

ليعكس مدى الإحباط والتخاذل الذى أصيب به هـذا الشاعر وقومه ، وما هم فيه من أسى ولوعة جعلتهم طوع أمر قريش ورهن إشارتهـــا .

أما صور ابن وهب فهى صور توضح مدى ما تمتعوا به من قوة مكنتهم من أعدائهم وأنزلوا بهم الذل والهوان .فهم حين يلقون أعداءهم يبلون الهام من علق عبيط ، وهذا كناية عن قتل من يلقاهم ويحاربهم. كما أنهم يحكون البرك كالورق الخبيط ، وهو تصوير منترع من البيئة يوضح به شدة المعركة وطحنها لمن يلقونه.فقد شبه شدة الحرب بحك البعير صدره بما تحته فيعصف به كما تعصف العصاة بأوراق الأشجار عندما تضربها فتسقط من أشجارها لتأكلها الماشية . أو الملتاث الذى صرع فى تلك الحرب يمثل كل الهالكين منهم ويعطى تصويرا دقيقا لهلاكهم فهو مفترش يديه وقد ألقى على الأرض يلفظ أنفاسه ويخور كما تخور الناقة العظيمة عند ذبحها .

والمقطوعتان فى مستوى فنى واحد ، من حيث بناء الأبيـــات وترابطها وما تضمنته كل مقطوعة من معانى وأفكار ، واختيار الألفاظ والدقة فى التصوير وإحكام الصياغة ومتانة الأساليب .

سادسا : حدب وإشفاق من الأخ المسلم فى أعقاب عودة الرسول(ص) من الطائف :

لما عاد الرسول (ص) من الطائف إلى المدينة . كتب بجير بن زهير بن أبى سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول (ص)

قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويذمه ، وأن من بقى من شعـــــراء قريش : ابن الزبعرى [1] وهبيرة بن أبى وهب [2] ، قد هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة ، فطر إلى رسول الله (ص) فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجـــائك [3] . وذلك لأن الأخوين كان قد بدا لهما أن يسلما فسارا إلى الرسول ليعلنا إسلامهما ، إلا أن كعبا قد بدا له الرجوع ولم يسلم ، بينمـــا ذهب بجير إلى الرسول (ص) وأعلن إسلامه ، لذلك غضب عليه أخوه كعب، وكتب إليه زاجرا وناهيا عن الدخول فى الإسلام :

ألا أبلغـــا عنى بجيرا رســـالة
فهل لك فيما قلت ويحـــك هل لكا

فبين لنـــا إن كنت لست بفـــاعـــل
على أى شىء غير ذلـــك دلـــكا [4]

على خلق لـــم ألف يـــوما أبـــا له
عليـــــه وما تلقى عليـــه أبا لكـــــا

فإن أنت لم تفعـــــل فلست بآسف
ولا قائـــل إما عثرت لعا لكـــا [5]

---

(1) كان عبد الله الزبعرى من أشد الناس عداوة لرسول الله (ص) وأصحابه بلسانه ونفسه وكان من أشعر قريش فلما كان الفتح أهدر النبى دمه فهرب الى نجران ـ اليمن ـ فهجاه حسان بن ثابت وغيره ، عندئذ عاد ابن الزبعرى الى الحجاز وأعلن اسلامه ، فقبل النبى اسلامه وأمنه . راجع حياته بالتفصيل ص ٢٤ من هذا الكتاب .

(٢) كان شاعرا من شعراء قريش المعدودين . وكان شديد العداوة للرسول (ص) . أقام بنجران حتى مات كافرا . وكانت عنده أم هانىء ابنة أبى طالب .

(٣) الى نجاتك : أى الى محل ينجيك منه .

(٤) بين لنا : أى اذكر لنا مرادك من بقائك على دينك .

(٥) لعالكا : كلمة تقال للعاثر ، وهى دعاء له بالاقالة من عثرته . ومعناها : قم وانتعش .

سقاك بها المأمون كأسا روية
فأنهلك المأمون منها وعلكا (١)

قال ابن هشام : ويروى « المأمور » وأنشدنى أهل العلم بالشعر حديثه :

من مبلغ عنى بجيرا رسالة
فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا (٢)

شربت مع المأمون كأسا روية
فأنهلك المأمون منها وعلكا

وخالفت أسباب الهدى واتبعته
على أى شىء ويب غيرك دلكا (٣)

على خلق لم تلف أما ولا أبا
عليه ولم تدرك عليه أخا لكا

فإن أنت لم تفعل فلست بآسف
ولا قائل إما عثرت لعا لكا (٤)

وبعث بهذه الأبيات إلى بجير • فلما أتت بجيرا كره أن يكتمها رسول الله (ص) فأنشده إياها ، فقال الرسول (ص) لما سمع :«سقاك بها المأمون » صدق وإنه لكذب • أنا المأمون ، ولما سمع « على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه » قال : أجل • لم يلف عليه أباه ولا أمه • ثم قال بجير لكعب :

---

(١) المأمون : يعنى النبى « محمدا » (ص) وكانت قريش تسميه أيضا « الأمين » قبل النبوة . روية : فعيلة بمعنى مروية . النهل : الشرب الأول . العلل : الشرب الثانى .

(٢) الخيف : أسفل الجبل والمراد هنا خيف منى .

(٣) ويب غيرك : أى هلكت هلاك غيرك . وهو بالنصب على : إضمار الفعل . وهو بمعنى الويل لك وحدك .

(٤) لست بآسف : لست بنادم .

من مبلغ عنى كعبا فهل لك فى التى
تلوم عليها باطلا وهى أحزم

إلى الله — لا العزى ولا اللات — وحده
فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت
من الناس إلا طاهر القلب مسلم

فدين زهير وهو لا شىء دينه
ودين أبى سلمى على محرم (1)

مع النقيضتين :

هذا لقاء أدبى وشعورى بين أخوين ربط بينهما الدم والعواطف، وإن اختلفا فى الرأى والتفكير • فقد وجد بجير الذى شرح الله صدره للإسلام أن نصح أخيه وإرشاده ، وتوجيهه إلى الخطر الذى يتهدده يمليه عليه دينه وخلقه ورابطة الدم التى جمعت بينهما • لذا كانت تلك النصيحة بدافع الحرص على الأخ ، والرغبة فى إنقاذه من غيه وفساده ، والتحرك لعمل شىء قبل أن تمتد إليه يد أحد من المسلمين — بعد أن أهدر النبى دمه — ووقتها لا ينفع نصح أو ندم • فما عليه إلا أن يرسل إليه بما استقر عليه رأى الرسول فيه ، وما أعلنه المسلمين من إهدار دمه ، وتوضيح الخطر الذى يحدق به ، ودعوته إلى التفكير فى أمره ، والسعى إلى نبذ ما هو عليه والدخول فى الإسلام الذى يحقن له دمه ، ويهيىء له الأمن والاستقرار النفسى بعد أن صار شريدا مطرودا مستوفزا لا يأمن أن يطيح أحد برأسه فى ساعة من ليل أو نهار • وبذلك يكون قد أدى واجبه نحوه، وأسدى إليه النصيحة خالصة •

---

(1) راجع الأبيات وقصتها فى : السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٥٠. والروض الأنف ٧/٢٥٦ ، وعيون الأثر ٢/٢٠٨ ، والكامل لابن الأثير ٢/١٨٦ •

والأبيات الأولى إنما هى هجاء من كعب لبجير أخيه ، وللرسول (ص) قالها بعد أن بدا له ولأخيه أن يسلما ويعلنا إسلامهما عندما أخذ أمر الدعوة الإسلامية ينتشر ، وسار بجير وأخوه كعب إلى رسول الله (ص) إلا أن كعبا لم يفتح الله قلبه للإسلام فتأخر ولم يكمل المسير • وتقدم بجير حتى وصل إلى الرسول (ص) وجلس إليه وأعلن إسلامه (١) • عند ذلك غضب كعب من أخيه بجير ، وأخذ ينهاه عن إسلامه والرجوع عنه ، لكن أنى يستجاب له ! فنقم على أخيه وأخذ يهجوه ويهجو رسوله (ص) بأبياته التى يستحثه فيها على الرجوع عن دينه والعودة إلى دين آبائه وأجداده حتى لا يهلك كغيره ممن هلك باتباعهم دين محمد ، فإن ما يدين به لم يكن معتقدا لأبيه ولم يعرفه أحد من آله قبله ، وإذا لم تقبل العودة إلى دين الآباء والأجداد فإننى قد قمت بواجب النصح نحوك ، وبعدها لن تجد منى مساعدة أو الوقوف بجانبك أو الإقالة من عثرتك ، وإن كنت لن أرى أنك لن تستجيب لى لأن محمدا سقاك بكأس أشبعت نفسك وجعلتك تطمئن إلى دينه وتستقر نفسك عليه •

وقد رويت أبيات كعب بروايتين مختلفتين لكنها فى كلا الروايتين تحمل هذه المعانى وتدور حول تلك الأفكار فى مجملها •

وبوازع من خلق الإنسان المسلم الكامل ، وبحرص المسلم التقى النقى على التحرى والبعد عن الوقوع فيما يغضب الله ورسوله ، لم يكتم بجير تلك الرسالة عن الرسول (ص) مع ما فيها من تعريض به والإساءة إليه وإلى دينه ، فلما سمع الرسول (ص) قوله : « سقاك بها المأمون»

---

(١) كان ذلك قبيل سنة ٧هـ ، ثم شهد مع الرسول (ص) فتح مكة ، أما كعب فقد تأخر اسلامه وأخذ يهجو أخاه بجيرا ويهجو الرسول (ص) وكان كعب شاعرا فحلا مكثرا مجيدا . ولذلك قرنه بعضهم بأبيه ، وجعله مع لبيد والنابغة فى طبقة واحدة . وقد نظم فى المدح والهجاء والفخر والحماسة وكان على مذهب والده من التهذيب والتنقيح • وكانت وفاته سنة ٢٦هـ • راجع : طبقات الشعراء ص ١٣ ، والشعر والشعراء ص ٥٨ والبيان والتبيين للجاحظ ٢٠٧/١ ، وشرح ديوان كعب بن زهير للسكرى• تحقيق عبد العزيز الميمنى — القاهرة — دار الكتب ١٩٥٠ م .

قال : صدق ، وإنه اكذوب • وذلك لأنه لو كان يعتقد بما يقول من أن النبى مأمون وهو الأمين فيما يبلغ ، لبادر بالاستجابة إليه ولأعلن إسلامه لكنه يردد اسمه دون أعتقاده بمضمونه • ولما سمع قوله : «لم تلف أما ولا أبا عليه » قال : أجل • لم يلف عليه أباه ولا أمه •وذلك لأن دين محمد جاء ليهدم معتقدات الآباء والأجداد،ومن آمن بالإسلام وصدق بدعوة محمد ، فإنه بالضرورة سيكون على دين مخالف لدين آبائه وأجداده •.

وتأتى أبيات بجير لتكون آخر كتاب إلى أخيه ، ونهاية لنصيحة إن لم يعمل بها سيبتلعه اليم ويحتويه الهلاك • وفعلا فقد ضاقت به الأرض بعد أن تسلم رسالةأخيه ، تأكد منصدق مايقول أخوه ،ومن إخلاصه له فى النصيحة ، فيشفق على نفسه ، وقد شـاع ذلك بين القوم ، فقالوا إنه لا شك مقتول • ولما استيأس من المجير والنصير، فكر فى أمره فلم يجد مفرا من التوجه إلى المدينة ، وجاء مهرولا حتى وصل إلى رجل من جهينة (١) كانت بينهما معرفة وصلة • فغدا به إلى رسول الله (ص) حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله (ص) ثم أشار له إلى الرسول فقال له : هذا رسول الله فقم إليه فاستأذنه • فقام حتى جلس إليه فوضع يده فى يده — وكان رسول الله لا يعرفه — وقال : يا رسول الله • إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟! فقال رسول الله (ص) نعم • قال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير ، فعفا عنه الرسول (ص) وأمنه • ثم أنشد قصيدته اللامية الشهيرة التى أولها :

بانت سعاد فقلبى اليـــوم متبـــول

متم إثرها لم يفـــد مكبـــول (٢)

---

(١) تذكر بعض الروايات انه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ٠
(٢) بلغت لامية كعب تسعة وخمسين بيتا ٠ راجعها فى السـيرة النبـوية لابن هشام ٢/٥٠٣ ٠

وكان قد أعدها قبل مجيئه المدينة ، وهو يمدح فيها رسول الله (ص) ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه . فلما سمعها رسول الله (ص) أعجب بها ولذلك خلع بردته (ص) على كعب استحسانا لها وإعجابا بها .

٢ — وقد اتفقت أبيات كعب الثانية مع أبيات بجير فى الوزن الشعرى ، حيث جاءتا على بحر الطويل ، وإن اختلفتا فى القافية ، بينما جاءت أبيات كعب الأولى على بحر الكامل ، وتحمل أبيات كل منهما العواطف الصادقة ، والمشاعر الوفيرة فأبيات كعب تحمل فى طياتها التوبيخ والزجر والتقريع على ترك دين الآباء والأجداد ، والتنكر للأهل وعدم الولاء لهم . مهددا إياه بأنه إذا لم يثب إلى رشده ويرجع عما هو فيه فإن قطيعة أبدية ستكون بينهما ، وفرقة نهائية ستقيم الحواجز الصماء بينهما . أما أبيات بجير فإنها تنصح وتوجه فى حدب على الأخ ، ورغبة فى أن يفتح قلبه وعقله للنظر فى أمره وأن يناقش فى موضوعية عبادة الأوثان والأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، وأن يبتعد عن التعصب لها بدافع أنها دين الآباء والأجداد حتى يشرح الله صدره للإسلام فينجو من عذاب الله فى يوم لا ينفع فيه إلا طهارة القلب وصدق العقيدة .

كذلك فإن أبيات الشاعرين جاءت محكمة النسج ، متينة التراكيب . فكل مقطوعة رسالة فيها المقدمة والموضوع والخاتمة . فكل منهما يريد أن يبلغ رسالته إلى أخيه ، وكل منهما يناقش صاحبه فيما ذهب إليه من معتقد ، طالبا منه أن يتروى فى الأمر ، وأن يراجع نفسه قبل فوات الأوان ، وكل منهما ينهى رسالته برأيه النهائى فيما دعى إليه ، فكعب يؤكد لأخيه أنه إذا لم يرجع عن معتقده ويعود إلى دين الآباء والأجداد فإنه بذلك قد حكم على علاقتهما ورابطتهما الأخوية بالتمزق والانفصام وأنه لن يندم على ذلك ، بل لن يقيل عثرته أو يقف بجانبه فيما يتعرض له من متاعب . أما بجير فإنه يضع أمام أخيه نهاية لدعوته

السقيمة ونظريته البالية المتعفنة • فدين زهير أبيهما لا شيء ، وهو عليه محرم منذ الآن وبعد أن هداه الله إلى نور الإسلام •

كما تميزت المقطوعتان بالأسلوب السهل الرصين الذى يحرص على تخير الألفاظ والبعد عن التعقيد اللغوى ، وإحكام الصياغة والتراكيب • ولا غرابة فى ذلك فالشاعران إبنا زهير بن أبى سلمى الذى عرف بحولياته وحرصه على ألا يخرج عمله الفنى للناس إلا بعد التنقيح والتهذيب وإعادة النظر فيه ، بل ومعاودة النظر فيه حتى امتدت تلك المعاودة عاما كاملا •

سابعا : مع وفد بنى تميم فى مفاخراته :

(ا) نحن الكرام فلا حى يعادلنا :

كانت غزوة تبوك — بين المسلمين والروم — فى رجب سنة تسع من الهجرة آخر غزوة غزاها رسول الله (ص)،وقد عاد منها المصطفى (ص) فى شهر رمضان • ولم يرو ابن هشام فيها شعراً سوى بعض أبيات فى مواقف جانبية للضحاك بن خليفة ، وأبى خيثمة ، ورجل من طيىء يقال له بجير بن بجرة [1] •

وفى العام التاسع نفسه أخذ الرسول (ص) يسير الرسل إلى الملوك والرؤساء فى كل مكان يدعونهم للإسلام ويبينون لهم أمور دينهم ، ، وأخذت وفود العرب تفد عليه (ص) لتتعرف على ذلك الدين الجديد ، وتعلن إسلامها ، ولذلك سمى العام التاسع الهجرى عام الوفود • وكان أول تلك الوفود وفد ثقيف الذى وصل إلى الرسول (ص) فى رمضان مناقشا ومجادلا ، ثم بايعوا النبى (ص) وأعلنوا إسلامهم • ثم قدم وفد بنى تميم عليه (ص) ، ولما وصلوا المسجد دخلوه ونادوا رسول الله (ص) من وراء حجراته : أن اخرج إلينا

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥١٥ ، ٥١٩ ، ٥٢٥ •

يا محمد ، فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمد . جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : « قد أذنت لخطيبكم فليقل » . فقام عطارد ابن حاجب فأخذ يفخر بقومه وبمكانتهم . فطلب الرسول (ص) من ثابت بن قيس الشماسى أن يجيب على تلك الخطبة ، فقام ثابت وبعد حمد الله والثناء على رسوله دعا الناس إلى الإيمان بالرسالة المحمدية والاستجابة إلى دعوة الحق حتى يعصموا دماءهم وأموالهم (١) .

ثم قام الزبرقان بن بدر (٢) فقال :

نحن الكرام فلا حى يعادلنـــا
منـــا الملوك وفينا تنصب البيـــع (٣)

وكم قسرنا من الأحيـــاء كلهمـــو
عنـــد النهاب وفضـــل العز يتبع (٤)

ونحن نطعـــم عنـــد القحط مطعمنـــا
من الشواء إذا لم يؤنس القزع (٥)

بما ترى النـــاس تأتينـــا سراتهمو
من كل أرض هويا ثم نصطنـــع (٦)

---

(١) راجع الخطبتين فى السيرة النبوية لابن هشـــام ٢/٥٦٢ ، وديوان حسان بن ثابت ص ٢٣٤ . وأسد الغابة ١/١٢٨ .

(٢) من أشراف بنى تميم ، وهو من بنى دار بن مالك وكان يرفع له بيتا من عمائم وثياب وينضجه بالزعفران ، وكانت بنو تميـــم تحج هذا البيت . وقد شهد هو وعيينة بن حصن مع الرسول (ص) فتح مكة وحنينا والطائف . راجع السيرة النبوية ٢/٥٦٢ والروض الأنف ٧/٣٦٨ .

(٣) جاء فى ديوان حسان بن ثابت : « يفاخرنا غينا الملوك وغينـــا السادة الرفع » . البيع : مواضع الصلوات والعبادات .

(٤) روى ديوان حسان : « وكم قسمنا » .

(٥) جعل ديوان حسان الفعل « يطعم » مبنيا للمجهـــول ، ونائب الفاعل مطعمنا . وروى البيت هكذا :

ونحن نطعم عند المحل مطعمنـــا … من السديف اذا لم يؤنس القزع

القزع : سحاب رقيق يكون فى الخريف .

(٦) روى ديوان حسان الشطر الثانى هكذا : « من كل أوب هويا ثم يندفعوا » . هويا : سراعا .

فننحـــر الكوم عبطـــا فى أرومتنـــا
للنـــازلين إذا ما أنزلوا شبعـــوا (١)

فلا ترانا إلى حـــى نفـــاخرهـــم
إلا استقادوا فكانوا الرأس يقتطع (٢)

فمـــن يفـــاخرنا فى ذاك نعـــرفه
فيرجع القـــوم والأخبار تستمع (٣)

إنا أبينـــا ولا يأبى لنـــا أحـــد
إنا كذلك عنـــد الفخـــر نرتفـــع (٤)

وكان حسان بن ثابت غائبا ، فبعث إليه رسول الله (ص) . قال حسان : جاءنى رسوله فأخبرنى أنه إنما دعانىلأجيبشاعر بنىتميم، فخرجت إلى الرسول (ص) .... قال : فلما انتهيت إليه (ص) ، وقام شاعر القوم فقال ما قال ، عرضت فى قوله ، وقلت على نحو ما قال. قال : فلما فرغ الزبرقان ، قال رسول الله (ص) لحسان بن ثابت:قم يا حسان ، فأجب الرجل فيما قال . فقام حسان ، فقال :

إن الذوائب من فهـــر وإخوتهـــم
قد بينـــوا سنـــة للنـــاس تتبع (٥)

يرضى بهـــا كل من كانت سريرته
تقـــوى الإله ، وبالأمر الذى شرعوا (٦)

---

(١) جاء فى الديوان « أرومتها » . الكوم : جمع كوماء وهى الناقة العظيمة السنام . عبطا : من غير علة . الأرومة : الأصل .

(٢) روى الديوان البيت هكذا :
ولا ترانا الى حى نناز عهم   الا استقادوا والا الرأس يقتطع

(٣) روى الديوان : « فمن يعادلنا » ، و « فيرجع القول » .

(٤) جاء فى الديوان : « ولم يأب » . راجع الأبيات وقصة وفد تميم فى : السيرة النبوية لابن هشام ٥٦٣/٢ ، وديوان حسان بن ثابت ص ٢٣٣ وما بعدها ، والاغانى ١٤٦/٤ وما بعدها ، وأسد الغابة ١٢٨/١ وما بعدها .

(٥) الذوائب : الأعالى ، وأراد هنا : السادة ، وفهر أصل قريش ، ويقصد بهم المهاجرين ، وباخوتهم الانصار .

(٦) روى ابن هشام : يرضى بهم مكان يرضى بها » . وروى الشطر الثانى هكذا : « تقوى الاله وكل الخير يصطنع » .

قــوم إذا حاربوا ضروا عــدوهمو
أو حاولوا النفع فى أشياعهــم نفعوا
سجية تلك منهـــم غير محـــدثة
إن الخـلائق فاعلم شرها البــدع
إن كان فى الناس سباقون قبلهمـــو
فكل سبق لأدنى سبقهــم تبـع (١)
لا يرقــع النــاس ما أوهت أكفهمو
عنــد الدفاع ولا يوهون ما رقعوا (٢)
إن سابقوا النــاس يوما فاز سبقهمو
ووازنوا أهــل مجد بالندى متعوا (٣)
ولا يضنــون عن جــار بفضلهمـــو
ولا يدنسهــم فى مطمع طبــع (٤)
لا يجهلون وإن حاولت جهلهمــو
فى فضــل أحلامهــم عن ذاك متسع
أعفـــة ذكرت فى الوحى عفتهـم
لا يطبعــون ولا يرديهــم الطمع (٥)
كــم من موال لهم نالوا كرامتـــه
ومن عــدو عليهــم جاهد جدعوا (٦)

---

(١) روى ابن هشام « سيلقون بعدهمو » .
(٢) أوهت : أضعفت وهدمت .
(٣) روى ابن هشام : « أو وازنوا » .. متعوا : ازدادوا وظهروا عليهم .
(٤) لم يرد هذا البيت والذى يليه فى سيرة ابن هشام . الطبع : الدنس والعيب .
(٥) جاء فى ابن هشام : « ولا يرديهمو طمع » .
(٦) لم يرد هذا البيت فى سيرة ابن هشام وجاء مكانه :

لا يبخـلون على جــار بفضلهمو ... ولا يمسهمو من مطمــع طبــع
اذا نصبنا لحى لــم ندب لهـــم ... كمــا يدب الى الوحشــية الذرع
نسمو اذا الحرب فالتفا مخالبهـا ... اذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخـرون اذا نالــوا عدوهمو ... وان أصــيبوا فلا خور ولا هلــع
كأنهم فى الوغى والمــوت مكتنــع ... أســد بحلية فى ارســاغها فدع

خـــذ منهمو ما أتوا عفوا إذا غضبـــوا
ولا يكن همك الأمر الذى منعـــوا (١)

فإن فى حربهـــم فاترك عـــــداوتهم
سمـــا يشن عليه الصـــاب والسلع (٢)

لا فخر إن هم أصابوا من عـــدوهمو
وإن أصيبوا فلا خور ولا جـــزع (٣)

كأنهـــم فى الوغى والمـــوت مكتنع
أسد ببيشة فى أرساغهـــــا فدع (٤)

أعطوا نبى الهـــدى والبر طاعتهـــم
فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا (٥)

إن قال سيروا أجدوا السير جهدهمو
أو قال عوجوا علينا ساعـــة ربعوا

ما زال سيرهمو حتى استقاد لهـــم
أهل الصليب ومـــن كانت له البيـــع

نسمـــو إذا الحرب نالتنا مخالبهـــا
إذا الزعانف من أظفـــارها خشعوا (٦)

---

(١) عفوا : من غير طلب ولا مشقة .

(٢) روى ابن هشام الشطر الثانى هكذا : « شرا يخاض عليه السم والسلع » . يشن : يصب . الصاب والسلع : نبات مر أو مسموم .

(٣) روى ابن هشام هذا البيت سابقا بصورة أخرى كما هو واضح فى رقم «٦» من هامش الصفحة السابقة . الخور : جمع أخور وهو الضعيف . الجزع جمع جزع وجازع وهو الحزين المكتئب .

(٤) كما روى ابن هشام هذا البيت فى موضع سابق وجاء مكان أسد بيشة : « أسد بحلية » المكتنع : الدانى القريب . بيشة : موضع تنسب اليه الأسود ـ مجتمع الأسود . حلية : مأسدة باليمن . أرساغها : جمع رسغ ، وهو موضع ربط القيد . فدع : اعوجاج الى ناحية .

(٥) هذا البيت والبيتان التاليان لم يذكرها ابن هشام .

(٦) هذا البيت ذكره ابن هشام سابقا ، الزعانف من الناس : سفلتهم .

إذا نصبنا لقوم لا ندب لهم
كما يدب إلى الوحشية الذرع (١)

أكرم بقوم رسول الله قائدهم
إذا تفرقت الأهواء والشيع (٢)

أهدى لهم مدحي قلب يؤازره
فيما يحب لسان حائك صنع (٣)

فإنهم أفضل الأحياء كلهمو
إن جد بالناس جد القول أو سمعوا (٤)

التحليل والموازنة :

هذا لقاء فكرى بين شاعرين يذودان عن قومهما ، ويتحدثان بلسانهما ، فالزبرقان يمثل قومه الذين أحسوا بعجزهم وضعفهم أمام المد الإسلامى الذى طوق مكة وخضعت له الجزيرة العربية وما حولها ، ولم يعد أمامهم سوى مهادنة الرسول (ص) ومسالمته • فجاءوا إليه فى جمعهم يتحسسون الأمر ، أو يجسون النبض — كما يقولون — وحسان بن ثابت شاعر الدعوة المحمدية وبطل المعارك الكلامية بين جماعة الكافرين وجماعة المسلمين يجالد الزبرقان ويصارعه •

وهذا اللقاء هو الجولة الثانية لوفد بنى تميم • فقد سبقه لقاء بين خطيب وفد بنى تميم عطارد بن حاجب وخطيب المسلمين

---

(١) لم يذكره ابن هشام هنا ، وذكره سابقا ، وذكر « لحى » مكان : « القوم » . نصبنا : أظهرنا لهم العداوة ولم نسرها فى أنفسنا . الوحشية: الحيوان الوحشى • الذرع : ولد البقرة الوحشية •

(٢) روى ابن هشام : « رسول الله شيعتهم اذا تفاوتت الأهواء » •

(٣) روى ابن هشام : مدحتى » ، و « أحب » مكان : « يحب » • صنع : صانع ماهر يتقن ما يصنعه ويحسن عمله •

(٤) روى ابن هشام « أو شمعوا » • ومعناه : هزلوا • وأصل الشمع : الطرب واللهو . وقد اعتمدنا على رواية ديوان حسان بن ثابت لهذه الأبيات ص ٢٣٨ وما بعدها ، وراجعها أيضا فى السيرة النبوية لابن هشام ٥٦٤/٢ ، وبصورة أخرى فى أسد الغابة ١٢٨/١ وما بعدها ، والأغانى ١٤٨/٤ •

ثابت بن قيس ، وقد كانت الغلبة لخطيب المسلمين الذى لم يذهب إلى المغالاة فى الفخر ، والإمعان فى التغنى بالمحامد ، بل كانت مفاخرته مبنية على اعتزاز المسلمين برسولهم ، والانضواء تحت لوائه،والسعى فى سبيل عزة الإسلام ومجده : يقاتلون أعداءه ويحاربون الخارجين عليه ، ويتمسكون بمبادئه السمحة ، وتعاليمه الراشدة •

وهنا يجد وفد(١) بنى تميم نفسه وقد أسقط فى يده • فما قاله خطيبهم لا يقف أمام ما ذكره خطيب محمـــد وأتباعه ،ولكنهـــم مع ذلك يستحثون شاعرهم الزبرقان ، فقد يكون فى شعره ما يعـــوض تخاذل خطيبهم وتهالكه • ويأخذ الزبرقان بن بدرفىاستجماع طاقاته، وترتيب أفكاره ، لكنه — للأسف الأسيف — لا يجد أمامه سوى الفخر الأجوف ، والتباهى والمكابرة • فهم الكرام ، لا يعـــــدلهم حى من أحياء العرب ، فمنهم الملوك ، وفيهم تقام أماكن العبادة ، وهمأصحاب الغلبة على من يقف فى طريقهم ، وهم المطعمون عند الحاجة ، وهم موئل الغادين والرائحين ، وإذا ما فاخروا أحدا فإن فضلهم لا يوازيه فضل ، فهم دائما لا شبيه لهم أو مثيل بل تفردوا بالعز والمكـــــانة الرفيعـــــة •

ويستدعى حسان من بيته ، ويعرف أنه مطلوب للرد على شاعر بنى تميم • وفى الطريق يأخذ فى نظم بعض الأبيات وكأنه يثير بهـــا فى نفسه أدوات فنه ، ويقدح بها فكره (٢) ثم يستمع إلى إعادة لمـــا قال الزبرقان ويأخذ فى الرد عليه قائلا : إن السادة الأعاظم من فهر وإخوتهم الأنصار ورسول الله فيهم قد أوضحوا للنـــــاس الطريق الصحيح ، والنهج الواضح الذى يتبعه كل ذى طبع سليم وفكر واع بصير ، هى طريق التقـــوى وعبادة الله الواحد الأحـــد ، والحرص

---

(١) كانوا بين سبعين وثمانين رجلا •

(٢) راجع هذه الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٥٦٣/٢ وهى ابيات أربعة جاءت بمعظم ألفاظها فى نقيضة حسان التاليـــة ردا على ماقاله الزبرقان بن بدر •

على فعل الخير ثم أخذ يذكر ما لقومه من المفاخر كالشجاعة والغلبة على الخصوم وسبق الناس جميعها فى مجال الخير ونفع الآخرين ، والعفة والبعد عن الدنايا والطمع • وأخذ يتغنى بشجاعة قومه ومالهم فى مضمار الحرب من التغلب على الأعداء والنيل منهم ومع ذلك فإنهم لا يفرحون بما يحققون من انتصار أو يأخذهم الزهو والخيلاء ، فهم متواضعون ، يعرفون أن ذلك من توفيق الله لهم ، ولذلك لا يجزعون إذا نالهم ضر • وفى النهاية أخذ يشيد بهؤلاء القوم الذين فيهم رسول الله (ص) قائدا ورائدا يلتفون حوله ، ويقتدون به فى أخلاقهم وسلوكهم ، ثم فى النهاية يهدى للرسول (ص) أغلى ما يعتز به وهو الشعر الذى ينظمه فيه ، ويعضده فى ذلك قلبه ولسانه .

٢ — وإذا قارنا بين النقيضتين نجد أن كلا الشاعرين قد عمد إلى الفخر لم يلجأ أحدهما إلى الهجاء والنيل من الطرف الآخر ، وذلك راجع المجد والرفعة والمكانة الرفيعة ، والأخلاق الكريمة كالكرم والعفة والقوة والبسالة ، واشتهار أمرهم بين الناس بما طبعوا عليه من صفات ، وما درجوا عليه من طباع • ويلاحظ أن الشاعرين مع اتجاههما إلى الفخر لم يلجأ أحدهما إلى الهجاء والنيل من الطرف الآخر ، وذلك راجع — كما يبدو — إلى أن كلا من الطرفين حريص على عدم إثارة الطرف الآخر ، أو الإساءة إليه • فوفد بنى تميم جاء ليستطلع موقف محمد منه ، ويتعرف على ما يدعو إليه ، وهم فى الوقت ذاته لا قبل لهم بمحمد الذى حطم شوكة الكفر وأتباعه ، ودخل الناس فى الدين الإسلامى أفواجا • والمسلمون من جانب آخر يطمعون فى إسلام هؤلاء القوم وانضوائهم تحت لواء الإسلام ، ولذلك انطلق حسان ابن ثابت يوضح قوة المسلمين وشجاعتهم ، ويصف حلمهم على أعدائهم ومعاملتهم الكريمة للناس وحرصهم على هداية الآخرين وقد تم للفريقين ما تمنياه وحرصا عليه فبعد هذه المفاخرات ، نجد الأقرع بن حابس ، يقسم إن هذا الرجل لمؤتى له — أى أنه موفق — ولذا يسارع الجميع بإعلان إسلامهم وتصديقهم برسالة محمد (ص) ويقبل عليهم نبينا (ص) فيعطيهم الهدايا والجوائز لا يترك واحدا

منهم حتى الذى تخلف فى ركابهم — عمرو بن الأهتم — قد بعث إليه الرسول (ص) بمثل ما أعطى القوم ، ويتحول اللقاء إلى فرحة غامرة ، وسعادة تملأ صدور الجميع بما وفقهم الله إليه ، وبما انتهى إليه أمر وفد بنى تميم من تأييد للدعوة المحمدية ونصرة لرسوله الكريم (ص) .

أما الحكم الفنى على النقيضتين ، فإنه قد صدر من الخصم نفسه . فالأقرع بن حابس قد قرر فى إعجاب وانبهار بما سمع وشاهد: « إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا »(1) وذلك راجع إلى ما سجله حسان بن ثابت من المعانى العظيمة التى اتصف بها أتباع محمد وعشيرته . فهم قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ، أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا ، وهذه طبيعة فيهم وجبلة جبلوا عليها ، وهم أسبق الناس إلى المكرمات ، وأوجه الخير والبر . وهم لا تذهب نشوة النصر بعقولهم فيتطاولون على غيرهم، وإن أصيبوا فلا جزع أو إحباط، وهم أسود الشرى فى حلبة القتال . وهم أعزة برسولهم الكريم .

كما أن أساليب حسان بن ثابت متينة النسج ، محكمة الصياغة، قوية الأداء للمعانى والأفكار التى تحملها . وقاموسه اللغوى فى هذه القصيدة قاموس اللغة الحضرية التى تخلصت من التقعر والحوشية، واعتمدت الألفاظ السهلة الموحية فى رقة وعذوبة فى معظم أبيات القصيدة .

وقد التقى الشاعران فى كثير من المعانى والأفكار . فالفخر بالشجاعة والكرم والنجدة والمكانة الرفيعة صفات مشتركة لدى الشاعرين ، وإن امتد نفس حسان فى هذا المجال فأفرد الأبيات العديدة لتعداد تلك المكارم وبيان أوجهها .

والزبرقان قد اتجه إلى الفخر بالمعانى الجاهلية كالعز والجاه

---

١ — راجع السيرة النبوية ٢/٥٦٦ .

والسلطان والكرم بينما اتجه حســـان إلى الفخر بالدين الحنيف ، وبالرسول (ص) وبالأخوة التى ربطت بين المهاجرين والأنصـــار ، واتباعهم تعاليم الدين الإسلامى ، والسير على نهجه القويم فهــم أسبق الناس إلى الحق وهم كرماء لا يضنون بالخير على حلفائهم ، وهم أعفة لا يتحكم الطمع فى عطائهم • ولا يفعلون ما يدنس شرفهم أو ينال من أخلاقهم ومكارمهم •

لذلك كله كانت قصيدة حسان بن ثابت أقوى أداء ، وأغزر معنى ، وأمتن صياغة ، فكانت أبلغ رد على الزبرقان ومن معه ، واستطاع الشاعر بما وفق إليه فى هذه القصيدة أن يفحم خصوم الإسلام ، وأن يجبرهم على الاعتراف له بالقوة والتمكن من ناصية القول ، والإبداع الفنى ، فقد نالت إعجاب الحاضرين الذين أقبلوا بعدها على الإسلام فى رضى وقناعة كاملين • ولذلك فإن هذه القصيدة تعد من عيون شعر حسان بن ثابت وروائعة الفنية •

(ب) أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا :

قال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم بالشعر من بنى تميم أن الزبرقان بن بدر لما قدم رسول الله (ص) فى وفد بنى تميم قام فقـــال :

أتينـــاك كيما يعلـــم الناس فضلنـــا
إذا احتفلوا عند احتضار المواسم (١)

بأنا فروع النـــاس فى كـــل موطن
وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم (٢)

---

(١) المواسم : جمع موسم ، وهو المكان الذى يجتمع فيه الناس مرة كل سنة مثل موسم الحج •
(٢) دارم : من بنى تميم •

وأنا نذود المعلمين إذا انتخـــوا
ونضرب رأس الأصيــد المتفــاقم (١)

وأن لنــــا المرباع فى كــل غــارة
نغير بنجــد أو بأرض الأعاجــم (٢)

فقام حسان بن ثابت فأجابه فقال :

هــل المجد إلا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمــــال العظائم (٣)

نصرنا وآوينــــا النبى محمـــــدا
على أنف راض من معــد وراغــم (٤)

بحى حــــريد أصـــــله وثراؤه
بجابيـــة الجولان وسط اعاجم (٥)

نصرناه لمــا حــل وســط ديارنــا
بأسيافنــا من كــل باغ وظــالم (٦)

---

(١) المعلمين : ـ بضم الميم وسكون العين وفتح اللام ـ وهم الذين يعلمون انفسهم فى الحرب بعلامة يعرفون بها • انتخوا : من النخوة ، وهى التكبر والاعجاب . الأصيد : المتكبر الذى يلوى عنقه يمينا وشمالا . المتفاقم : المتعاظم •

٤ ـ المرباع : ربع الغنيمة وهو نصيب الرئيس فى الغنائم • نجد : ما ارتفع وعلا من الارض • ويريد به ارض العرب •

(٣) العــود : ـــ بفتح العين وسكون الواو ـــ : القديم والذى يتكرر على مر الزمن • الندى : الكرم والعطاء • العظائم : جمع عظيمة • وقد روى ديوان حسان بن ثابت هذه الابيات على نسق اخر ، فقد جعل هذا البيت سادسا للأبيات •

(٤) جعل ديوان حسان بن ثابت هذا البيت بداية القصيدة ، وجاء الشطر الاول هكذا : « منعنا رسول الله اذ حل وسطنا » •

(٥) لم يذكر الديوان هذا البيت • حى حريد : منفــــرد لا يختلط بغيره لعزته . جابية الجولان : موضع بالشام .

(٦) جاء هذا البيت فى الديوان البيت الثانى فى المقطوعة ، وجاءت كلمة « منعناه » مكان « نصرناه » •

جعلنـــا بنينـــا دونه وبنـــــاتنا

وطبنـــا له نفسا بفىء المغـــانم (١)

ونحن ضربنـــا النـــاس حتى تتابعوا

على دينه بالمرهفـــات الصوارم (٢)

ونحـــن ولدنا من قريش عظيمهـــا

ولدنا نبى الخير من آل هاشم (٣)

بنى دارم لا تفخـــروا إن فخركم

يعود وبالا عنـــد ذكـــو المكارم (٤)

هبلتـــم علينـــا تفخـــرون وأنتمـــو

لنـــا خول ما بين ظئر وخادم (٥)

فإن كنتمـــو جئتـــم لحقـــن دمائكم

وأموالكم أن تقسمـــوا فى المقاسم

فلا تجعلـــوا لله نـــدا وأسلمـــوا

ولا تلبسوا زيا كزى الأعاجـــم (٦)

---

١ ـ هذا هو البيت الثالث فى الديوان ·

٢ ـ هذا هو البيت الرابع فى الديوان · المرهفات الصوارم : السيوف القاطعة ·

٣ ـ البيت الخامس فى الديوان · وروى « كريمهـــا » بدلا من « عظيمها » · ، و « نبى الله » مكان « نبى الخير » ·

٤ ـ جاء قبل هذا البيت فى الديوان البيت الذى يقول : « هـــل المجد ··· » والبيت التالى :

لنا الملك فى الاشراك والسبق فى الهدى ونصر النبى وابتنـــاء المكارم

٥ ـ هبلتم : فقد تم · يريد الدعاء عليه بالفقدان · الظئر : التى ترضع ولد غيرها وهى تأخذ لذلك أجرا ، والخادم : يقال للذكر والأنثى على السواء ·

٦ ـ روى الديوان صدر هذا البيت كالتالى : « تجعـــلوا لله نـــدا وأسلموا » وهو بين الخطأ · وقد روى الديوان بعد ذلك ببيتين هما :

والا أبحناكم وســـقنا نســـاءكم بصم القنـــا والمقربات الصـــلادم

وأفضل ما نلتم من المجـــد والعلا ردافتنـــا عند احتضار المواســـم

المقربات : الخيل التى ضمرت للركوب . وراجـــع النقيضتـــين فى السيرة النبوية لابن هشام وهى التى اعتمدنا عليها هنا فى نقل المقطوعتين ٥٦٦/٢ ، والروض الأنف ٣٨٨/٧ ، وأسد الغابة ١٢٨/١ ·

الدراســة والمــوازنة :

١ ــ هذه هى الجولة الثانية من المباراة الفكرية فى لقاء وفد بنى تميم برسول الله (ص) ، وهى بين الزبرقان بن بدر ، وحســان بن ثابت • ويحرص شاعر الوفد منذ البداية أن يبين الغرض الذىجاءوا من أجله ، وهو المفاخرة ، وإظهار ما لهم من محامد وأفضال • فهــم أصحاب مكانة رفيعة فى جميع المواطن ، وليس كـــدارم فى أرض الحجاز من يماثلهم أو يرتفع إلى درجتهم فى الفضل والمكانة الرفيعة• فهم أصحاب الزعامة فى الحرب ، وهم الرؤساء فى الحروب الداخلية والخارجية ، ولذلك فإنهم يحصلون على الربع المخصص للزعيم من غنائم حروبهم •

أما حسان فإنه يبطل ادعاءات الزبرقان فى السيادة والزعامة، ويجعلها لقومه الأقربين • فهم الذين نصروا رسول الله (ص) على العرب ودافعوا عنه وقدموا عن طيب نفس أبناءهم وأموالهم للزياد عن محمد ونصرته • ويكفى قومه فخرا أن رسول الله (ص) منهم ، فإنهم أدعياء لا فضل لهم ولا شرف فقد كانوا خدما وأجراء لقومه ، فإنهم أدعياء لا فضل لهم ولا شرف فقد كانوا خدما وأجراء لقومه ، ولذلك فإن حسان بن ثابت ينصحهم بالمسارعة إلى إعلان إســلامهم وشهادة أن لا إله إلا الله حتى ينجوا من العقاب ويحقنوا دماءهــم وأموالهــم •

٢ ــ وإذا كانت قصيدة حسان بن ثابت قد اشتركت مع أبيات الزبرقان فى الوزن ــ بحر الطويل ــ والقافية ، فإن حسانا قد انطلق يسجل اعتزاز قومه برسول الله (ص) ووقوفهم بجانبه وافتداءهم له بأعز ما يملكون ، والتصدى للأعداء الحانقين ، مما يؤكد به مكانة قومه الرفيعة • بينما كانت أبيات الزبرقان الأربعة تدور حول فكرة واحدة هى التباهى والتفاخر بمكانة قومه وفضلهم ، لكنها فى حاجة إلى ما يدعمها ويشد من أزرها ، حيث خلت الأبيات من أى دليل على

ما ذهب إليه ، وبذلك تكون أبياته من قبيل المزايدة والمكابرة،في الوقت الذى دعم حسان قوله بأدلة وبراهين واضحة هى نصرة رسول الله (ص) وانضوائهم تحت لوائه ، وارتباطهم به نسبا وعقيدة وهذا هو المجد والفخار الأعظم ، ولذلك كان صوت حسان أقوى، وكان الفارس المغوار فى هذا اللقاء الفكرى • وقد شهد بذلك أحد سادتهم الأقرع بن حابس ، وشاركه أفراد الوفد فى رأيه ، ولذلك وجدناهم جميعـــا يعلنون إسلامهم ، ويقبلون على رسول الله (ص) مبايعين مستبشرين•

الخاتمـــــة

١ ـ بعد هـذه السياحة والتطواف مع أهم النقائض وأبرزها خلال البعثة المحمدية ، فإنه قد استبان لنا الآن أن الشعر وخاصة شعر النقائض ، كان أحد أدوات الحرب التى استخدمها الفريقان : فريق المسلمين ، وفريق الكافرين ، إن لم يكن أنفـــذ الأدوات الحربية ، وأمضى أسلحتها • فلم تخل معركة من المعارك الحربية إلا وارافقتها أو أعقبتها معركة شعرية كلامية ، كانت النقائض قاسما مشتركا فى معظمها • بل إن الأمر لم يقتصر على المعارك والغزوات ، حيث رأينا فن النقائض يرود مجالات أخرى ، كالذى حدث بين الأخوين بجير وكعب ابنى زهير بن أبى سلمى ، وبين نعم وأخيها أبى الحكم ، وكما كان بين وفد بنى تميم وحسان بن ثابت شاعر الرسول (ص) ، بل لقد وجدت النقائض الإسلامية مع أولى مراحل الدعوة المحمدية وقبـــل الوقائع الحربية الشهيرة ، كما رأينا فيمـــا أوردنا فى حادث أسر سعد بن عبادة ومطاردة رفيقه المنذر بن عمرو ، وفراره من قبضـــة مشركى مكة ، وذلك بعد أن علمت قريش ببيعة العقبة الثـــانية • وكما كان بعد عقد أول راية فى الإسلام لعبيدة بن الحارث ، وغير ذلك مما أوضحناه فى هذه الدراسة •

وقد استبان لنا من خلال هذا البحث أن المسلمين لم يكونوا هم البادئين بإدخال الشعر فى حلبة الصراع الدينى أول الأمر ، فما كان لهم أن يفعلوا ذلك وقرآنهم الكريم فيه غنية عن وسائل الإقنـــاع الأخرى لمن شاء أن يتعقل أو يستجيب ، لكن قريشا لم تدع المجـــال مفتوحا لكى يصل القرآن إلى عامة الناس ـ حتى بعـــد الهجرة ـ إذ أخذت تهاجم المسلمين بشعرها ، لتعلن فيـــه عن ضعف المسلمين وتتهمهم بالجبن والفرار ، وتسمهم بالتمرد على العادات والتقاليـــد المرعية فى الجزيرة العربية ، فهم الذين سخروا شعرهم للفخر بتعذيب

سعد بن عبادة وتهديد المنذر بن عمرو — كما رأينا فى النقيضة الأولى — الذى أعجزهم أن يصلوا إليه • فكان طبيعيا أن يتدخل الشعر الإسلامى إزاء ذلك الهجوم الضارى فى المعركة ، وأن يرد كيد الكائدين ، ويبين مآثر المسلمين وصفاتهم ، ويبرز قوتهم ، ويعلن عن مبادىء الإسلام وصفات النبى (ص) ويفند دعاوى قريش ، ويشهر بما يصنعونه وغيرهم من أعداء المسلمين للكيد للإسلام وأتباعه •

٢ — وكانت النقائض فى ذلك العهد مجالا رحبا لظهور كثير من الشعراء والشاعرات ، واشتهار أمرهم ، حتى إن قريشا التى لم تكن معروفة بالشعر قد نبغ فيها شعراء عديدون كأبى سفيان بن حرب ، وزوجه هند بنت عتبة ، وهند بنت أثاثة ، وحمزة بن عبد المطلب وغيرهم ممن تعرفهم المحافل الأدبية شعراء قبل ذلك وإن وجدنا معظمهم لم يقولوا شعرا إلا فى موقف أو موقفين ، ثم نضبت قرائحهم ، وسقطت الأقلام من أيديهم ، وكفوا عن قول الشعر تماما • وكأن هذه الخلافات المذهبية ، والمعارضات الفكرية قد ألهبت مشاعرهم ، وحركت وجداناتهم فراحوا يترجمون عن عقيدتهم ، ويعلنون عن هويتهم بشعر عذب رائع لا يقل إيلاما لأعدائهم عن تلك الأسلحة التى شهرها إخوتهم فى تلك اللقاءات الحربية • فكعب بن الأشرف ، وهند بنت عتبة ، وأبو جهل ، وسماك اليهودى من شعراء الكفار واليهود ، وحمزة بن عبد المطلب ، وهند بنت أثاثة ، وميمونة بنت عبد الله من شعراء المسلمين ، كانوا قصيرى النفس فى الشعر ، وخاصة فى موضوع النقائض ، فلم نجد لبعضهم أكثر من أبيات معدودة فى موقف أو موقفين ، ثم اختفت أصواتهم ، وتوقف قولهم الشعرى • أما حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك الأنصارى ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن الزبعرى ، والحارث بن هشام ، وأبو سفيان ، وعبيدة بن وهب ، فقد تأججت عواطفهم ، وامتد نفسهم الشعرى ، فرأينا لهم المقطوعات والقصائد التى أسهموا بها فى إثراء النقائض الأدبية ، وكانوا علامات بارزة فى هذا الفن الشعرى ، بل إن حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبد الله بن الزبعرى والحارث بن هشام كانوا فرسانه وأربابه ،

واحتدمت اللقاءات الشعرية بينهم احتداما عظيما ، واشتعلت المعارك الكلامية بينهم بقدر اشتعالها فى اللقاءات الحربية الساخنة بين فريقى الإسلام والكفر ، وكانت مرافقة لها ، مواكبة لمسيرتها • وكانت محصلة ذلك الصراع المذهبى ، والمعارك الشعرية كما هائلا من الشعر ، مع اختلاف المسميات والاتجاهات والمؤثرات ، حظى فن النقائض منــه بأكثر من خمسة وعشرين موقعا ، انتظمت أكثر من ســتين مقطوعة وقصيدة شعرية ، أبدعها شعراء الفريقين المتصارعين فكانت وقودا دائما لتلك الوقائع الحربية بما تضمنته من هجاء وفخر وإشــــادة بالانتصارات ونيل من الأعداء • وفى الوقت ذاته كانت سجلا حقيقيا يعكس ما كان من صراع محتدم بين أتباع الكفر ، والمسلمين ، ويرينا مدى ضراوة هذه اللقاءات وشراستها ، ويسجل مسيرة الإســـلام وسط غابة الكفر ، وعماية القلوب حتى أذن الله الضوء الإسلام أن ينبلج ويعم أرجاء هذه الدنيا •

٣ ــ وقد أبانت هذه الدراسة عن أهم الجوانب التى جدت فى عنصرى الفخر والهجاء اللذين كانا عماد النقائض • فقد استبــدل شعراء المسلمين وأعداؤهم فى هذه الموضوعات عنصر العقيــــدة بالفردية والقبلية ، مع استمرار الاعتزاز بطيب المحتد وعلو الحسب وشرف النسب، كما انعكست ظلال القيم الاجتماعية والخلقية والنفسية التى تبدلت واستجدت بظهور الإسلام على أفكار ومعانى شعر الفخر والهجاء ، ودخلت فى لغة العرب ألفاظ وعبارات بتأثير المضمـــــون الإسلامى الجديد من القرآن الكريم والسنة النبوية،كما ظهر الاهتمام لدى الشعراء بالفكرة دون بهرجة الكلام وتنميقه ، ولذلك عــد بعض الباحثين النقائض الإسلامية الأساس الأول الذى بنيت عليه نقائض جرير والفرزدق والأخطل فى العصر الأموى (١) •

٤ ــ وإذا كانت هذه الدراسة قد عرضت لأكثر من ستين مقطوعة

---

١ ــ راجع : الشعر العربى من الجاهلية حتى نهـــاية القرن الأول الهجرى ص ٨٠ محمد مصطفى هدارة ــ دار المعارف بمصر •

وقصيدة بالدراسة والتحليل والشرح والموازنة ، مما أعان على فهم تلك النصوص وإجلاء غامضها أمام المتلقى ، فإن ما بهـا من أسماء عديدة للأشخاص والأماكن والجبال والأودية والمعارف والمواضعات والعادات الاجتماعية — التى طال عليها العهد — قد تطلب الجهـــد المضاعف ، والبحث الموسع الدءوب فى العديد من المصادر والمراجع حتى أمكن تحديد العموميات ، وإيضاح الغامض والمبهم ، وإجــلاء الحقائق المطمورة حتى خرجت تلك النصوص فى ثوب جديد يشف عن مضمونها ، ويعلن عن مكنونها .

كذلك فإن تناول هذه الدراسة لأكثر من خمسة وعشرين شاعرا وشاعرة معظمهم جميعا — كما قلت — ممن لم تعرفهم المحافل الأدبية إلا فيما ورد لهم من أبيات معدودة فى تلك اللقاءات قد تطلب منى كثيرا من الصبر على البحث والتنقيب فى المصادر العديدةحتى تمكنت من أن أترجم لمعظمهم ، وأن أعرض لأبرز جوانب حياتهم وشاعريتهم مما أزال كثيرا من الحجب التى أحاطت بأسمائهم بعــد أن اكتفى أصحاب المصادر الأساسية فى السيرة النبوية بذكر أسمائهم مقرونة بما أوردوه لهم من شعر ، ولم يلمحوا إلى شىء من حياتهم أو سيرهم الذاتيــــة .

٥ — وإذا كانت هذ هالدراسة جديدة فى بابهــا ، وبما اتجهت إليه من طرق البحث والتوفر على دراسة لون واحد فى فترة زمنية محددة حفلت بالأحداث والصراعات الفكرية والعقائدية مما لم يسبق إليه أحد بهذا التحديد ، وتلك الإحاطة فى الدراسةوالتحليلوالموازنة. فإنها بالإضافة إلى ذلك قد استطاعت أن تظهر — لأول مرة — مقومات النقائض فى صدر الإسلام بما أوردته من أنماط مختلفة من المباريات الفنية التى كانت الركيزة الأولى لإرساء معالم هذا الفن فى الشعر العربى ، وأن تفرق بينه وبين ما سبقه من ظواهر أدبية فى هذا اللون

الأدبى ، أو ما تلاه فى العصر الأموى • فقد استبان خلال عرضها ودراستها أن نقائض العهد النبوى تمثل مجتمعا بأسره سواء كان مجتمعا إسلاميا ، أو مجتمعا كافرا • فهى حديث عن الجماعة ودفاع عنها ، سواء فى جانب المسلمين أو فى جانب الكافرين ، كما استمدت مقوماتها من العقيدة الدينية والأخلاق والمذهب السياسى لكل فريق• أما النقائض الجاهلية فقد اعتمدت على الأحساب والأنساب والعصبية القبلية ، وأيام العرب التى دارت بين القبائل • وبخلاف النقائض فى العصر الأموى حيث اتجهت إلى الطعن فى الأحساب والأنساب ، والحديث عن الفرد ذاته ، مما يعبر عن خلاف شخصى بين شاعرين حرص كل منهما على الإغراق فى الإفحاش بهتك الأعراض والتصريح بذكر المثالب والعورات مما يرفضه الخلق الكريم ، وتأباه البيئة الإسلامية •

٦ — وإنى بهذا الجهد المتواضع أجدنى قد وضعت اللبنة الأولى فى دراسة فن النقائض فى العهد النبوى ، ويكفينى أننى جمعت شتات أفكاره ومادته العلمية ، وحاولت — قدر الطاقة — أن أكشف عن العديد من جوانبه الفنية والإبداعية ، وأن أوضح كثيرا من ملامحه السياسية والاجتماعية ، وما لابسه من عوامل ومقومات ، وأن أخرج هذا اللون الأدبى إلى دائرة الأضواء ، بعد أن رانت عليه تراكمات الزمن ، وانزوى بعيدا عن أيدى الباحثين ونظر الدارسين ، حتى قدمته إليهم فى صورة مجلوة ، وفى ثوب قشيب ، ليكون ذلك حافزا لهم إلى مراجعته والنظر فيه • وأشير هنا إلى أن جهدى فى هذا المجال إنما هو بداية على طريق ممتد الجنبات ، متسع الأرجاء ، وهو فى حاجة إلى مواصلة السير فيه ، واستئناف البحث ، ومعاودة النظر حتى تتضح أمامنا الصورة الكاملة لهذا الفن الأدبى العظيم الذى كان حصيلة صراعات محتدمة بين قوى الخير وقوى الباطل ، ورافق

مسيرة البعثة المحمدية وما تعرضت اه من كيد ونكران حتى محـــق الله كيد االكافرين ، وكتب النصر لأوليائه المؤمنين .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل . وأن يجعله خالصا لوجهه ، وأن يكون ثوابه رضا منه ورحمة . ذلك فضـــل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

دكتـــور

حسن أحمد الكبير

وكيل كلية اللغة العربية بالزقازيق

١ ـ فهرست المصـــادر والمراجـــع

١ ـ اسـد الغابة فى معرفة الصحابة .
لابن الأثير ـ كتاب الشعب الأجزاء : ١ ، ٢ ، ٧ .

٢ الإصابة فى تمييز الصحـابة .
تحقيق طه الزينى ـ مطبعة الفجالة الجديدة ١٩٧٦ م الأجزاء :٢،٥

٣ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .
مطبعة دار الكتب المصرية ـ الطبعة الأولى . الأجزاء : ٢،٤،١٧

٤ ـ الاكتفاء فى معازى رسول الله والثلاثة الخلفاء .
تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ مكتبة الخانجى القاهرة ـ الجزء الأول ١٩٦٨ م والجزء الثانى ١٩٧٠ م .

٥ ـ ايام العرب فى الإسـلام .
محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى البجاوى ـ دار احيـاء الكتب العربيـة ط ٤ .

٦ ـ البـداية والنهاية لابن كثـير .
دار الفكر ببيروت ١٩٧٨ م الأجزاء : ٣ ، ٤ .

٧ ـ تاريخ الآداب العربيـة لكارلونالينـو .
دار المعـارف بمصر ١٩٧٠ م ط ٢

٨ ـ تاريخ آداب العربيـة لجورجى زيدان .
مطـابع دار الهلال ـ الجزء الأول .

٩ ـ تاريخ الأدب العـربى . لعمـر فروخ .
دار العلم للملايين ببيروت ١٩٧٨ م ـ الجزء الأول .

١٠ ـ تاريخ الشـعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى .
احمد الشايب ـ مطبعة الاعتماد .

١١ ـ تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى .
يوسف خليف ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٦ م

١٢ ـ تاريخ الطبرى .
تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر الجزء الثانى

١٣ ـ تاريخ النقائض فى الشعر العربى .
احمد الشايب ـ الاتحاد العربى للطباعة . الطبعة الثالثة .

١٤ — حسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة .
تأليف مفتى هرسك — مطبعة دار السعادة ١٣٢٤ هـ .

١٥ — خاص الخـــاص .
لأبى منصور الثعالبى — مصر ١٣٢٦ هـ .

١٦ — ديوان الإمـــام على .
جمع وترتيب عبد العزيز الكرم ، دار كرم بلبنان

١٧ — ديوان حسان بن ثابت .
تحقيق سيد حنفى حسنين — دار المعارف بمصر .

١٨ — ديوان عبـــد الله بن رواحـــة .
دراسة وجمع وتحقيق حسن محمد باجودة — مطبعـــة الســـنة المحمـــدية بالقاهرة .

١٩ — ديوان كعب بن مالك الأنصـــارى .
دراسة وتحقيق سامى العانى — مكتبة النهضة ببغداد ١٩٦٦ م .

٢٠ — الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام .
تحقيق مصطفى عبد الواحد — مكتبة الخانجى القاهرة — الجزء ١٩٦٩ م — ســـتة أجزاء .

٢١ — السيرة النبوية .
تحقيق أحمد حجازى السقا — مطبعة نهضة مصر — ٤ أجزاء فى مجـــلدين .

٢٢ — الســـيرة النبوية لابن هشـــام .
تحقيق مصطفى السقا وآخرين — مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده — ٤ أجزاء فى مجلدين

٢٣ — سيرة النبى .
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — مطبعة المدنى ١٩٧١ م — ٤ أجزاء فى مجـــلدين .

٢٤ — السير والمغـــازى — لابن اســـحق .
تحقيق سهيل ذكار — دار الفكر ببيروت — الطبعة الأولى .

٢٥ — شاعرات العرب فى الجاهلية والإسلام .
جمع بشير يموت — المكتبة الوطنية ببيروت — الطبعة الأولى .

٢٦ — شرح نهـــج البلاغة — لابن أبى الحديد .
تحقيق محمد أبى الفضل — دار احياء الكتب العربيـــة الطبعـــة الثانيـــة — الجزء ١٣ .

٢٧ ـ الشعر الإسلامى فى ظـلال النبوة والخلافة الراشدة .
عبد السلام عبد الحفيظ ـ مطبعة قاصد خير .

٢٨ ـ شعر الدعوة الإسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين .
جمع وتحقيق وتوثيق وشرح عبد الله بن حامد الحامد ـ موسوعة الأدب الإسلامية (١) مطبوعات كلية اللغة العربية بالرياض ١٣٩١هـ

٢٩ ـ الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى .
محمد مصطفى هدارة ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الأولى .

٣٠ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد .
دار صادر ببيروت ١٣٧٦ هـ ـ الجزء الثانى .

٣١ ـ طبقات فحـول الشعراء ـ لابن سلام الجمحى .
قراءة وشرح محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدنى ـ السفر الأول

٣٢ ـ العصر الإسلامى .
شوقى ضيف ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة السابعة .

٣٣ ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ـ لابن سـيد الناس . دار المعرفة للطباعة والنشر ـ ببيروت ـ المجلدان ١ ، ٢

٣٤ ـ عيون الأخبار ـ لابن قتيبة .
الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٣ م ـ الجزء الأول .

٣٥ ـ فتح البارى فى شرح صحيح البخـارى .
دار المعرفة ببيروت ـ الجزء السابع .

٣٦ ـ المدخل الى الأدب العربى .
للمستشرق هاملتن جب ـ ترجمـة ناظم سعد الدين ـ مطبعة دار الجـاحظ ببغـداد .

٣٧ ـ معـارك الإسـلام فى العصر النبـوى .
محمد رجب البيومى ـ مطبعة السعادة ـ الطبعة الأولى .

٣٨ ـ نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى .
عبد الحميد المسلوت ـ دار القـلم بالقاهرة .

٣٩ ـ نقائض ابن المعتز وتميم بن المعز .
أحمد سيد محمد ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية .

٤٠ ـ نهـاية الأرب فى فنون الأدب .
للنويرى ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ الأجزاء ٧ ، ١٧

٢ — فهرست الموضوعات